

الهِجْرَةُ النَّبَوِيَّةُ

إمام الدُّعَاةِ فَضِيلَةُ الشَّيْخِ
مُحَمَّدُ مَنُتَوَلِي الشُّعْرَاوِي



إبراهيم بن عبد الله

المكتبة التوفيقية

منتدى سور الانزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

مكتبة الإمام الحسينية الإسلامية
مكتبة الإمام الحسينية الإسلامية

الحسينية النبوية

إعداد ودراسة وتحقيق
مركز التراث لخدمة الكتاب والسنة



إمام الباب الأخضر - سيلنا الحسين
ت ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠

قال رسول الله ﷺ :
« رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى
أرض بها نخل ، فذهب وهلي إلى أنها
اليمامة أو هجر ، فإذا هي المدينة يثرب »^(١) .

(١) أخرجه البخاري [٣٦٢٢] ، ومسلم [٢٢٧٢] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الناشر :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

وبعد .. فإن العبد منذ استقرت قدمه في هذه الدار فهو مسافر فيها إلى ربه تعالى . ومدة سفره هي عمره الذي كُتب له .

إذن .. فالعمر هو مدة سفر الإنسان في هذه الدار إلى ربه . ثم قد جعلت الأيام والليالي مراحل لسفره ؛ فكل يوم وليلة مرحلة من المراحل ، فلا يزال يطويها مرحلة بعد مرحلة حتى ينتهي السفر .

فالكيس الفطن هو الذي يجعل كل مرحلة نصب عينيه فيهتم بقطعها سالماً غانماً ، فإذا قطعها جعل الأخرى نصب عينيه .

والناس في قطع هذه المراحل قسمان : قسم قطعوها مسافرين فيها إلى دار الشقاء ، فكلما قطعوا منها مرحلة ، قربوا من تلك الدار ، وبعثوا عن ربهم وعن دار كرامته ، فقطعوا تلك المراحل بمساخط الرب ومعاذاة رسله وأوليائه ودينه ، والسعى في إطفاء نوره وإبطال دعوته وإقامة دعوة غيره ، فهؤلاء جعلت أيامهم يسافرون فيها إلى الدار التي خلَقوا لها واستعملوا بها ، فهم مصحوبون فيها بالشياطين الموكلة بهم يسوقونهم إلى منازلهم سوقاً كما قال تعالى : ﴿ اَلَمْ تَرَ اَنَّا اَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ اَزْأًا ﴾ [مريم : ٨٣] أى ترعجهم إلى المعاصي والكفر إزعاجاً وتسوقهم سوقاً .

القسم الثاني : قطعوا تلك المراحل سائرين فيها إلى الله وإلى دار السلام وهم ثلاثة أقسام :

○ ظالم لنفسه . ○ ومقتصد . ○ وسابق بالخيرات بإذن الله .
وهؤلاء كلهم مستعدون للسير موقنون بالرجعى إلى الله ، ولكن متفاوتون فى التزود وتعبئة الزاد واختياره^(١).

فما زاد هذا المسافر ، وما طريقه ، وما مركبه ؟
قال العلامة ابن القيم : زاده العلم الموروث من خاتم الأنبياء ﷺ ولا زاد له سواه ، فمن لم يُحْصَل هذا الزاد فلا يخرج من بيته وليقعد مع الخالفين .
فرقاء المتخلف البطالون أكثر من أن يحصوا ، فله أسوة بهم ، ولن ينفعه هذا التأسى يوم الحسرة شيئاً ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف : ٣٩] فقطع الله سبحانه انتفاعهم بتأسى بعضهم ببعض فى العذاب ، فإن مصائب الدنيا إذا عمت صارت مسلاة ، وتأسى بعض المصايين ببعض ، كما قالت الخنساء^(٢) :

(١) إنى مهاجر إلى ربي [٥١] .

(٢) هى تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد ، والخنساء لقب عليها لقبت به تشبيهاً لها بالبقرة الوحشية فى جمال عينيها ، قتل أخوها صخر ومعاوية فحزنت عليهما خاصة على صخر فرثته بشعر كثير وهى من شواعر العرب المعترف لهم بالتقدم ؛ أجمع الشعراء ورواة الشعر القدماء على أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها فى الرثاء . أسلمت مع قومها من بنى سليم وانبعثت مع المسلمين لفتح بلاد فارس فقتل أولادها الأربعة فى وقعة القادسية [١٦هـ ٦٣٨م] فقالت لما بلغها خبر مقتلهم : « الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم وأرجو من ربي أن يجمعنى بهم فى مستقر الرحمة » .
راجع ترجمتها فى : الإصابة [٢٢٥/١٢] . والأبيات فى الديوان ص [٨٤، ٨٥] .

ولو لا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقلت نفسي
وما يكون مثل أخى ولكن أعزى النفس عنهم بالتأسى
فهذا الروح الحاصل من التأسى معدوم بين المشركين فى العذاب يوم القيامة .
وأما طريقه : فهو بذل الجهد واستفراغ الوسع ، فلا ينال بالمنى ، ولن يُدرك
بالهوينى ، وإنما هو كما قيل :

فخض غمرات الموت واسم إلى العلا لكى تدرك العز الرفيع الدائم
فلا خير فى نفس تخاف من الردى ولا همة تصبو إلى لوم لائم
ولا سبيل إلى ركوب هذا الظهر إلا بأمرين :
أحدهما : ألا يصبو فى الحق إلى لوم لائم ، فإن اللوم يصيب الفارس فيصرعه
عن فرسه ، ويجعله صريعاً فى الأرض .

والثانى : أن تهون عليه نفسه فى الله ؛ فيقدم حيثذ ولا يخاف الأهوال ، فمتى
خافت النفس تأخرت وأحجمت وأخلدت إلى الأرض ، ولا يتم له
هذان الأمران إلا بالصبر ، فمن صبر قليلاً صارت تلك الأهوال ريحاً
رخاء فى حقه تحمله بنفسها إلى مطلوبه ، فبينما هو يخاف منها ، إذ
صارت أعظم أعوانه وخدمه ، وهذا أمر لا يعرفه إلا من دخل فيه .
وأما مركبه : فصدق اللجأ إلى الله والانقطاع إليه بكلية ، وتحقيق الافتقار إليه
بكل وجه ، والضراعة إليه ، وصدق التوكل والاستعانة به ، والانطراح بين يديه
انطراح المسلول المكسور الفارغ الذى لا شئ عنده ، فهو يتطلع إلى قِيَمه ووليّه أن
يجده ويلم شَعْنه ، ويمده من فضله ويستره ، فهذا الذى يُرجى له أن يتولى الله
هدايته ، وأن يكشف له ما خفى على غيره من طريق هذه الهجرة ومنازلها^(١).

(١) زاد المهاجر إلى ربه [١١٧: ١١٩] .

وقال رحمة الله تعالى عليه : والهجرة إلى الله ورسوله فرض عين على كل أحد في كل وقت^(١)، وأنه لا انفكاك لأحد من وجوبها ، وهي مطلوب الله ومراده من العباد .

إذ الهجرة هجرتان : هجرة بالجسم من بلد إلى بلد ، وهذه أحكامها معلوم ، الكلام فيها .

والهجرة الثانية : الهجرة بالقلب إلى الله ورسوله ، وهذه الهجرة هي الهجرة الحقيقية وهي الأصل ، وهجرة الجسد تابعة لها .

والهجرة إلى الله تعالى ورسوله ﷺ تتضمن « من » و « إلى » فيها جر بقلبه من محبة غير الله تعالى إلى محبته سبحانه ، ومن عبودية غيره تعالى إلى عبوديته سبحانه ، ومن خوف غيره ورجائه والتوكل عليه ، إلى خوف الله ورجائه والتوكل عليه ، ومن دعاء غيره وسؤاله والخضوع له والذل والاستكانة له ، إلى دعائه ، وسؤاله والخضوع له والذل له والاستكانة له .

وهذا بعينه معنى الفرار إليه ، قال تعالى : ﴿ فَفَرُّوْا إِلَى اللَّهِ ﴾ [الذاريات : ٥٠] .
والتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله إليه .

(١) قال ابن القيم في طريق الهجرتين [ص : ٧] في الحديث عن أولياء الله : « وله في كل وقت هجرتان : هجرة إلى الله بالطلب والمحبة والعبودية والتوكل والإنابة والتسليم والتفويض والخوف والرجاء والإقبال عليه وصدق اللجأ والافتقار في كل نفس إليه .

وهجرة إلى رسوله في حركاته وسكناته الظاهرة والباطنة بحيث تكون موافقة لشرعه الذي هو تفصيل محاب الله ومرضاته ولا يقبل الله من أحد دينًا سواه وكل عمل سواه فعيش النفس وحظها ، لا زاد للمعاد » اهـ .

وتحت « من » و « إلى » فى هذا سر عظيم من أسرار التوحيد . فإن الفرار إليه سبحانه يتضمن إفراجه بالطلب والعبودية ولوازمها من المحبة والخشية والإنابة والتوكل وسائر منازل العبودية ، فهو متضمن لتوحيد الإلهية التى اتفقت عليها دعوة الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وأما الفرار منه إليه فهو متضمن لتوحيد الربوبية وإثبات القدر ، وأن كل ما فى الكون من المكروه والمحذور الذى يفر منه العبد، فإنما أوجبه مشيئة الله وحده، فإنه ما شاء كان ووجب وجوده بمشيئته ، وما لم يشأ لم يكن، وامتنع وجوده لعدم مشيئته . فإذا فر العبد إلى الله فإنما يفر من شيء إلى شيء وجد بمشيئة الله وقدره فهو فى الحقيقة فار من الله إليه.

ومن تصور هذا حق تصوره فهم معنى قوله ﷺ : « وأعوذ بك منك »^(١) وقوله : « لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك »^(٢) فإنه ليس فى الوجود شيء يفر منه ويستعاذ منه ، ويلتجأ منه ، إلا هو من الله خلقاً وإبداعاً .

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم [٢٢٢/٤٨٦] عن عائشة رضى الله عنها قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فوقعت يدي على بطن قدميه وهو فى المسجد . وهما منصوبتان وهو يقول : « اللهم ؛ أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك . لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .

(٢) جزء من حديث أخرجه البخارى [٦٣١٣] ، ومسلم [٥٧/٢٧١٠] واللفظ له عن البراء بن عازب رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ أمر رجلاً ، إذا أخذ مضجعه من الليل أن يقول : « اللهم ؛ أسلمت نفسى إليك ووجهت وجهى إليك ، وألجأت ظهري إليك ، وفوضت أمري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ، وبرسولك الذى أرسلت فإن مات مات على الفطرة » .

فالفار والمستعيز : فار مما أوجده قدر الله ومشيتته وخلقه إلى ما تقتضيه رحمته وبره ولطفه وإحسانه ، ففي الحقيقة هو هارب من الله إليه ، ومستعيز بالله منه .
وتصوّر هذين الأمرين يوجب للعبد انقطاع تعلق قلبه عن غيره بالكلية خوفاً ورجاء ومحبة ، فإنه إذا علم أن الذي يفر منه ويستعيز منه إنما هو بمشيئة الله وقدرته وخلقه لم يبق في قلبه خوف من غير خالقه وموجده ، فتضمن ذلك أفراد الله وحده بالخوف والحب والرجاء ، ولو كان فراره مما لم يكن بمشيئة الله ولا قدرته ، لكان ذلك موجباً لخوفه منه ؛ مثل ما يفر من مخلوق آخر أقدر منه ، فإنه في حال فراره من الأول خائف منه ؛ حذراً ألا يكون الثاني يفيد منه ، بخلاف ما إذا كان الذي يفر إليه هو الذي قضى وقدر وشاء ما يفر منه ، فإنه لا يبقى في القلب التفات إلى غيره .

فتفطن إلى هذا السر العجيب في قوله : « أعوذ بك منك » و « لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك » فإن الناس قد ذكروا في هذا أقوالاً وقل من تعرض منهم لهذه النكتة التي هي لب الكلام ومقصوده .
فتأمل كيف عاد الأمر كله إلى الفرار من الله إليه ؛ وهو معنى الهجرة إلى الله تعالى ؟

ولهذا قال النبي ﷺ : « المهاجر من هجر ما نهى الله عنه »^(١) ولهذا يقرن الله سبحانه بين الإيمان والهجرة في غير موضع لتلازمهما واقتضاء أحدهما للآخر .

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري [٤٨٤٦] عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » .

والمقصود : أن الهجرة إلى الله تتضمن هجران ما يكرهه وإتيان ما يحبه ويرضاه ، وأصلها الحب والبغض ، فإن المهاجر من شيء إلى شيء لا بد أن يكون ما هاجر إليه أحب مما هاجر منه ، فيؤثر أحب الأمرين إليه على الآخر . وإذا كان نفس العبد وهواه وشيطانه إنما يدعونه إلى خلاف ما يحبه ويرضاه ، وقد بلى بهؤلاء الثلاث ، فلا يزالون يدعونه إلى غير مرضاة ربه ، وداعى الإيمان يدعوه إلى مرضاة ربه فعليه فى كل وقت أن يهاجر إلى الله ، ولا ينفك فى هجرته إلى الممات .

وهذه الهجرة تقوى وتضعف بحسب داعى المحبة فى قلب العبد، فإن كان الداعى أقوى كانت هذه الهجرة أقوى وأتم وأكمل . وإذا ضعف الداعى ضعفت الهجرة حتى لا يكاد يشعر بها علماً، ولا يتحرك لها إرادة .

والذى يقضى منه العجب: أن المرء يوسع الكلام ويفرع المسائل فى الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام . وفى الهجرة التى انقطعت بالفتح، وهذه هجرة عارضة ربما لا تتعلق به فى العمر أصلاً .

وأما هذه الهجرة التى هى واجبة على مدى الأنفاس، فإنه لا يحصل فيها علماً ولا إرادة وما ذاك إلا للإعراض عما خلق له. والاشتغال بما لا ينجيه وحده عما لا ينجيه غيره. وهذا حال من غشيت بصيرته وضعفت معرفته بمراتب العلوم والأعمال .

إن الهجرة إلى رسول الله ﷺ علم لم يبق منه سوى اسمه، ومنهج لم تترك بنيات الطريق سوى رسمه ، ومحجة سفت عليها السواقي فطمست رسومها ، وغارت عليها الأعادي فغورت مناهلها وعيونها، فسالكها غريب بين العباد، فريد بين كل حى وناد، بعيد على قرب المكان، وحيد على كثرة الجيران ، مستوحش مما به يستأنسون، مستأنس مما به يستوحشون، مقيم إذا ظعنوا ،

ظاعن إذا قطنوا ، منفرد فى طريق طلبه ، لا يقر قراره حتى يظفر بأربه . فهو الكائن معهم بجسده ، البائن منهم بمقصده ، نامت فى طلب الهدى أعينهم ، وما ليل مطيته بنائم . وقعدوا عن الهجرة النبوية ، وهو فى طلبها مشمر قائم ، يعيبونه بمخالفة آرائهم ، ويزرون عليه إزراءه على جهالاتهم وأهوائهم؛ قد رجموا فيه الظنون ، وأحدقوا فيه العيون ، وتربصوا به ريب المنون ﴿ فَتَرَبَّصُوا ﴾ . إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿ [التوبة : ٥٢] . ﴿ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ١١٢] .

نحن وإياكم نموت ، فما أفلح عند الحساب من ندما والمقصود : أن هذه الهجرة النبوية شأنها شديد وطريقها على غير المعتاد بعيد . بعيد على كسلان أو ذى ملالة أما على المشتاق فهو قريب ولعمر الله ، ما هى إلا نور يتلأأ ، ولكن أنت ظلامه ، وبدر أضاء مشارق الأرض ومغاربها ، ولكن أنت غيمه وقتامه ، ومنهل عذب صافى ، وأنت كدره . ومبتدأ لخير عظيم ، ولكن ليس عندك خبره . فاسمع الآن شأن هذه الهجرة والدلالة عليها ، وحاسب ما بينك وبين الله ، هل أنت من الهاجرين لها ، أو المهاجرين إليها ؟

فحدّ هذه الهجرة: سفر الفكر فى كل مسألة من مسائل الإيمان ، ونازل من منازل القلوب، وحادثة من حوادث الأحكام إلى معدن الهدى ، ومنبع النور الملتقى من فم الصادق المصدوق الذى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۖ ﴾ [النجم] .

فكل مسألة طلعت عليها شمس رسالته، وإلا فاقذف بها فى بحر الظلمات، وكل شاهد عدله هذا المزكى وإلا فعده من أهل الريب والتهمات، فهذا حد هذه الهجرة .

فما للمقيم في مدينة طبعه وعوائده، القاطن في دار مرباه ومولده، القائل:
إننا على طريقة آبائنا سالكون، وإننا بحبلهم مستمسكون، وإننا على آثارهم
مقتدون وما لهذه الهجرة؟ التي كُت عليهم، واستند في طريقة نجاحه
وفلاحه إليهم، معتذراً بأن رأيهم خير من رأيه لنفسه، وأن ظنونهم وآراءهم
أوثق من ظنه وحده .

ولو فتشت عن مصدر مقصود هذه الكلمة لوجدتها صادرة عن الإخلاق
إلى أرض البطالة، متولدة بين الكسل وزوجه الملالة .

والمقصود : أن هذه الهجرة فرض على كل مسلم ، وهي مقتضى « شهادة
أن محمداً رسول الله ﷺ » ، كما أن الهجرة الأولى مقتضى « شهادة أن
لا إله إلا الله » .

وعن هاتين الهجرتين يسأل كل عبد يوم القيامة ، وفي البرزخ ، ويطلب بها
في الدنيا ودار البرزخ ودار القرار .

قال قتادة : « كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرين : ماذا كنتم تعبدون ؟
وماذا أجبتكم المرسلين ؟ » (١) .

(١) الأثر عن قتادة أورده ابن القيم أيضاً في إغاثة اللهيان [٩٦/١] . من قول قتادة أيضاً .
وأورده أيضاً في مدارج السالكين [٣٤١/١] من قول أبي العالية وهو عند ابن جرير
بنحوه ، كما في تفسير ابن كثير [٥٣٩/٢] من طريق الربيع عن أبي العالية في
قوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : ٩٢] قال : يسأل العباد كلهم
عن نخلتين يوم القيامة : عما كانوا يعبدون ؟ وعماذا أجابوا المرسلين ؟ .

قال ابن القيم في زاد المعاد [٣٤/١] : « فjawab الأولى : بتحقيق « لا إله إلا الله »
معرفة وإقراراً وعملاً ؛ وجواب الثانية بتحقيق « أن محمداً رسول الله » معرفة ،
وإقراراً وانقياداً وطاعة » اهـ .

وهاتان الكلمتان هما مضمون الشهادة^(١) .

وشيخنا الإمام الأمين « محمد متولى الشعراوى » رضى الله تعالى عنه وأرضاه وبعد أن عايشنا معه فى الجزء الأول من السيرة النبوية العطرة ارهاصات الميلاد والبعثة وبدء الدعوة وكذلك لحظات الإسراء والمعراج وكأننا نعاينها ، نواصل مع فضيلته رحلة العطاء فى الجزء الثانى من منظومة السيرة النبوية ونعيش لحظات الهجرة فقد أفاض رضى الله تعالى عنه فى هذا الجزء النافع إن شاء الله تعالى فى الهجرة النبوية الشريفة المباركة ؛ وكذلك فى الحضر على الهجرة إلى الله ورسوله بالتزام القرآن والسنة واتباع هدى السلف الصالح فى الاجتهاد والفهم ، لذا كانت كلماته تخرج من القلب لتدخل القلوب . وهذا الكتاب تم جمع مادته من كلام فضيلة الشيخ الإمام وأحاديثه ، وكثير منه تم تسجيله مباشرة مع سماحته، وقام مركز التراث لخدمة الكتاب والسنة بشرحه والتعليق عليه وتخريج أحاديثه وترتيب موضوعاته .

وقد تم عرض الكتاب فى صورته النهائية على سماحته يوم الجمعة السابع من ذى القعدة ١٤١٨ هـ الموافق التاسع من مارس ١٩٩٨ م وتفضل سماحته بكتابة كلمة موجزة صدرنا بها . طبعنا هذه .

نسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يبارك لنا فى عمره وأن ينفعنا بعلمه، ويجزيه عنا خير الجزاء، إنه سبحانه قريب سميع مجيب الدعوات، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

١٠ ذى القعدة ١٤١٨ هـ

٩ مارس ١٩٩٨ م

عبد الله حجاج

(١) زاد المهاجر إلى ربه [٥٥:٤١] .

ذُكِّرْنَا يَا هَجْرَةَ الْحَقِّ مَا قَالَ
 وَاَمَلْتُ النَّاسَ عِزَّةً وَطُمُوحاً
 إِنَّمَا أَنْتَ عَسْبَةٌ وَتَأْسُ
 أَيْقَظِي الشَّرْقَ مِنْ سَبَاتٍ عَمِيقٍ
 فِيهِ مِنْ مُحْكَمِ الْكِتَابِ مِلَادٌ
 عُلِّمِيهِ الْفِدَاءَ حِزْماً وَعِزْماً
 عُلِّمِيهِ أَنْ الْحَيَاةَ صِرَاعٌ
 عُلِّمِيهِ أَنْ الْقُوَى ظُلُومٌ
 فَقَوَى عَلَى الضُّلَالِ مَقِيمٌ
 أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ فِي أُمِّ الْأَرْضِ
 كَيْفَ بِاللَّهِ تَسْتَقِرُّ نَفُوسٌ
 أَنْقُولُ الْإِسْلَامَ ظُلْماً وَجَوْراً
 « إِنَّا عَائِدُونَ » تَصْرُخُ فِينَا
 دَوْلَةُ الْعِلْمِ وَالسِّيَاسَاتِ وَالْحَرْبِ
 كُلُّ دُنْيَا تُبْنَى عَلَى غَيْرِ دِينٍ

وَكَيْفَ اسْتَهْلُ خَطْوَ الشُّفَارِ
 وَأَرِينَا رَوَائِعَ الْأَثَارِ
 صَيِّرُوهَا ضَرْباً مِنَ الْأَنْخِبَارِ
 وَاحْمِلِيهِ إِلَى مَدَارِ السُّدَرِ
 فَاقْدَحِي يَا رُؤُوسُ فَالْزِنْدُ وَارِ
 فَجَنِّي النَحْلَ مِنْ أَذَى الْمَشْتَارِ
 مِنْ سَهَا فِيهِ ذَلٌّ فِي الْمَضَامِرِ
 كَمْ يَهَادِي كِبَارَهُمْ بِالصُّغَارِ
 وَقَطِّيعٌ مِنَ الضُّعَافِ يَجَارِي
 أَيْرِضِي الْإِسْلَامَ مَا هُوَ جَارٍ ؟
 وَالْأَشْقَاءَ بَيْنَنَا فِي اشْتِجَارِ
 وَفِلَسْطِينَ لَمْ تَعُدْ مِنْ دِيَارِ
 صَرْخَةٌ تَسْتَعِثُ مَعْنَى الشُّعَارِ
 .. وَدُنْيَا الْهَوَى وَالْإِسْتِعَارِ
 فَبِنَاءٍ عَلَى شَفِيرِ هَارِ (*)

(*) من قصيدة موكب النور للشيخ الإمام .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الهجرة النبوية .. دروس وعبر

أَحْمَدُكَ رَبِّي عَلَى مَا أَكْمَلْتَ لَنَا مِنْ دِينٍ ، وَأَتَمَمْتَ عَلَيْنَا مِنْ نِعْمَةٍ ، وَرَضِيتَ لَنَا مِنْ إِسْلَامٍ وَأَصْلَى وَأَسْلَمَ عَلَى خَيْرِ خَلْقِكَ مُحَمَّدَ رَحْمَتِكَ لِلْعَالَمِينَ .
وبعد :

فما أحسن أن نحيي مناسبات الإسلام الضخمة ، ولكن الأحسن من هذا ألا نحيي المناسبة فقط في فترة من نهار أو فترة من ليل ولكن الأحسن أن نحيا نحن هذه المناسبة .

نحياها في كل ما آتت من ثمار . نحياها أسوة ونحياها قدوة ، ونحياها عبرة لا تغيب .

ولكن المسلمين الآن اكتفوا للإسلام بأن يحيوا مناسباته ، وكأن الإسلام في حاجة إلى أن يعيش بهم ، والناس ليسوا في حاجة إلى أن يعيشوا بالإسلام !!
ما أغنى الإسلام في أن يحيا بنا ، ولكن ما أحوجنا نحن إلى أن نحيا بالإسلام ؟

نحن في العالم الإسلامي نحسن استقبال المناسبة ، ولكننا لا نحسن معايشة المناسبة .

ولكننا نقول : حسبنا الآن أن نعيش الإسلام كما قلت تحقيقاً إلى أن ييسر لنا الله أن نعيشه تطبيقاً .

وإذا كانت الهجرة حدثاً ضخماً من أحداث الإسلام ؛ فيجب أن نلاحظ أن تاريخها لم يبدأ حيث بدأت حدثاً ، ولكنها نشأت مع البعثة نفسها لأن

رسول الله ﷺ حينما ذهبت به زوجته خديجة رضى الله تعالى عنها إلى ورقة
فقصَّ عليه ما يراه من خبر الوحي .

قال له : لتقاتلن ولتخرجن .

قال : « أو مخرجى هم ؟ » .

قال : ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك
نصراً مظفراً .

فكان الرسول ﷺ قد استقبل خبر الهجرة فى الوقت الذى استقبل فيه
تصديق أنه مبعوث .

إذن .. فالهجرة نشأت مع البعثة . وكأن هذا القرن أراد به الحق سبحانه
وتعالى أن يعلمنا أن البعثة بدأت إطلاق دعوة فى مكة فى أذن سادات الجزيرة
ولكنها انطلقت من المدينة ، فكان ولا بد أن يلتقى الإطلاق بالانطلاق .
وإذا ما نظرنا إلى الحدث فى ذاته ؛ وجدنا أن كل حدث يحتاج إلى زمان
وإلى مكان، ولذلك نقول : كل حَدَثٍ له ظرف ، والظرف : إما مكانى وإما
زمانى، والظرف المكانى ظرف كما يقولون : ظرف قار ، أى ثابت لا يتغير .
ولكن الظرف الزمانى : ظرف متغير ، فيكون مستقبلاً، ثم يكون حالاً، ثم
يكون ماضياً .

حين يُراد التاريخ ، إنما يراد بالتاريخ ربط الأحداث بأزمانها .
ثم يأتى المكان بعد ذلك ظرفاً تابعاً للزمان . ولذلك كان التاريخ دائماً
بالأحداث التى تنشأ فى الزمن ، لا بالمكان الذى ينشأ فيه الحدث .
وقديماً عُرفَ التاريخ بالأحداث والمناسبات . فكانوا يؤرخون بِسَيَلِ العرم ،
وكانوا يؤرخون بعام الفيل .

ولكن حَدَث الهجرة . ذلك الحدث الضخم . أُرِّخَ به ، ولم يُؤرَّخ بعام
البعثة ؛ لأن الهجرة إنما كانت كما قلنا انطلاقاً للدعوة ؛ لأنها أصبحت من
دار إيمان لا من دار أمن فقط .

والتاريخ حين تُريد أن نبدأه لا بد أن يربط بفلك ثابت مستقر . فيجب أن
نعلم أننا حين نستقبل « المحرم » لا نستقبل اليوم الذى حدثت فيه الهجرة ؛
لأن الهجرة حدثت فى أواخر « صفر » وأوائل « ربيع » .

فإذا كان ولا بد أن نُؤرخ للحدث كان من الواجب أن نُؤرخ للاحتفاء
بحدث الهجرة كحدث إلى آخر « صفر » وأول « ربيع » . ولكن آخر « صفر »
وأول « ربيع » لا يناسب أن يكون بداية تاريخ ؛ لأنه غير مرتبط بأمر فلكى
ثابت . فكان ولا بد أن يربط التاريخ بأمر فلكى ثابت مُستقر .

والأمر الفلكى الثابت المستقر فى عُرف الإسلام ، وفى عرف ما شرعه
القرآن إنما هو التاريخ بالشيء الذى له علامة تميزه فلكياً وهو ظهور الهلال ؛
لأنك لا تستطيع أن تعرف الشهر بالشمس ، ولكن الشمس جاءت لتؤرخ
لك الليل من النهار ، ولكن الهلال جاء ليؤرخ لك الشهر من الشهر ، ولذلك
أنت لا تستطيع أن تحكم على الشهر بالشمس أبداً ، وإنما تحكم على اليوم
فقط بالشمس .

فحين تريد تاريخاً شهرياً لا تجد أمراً فلكياً له علامة فلكية لا يُجادل فيها
إلا أن يوجد هلال .

إذن .. فربط التاريخ بالهجرة ، والهجرة بالتاريخ القرآنى فى قوله تعالى :
﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ... ﴾ [التوبة : ٣٦] أولها المحرم ،
رُبط به لأن لها بداية ، وهى الهلال فى أول « المحرم » فيعلم للجميع أن ذلك
هو بداية الشهر .

فحين أرادوا أن يؤرخوا للهجرة . كحدث ضخم من أحداث الإسلام . لم يؤرخوا للحظة التي حدث فيها الحدث وإنما أرخوا بالعام الذي حدث فيه الحدث ليظل العام عامًا يبتدىء من المحرم وينتهى بذي الحجة . وتظل العلامة المميزة لابتداء الشهر وهو الهلال .

فنقول نحن : في العام الهجري، أي: في العام الذي حدثت الهجرة فيه، أي : في العام . فالعام الأول : بدأ أيضًا بالمحرم وبدأ بصفر وبعد ذلك جاء حدث الهجرة في آخر صفر وفي أول ربيع، فنحن حين نحتفي ، نحتفي بعام هجري حدثت فيه حادثة الهجرة . حدثت في أوله في آخره . هذا أمر لا يعنينا وإنما يؤرخ بالعام الذي حدثت فيه الهجرة. ليظل أمر التاريخ أمرًا مرتبطًا بشيء فلكى مميز لا يمكن أن يشاركه فيه غيره .

وإذا ما نظرنا إلى حدث الهجرة نجد أن الاسم لها الهجرة ، ولكن كل فعل تعرض لها كحدث « هاجر » ولم يقل : « هجر » وكان من المنطق أن نأخذ « الهجرة » و « هجر » من مادة واحدة صحيح هما من مادة واحدة . ولكن « هاجر » غير « هجر » .

فلماذا اختير الاسم من الثلاثي ثم جيء في الفعل بفاعل التي هي « هاجر » الرباعي ؟ وُسِّمُوا مُهَاجِرِينَ ولم يُسَمَّوا هَاجِرِينَ ؟ ما هي الحكمة ؟ لأن هناك في « هاجر » الشائع فيها في استعمال اللغة أنها تأتي من طرفين ، كما تقول مثلاً : قاتل .. قاتل زيدٌ عمرًا . قلنا : إن مادة « المفاعلة » لا بد فيها من طرفين متقابلين . يشاركان : لا يقال : « شارك زيد » ونسكت ، لا بد أن نقول : شارك زيد مَنْ ؟ لا نقول : قاتل زيد - نقول : قال زيدٌ مَنْ ، نقول : قاتل زيدٌ عمرًا وقاتل عمرو زيدًا أى : مفاعلة تأتي من الجهتين . وقلنا : إن المفاعلة لا بد أن يكون فيها طرفان ؛ كل منهما : فاعل ومفعول في نفس

الوقت . ولكن فى اللفظ يرجح جانب الفاعلية فى جانب ، وجانب المفعولية فى جانب فيقال: « شارك زيدٌ عمرًا » . التحليل : أى: وشارك عمرٌ زيدًا . فغلبنا الفاعلية فى الأول والمفعولية فى الثانى .

ففى « هاجر » الحدث فى ذاته كانت هناك مفاعلة .. ممن ؟ لأن الرسول ﷺ لم يتجنَّ على مكة فيهجر مكة ؛ لأن « هجر » سبب من جهته هو أى : لم يحب أن يعيش فيها .

فيقال : هجرها . هجرت كذا . ولكن حين يقال : « هاجر » ؛ فكأن من فى المكان كان لهم مدخلٌ فى المهاجرة ؛ لأنهم لو لم يؤذوه ويؤذوا أصحابه ويضطهدوا المؤمنين الضعفاء السابقين ويضطروهم إلى أن يذهبوا إلى أماكن شتى ليحموا أنفسهم من بطشهم ما هاجروا إلى المدينة .

إذن .. فالذى ألجأهم أن يهجروا المكان ، لا مجرد بغض للمكان أبدًا !! وإنما لأن من فى المكان اضطهرهم أن يهاجروا .

إذن .. فالمسألة مفاعلة ممن « هاجر » ومن اضطهرهم إلى أن يهاجروا . ولكن اسم الهجرة كحدث صار اسمًا ضخمًا فأخذ من الثلاثى ، ولكن الفعل ظل مأخوذًا من المفاعلة وهو من « هاجر » ليشير إلى المناسبة .

والشعراء التفتوا قديمًا إلى هذا المعنى ؛ فيقول المتنبي مثلاً :

إذا تَرَحَّلْتَ عن قوم وقد قَدَرُوا أن لا تفارقهم فالرَّاحِلون هم
أى : إذا ألجأك قوم أن ترحل وهم يقدرُون ألا ترحل فلا تكون أنت الراحِل،
وإنما هم الذين رحلوا .

فكأن رسول الله ﷺ لم يهجر « مكة » ؛ لأنها كانت أحبَّ البلاد إليه ، ولكنه هاجر، ومعنى « هاجر » أن من فى مكة ممن لم يقبلوا دعوة الإسلام اضطروه بالإيذاء له ولأصحابه وباضطهادهم إلى أن يهاجروا .

إذن .. فالمفاعلة قائمة على أصولها ، والذين فعلوا معه ذلك يعتبرون هم الذين هاجروا ؛ لأنهم كما قال المتنبي :

إذا تَرَحَّلْتَ عن قوم وقد قَدَّرُوا أن لا تفارقهم فالرَّاحلون هم
ولذلك كان جزاؤه ﷺ كما جاء في السير : « اللهم إنك أخرجتني من
أحب البلاد إلي ، فأشكني أحب البلاد إليك » .

إذن : فيجب أن نفهم من هنا أن المدينة أحب بلاد الله إلى الله ، وأن مكة
أحب البلاد إلى رسول الله ﷺ

انظروا إلى الفارق بين محبوب الله ، وبين محبوب رسول الله ﷺ ،
الرسول ﷺ يعطينا بحدث الهجرة درسًا يجب أن نتأسى به في كل تصرفات
أحداثنا الضخمة التي نحاول بها أن نؤثر في مجرى الحركة للحياة ؛ لأن
الذي يجرى ليغير مجرى حركة حياة ألفها الناس وعاشوها لا بد أن يتعرض
إلى كثير من المتاعب لأنه سيخرج الناس عما ألفوه ، وينزعهم مما اعتادوه ،
وذلك أمر شاق على النفوس وخاصة إذا كان النقل أمرًا غير مساو ، بل النقل
من أمر تنطلق فيه حرية الحركة للأفراد يفعلون ما يشاءون ويتركون ما يشاءون
وينتقلون الآن إلى دائرة ، هذه الدائرة تتحكم في أمورهم . فتقول لهم : افعل كذا
ولا تفعل كذا .

إذن .. فالذي يغير مجرى حياة إلى مناقض لها لا بد أن يتعب ، لا بد أن
ينصب ، ولكن التعب والنصب لا يمنعانه من أن يأخذ بالأسباب في مظانها
وفي أماكنها .

ورسول الله ﷺ آمن أولاً بأنه رسول الله ، لأنه يشهد هو كما تشهد له
نحن - فيقول : أشهد أن محمدًا ﷺ رسول الله . فلا بد كما شهد الله
لنفسه : أنه لا إله إلا هو ؛ كذلك يشهد محمدًا أنه رسول الله . وإلا فلو لم

يقتنع تمامًا بأنه رسول الله لا هتز من أول حدث ، ولكن الذى يجعله يقف أمام الأحداث أنه يعلم أنه يستند إلى ركنٍ رشيد شديد هو الله ، وأن كل ما يحدث له إنما هو أمر ابتلاء حتى يتحمل الدعوة الجديدة قوم لهم جلد .. قوم لهم صبر .. قوم لهم دربة على تلقى المصاعب وتحدى كل العقبات .

كان من الممكن أن ينصر الله الإسلام فى مكة، ولكن الله سبحانه لم يشأ ألا يحْمِلَ الإسلام قومًا رأوا فى الإسلام عِوضًا عن أهلهم ، وعوضًا عن أولادهم ، وعوضًا عن أموالهم ، ما داموا وجدوا هذا فهم يتحملون تعب الدعوة ، والله قد أعد الجزيرة من قديم لتحمل رسالة الإسلام ، وكان من إعدادة لها أنها أمة أمية .

فلربما قائل يقول : كيف تعد أمة أمية ؟

نعم ؛ لأن الله لا يريد انطلاقة تنشأ حضارية من أمة متحضرة ؛ لأنه ربما قيل : إن الدعوة نضجت لحضارة كان ولا بد أن توجد .

فلم يشأ الله أن يكون الإسلام فى فارس ولم يشأ الله أن يكون الإسلام فى الروم ؛ لأنها دول ذات حضارات ، ودول ذات ارتقاءات فرما قال : قفزة حضارية يريد الله أن يجيء بنى أمى فى أمة أمية ؛ ليعلم الناس جميعًا أن ما عندهم ليس للبشر دخل فيه ، وأنه من عند الله وحده .

إذن .. فيجب أن نعلم أن الذين يحاولون أن يتكلموا عن أمية محمد ﷺ ويقولون : يجب أن تمحى هذه الكلمة من الأمة الأمية ومن النبى الأمى ؛ لأن ذلك مُبْتَدَأ ؟

نقول لهم : افطنوا يا قوم .. إن الله يريد إن يقول لكم أن محمدًا وقوم محمد لم يأخذوا من حضارة الدنيا شيئًا ليسودوا به الدنيا وإنما جاء كل

منهجه من السماء فلا دخل لأحد فيه . لا بالنسبة للرسول الذي أنزل عليه ولا بالنسبة للقوم الذين أنزل عليهم .

الرسول ﷺ صار في أسباب الدعوة ، وعرض نفسه على القبائل . والرسول ﷺ قبل الهجرة كان محميا في الخارج بعمه أبي طالب ، فكان الكفار المعاندون المعارضون للدعوة يحترمون بقاء أبي طالب معهم على ديانتهم ولا يشتدون في إيذائه ﷺ .

وكان عدم إيمان أبي طالب كان كترضية لهؤلاء في ألا يؤذوا محمداً إيذاءً كبيراً ، لأنهم يحترمون بقاء عمه أبي طالب في حضانة دينهم فاحتراماً لهذا ربما كان ذلك .

ولكن لو آمن أبو طالب ، أو أعلن إيمانه ؛ لأصبحت المهاجرة أمراً عادياً وربما كان لهم فعل كبير في الإسلام !!

إذن .. فيجب أن نفهم أن الله سبحانه وتعالى قد ينصر الإيمان بالكفر ، فنصر إيمان محمد وحمايته بكفر أبي طالب .

يجب أن نفطن إلى هذا .. لماذا ؟

لأن الحق سبحانه وتعالى حينما يريد أن يثبت أمراً يأتي بالنصير للأمر من خصوم ذلك الأمر . وذلك هو معنى قوله : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ﴾ . أبو طالب كان حامياً للنبي ﷺ على طريقة الحماية السببية وإن كان محمد عليه الصلاة والسلام يَعْلَمُ أن الذي أرسله لن يخله .

لا يمكن أن يخل . ولكن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يطمئنه اطمئنان السببية في أن يجد شيئاً مادياً هو عمه ، وله مكانته وله مهابته في القبائل .

وإذا نظرنا لا نجد أيضاً أن المتاعب فقط لصاحب الدعوة تكون في خارج أمره ولكنها تكون له أيضاً في داخله . فقد حدثنا القرآن أن امرأة نبي وامرأة

رسول كانت تخونهما في أمر الدعوة . ولكن كانت خديجة لرسول الله ﷺ
سكنًا بمعنى الكلمة فإن أُهيج في الخارج سَكَنَتْهُ في الداخل ، وإن حصلت له
مشقات عنف قابلته بحنان عطف . كل ذلك كان يدلنا على أن رسول الله
كان مظمنًا إلى الخارج بأبي طالب وإلى الداخل بخديجة .

وبعد ذلك يفاجأ رسول الله ﷺ بأن أبا طالب يموت، وخديجة تموت في
عام واحد .

إذن .. قد انهدم السكنان فلم يجد رسول الله ﷺ ، بُدًا أن يذهب ليأتي
بالنصر ، يعرض نفسه على الطائف، على قبيلة ثقيف ربما آمنت . ربما حمته .
ولكن استقبلت . كما تعرفون من التاريخ . وقد تكرر ذلك طويلاً لدرجة أنه
أصبح من البدييات من الإسلام .

ولكن عز عليه النصير في الطائف ، وقد ذهب هو إليه فيعلمنا الله أول درس
بالهجرة أن أخذك بالأسباب لا بد أن يكون سابقًا على اتكالك على المُسَبِّب .
إن الأسباب مخلوقة لله ، ويد الله ممدودة بالأسباب فلا تُرد يد الله بأسبابه
ثم تقول : يارب افعل لى ؛ لأنه يقول لك : أنا أعطيت لك بالأسباب في
الأرض فلم لا تتناول هذه الأسباب ، أنا أجيب دعوة المضطر .

معنى المضطر : هو الذي استنفذ الأسباب . فرسول الله ﷺ استنفذ كل
أسباب الاستنصار لدينه . ولكنه لم يجد، فيشاء الحق سبحانه وتعالى أن يقول
له : إنك قد ذهبت للنصير وتعبت في الوصول إليه فلم تجده ، فأخذت
الأسباب فليكن نصر المُسَبِّب بأن يأتيك أنت النصير وأنت في مكانك وفعلاً
جاء الأنصار وذهبوا إلى رسول الله ﷺ في العقبة وبايعوه قلة ثم أكثر من
القلة ثم كثير فكانوا الخميرة الإيمانية في المدينة التي تبشر بمحمد ﷺ .

إذن .. فرسول الله ، ذهب إلى الأسباب فلم تواته الأشياء ، وجاءته الأسباب إلى مكانه: معنى هذا أن ذلك الدرس يجب أن يتعلمه المسلمون جميعًا .

أن يصنعوا الأسباب ولكن لا يفتنوا بهذه الأسباب ؛ لأن وراء الأسباب مسببًا إن خذلته الأسباب فالمسبب لا يمكن أن يخذلهم أبدًا .

هنا أيضًا يجب أن نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى يعطينا في الهجرة لفتات، هذه اللفتات - هي سببية الحدث . وسببية الحدث ليس معناها أن تقبل على السبب بدون دراسة وبدون تخطيط لا .. إن رسول الله حينما أودى أتباعه، ولم يجدوا لهم نصيرًا ، وخافوا الفتنة في دينهم نظر رسول الله كنانة العالم أمانه وبسط خريطة الدنيا وقال : إلى أى مكان أمرهم أن يذهبوا ؟ إن ذهبوا إلى أية بقعة من الجزيرة، فالجزيرة خاضعة لسادات قريش ؛ لأن قريشًا هي سادة العرب، وكل العرب تهابهم، وتحترم قوافلهم وتجارتهم ؛ لمكانهم من البيت إذن .. فأى مكان يذهبوا إليه في الجزيرة سيجدون من يتطوع ، أو من يتقدم ليجامل قريشًا بأن يمكن لهم من هؤلاء المهاجرين .

ثم استعرض خارج الجزيرة فوجد « فارس » ووجد « الروم » وهؤلاء هم أهل كتاب ، ولكن استعرض معهم بلدًا . لا يكفي أن يكون البلد خاضعًا لكتاب في الروم ، ولا يكفي أن يكونوا مؤمنين برسول بل يذهبوا إلى السلطة الزمنية التى تُعاش الروم ، السلطة الزمنية قد تكون تابعة لكتاب ولكن ظالمة . لا تنفذ تعاليم هذا الكتاب .

« فارس » مبعدة ؛ لأنها وثنية . إذن .. بقيت الروم . فاستعرض هذه البلاد فرأى أعدل حكام هذه البلاد بدليل أنه قال : « اذهبوا إلى الحبشة فإن هناك ملكًا لا يُظلم عنده أحد » .

كان ذلك إيذاناً من رسول الله ﷺ حين قال : « لا يُظلم عنده أحد » إلى أن قریشاً لن تترك أصحابه في الحبشة ، وستذهب بالألطف والهدايا وترشو الحاكمين والمسلطين والممكنين فيها ليسلموا لهم هؤلاء الذين فروا بدينهم . لكن رسول الله ﷺ ، قال : « إن هناك ملكاً لا يظلم عنده أحد » . هذا هو بسط الخريطة .

إذن .. فبسط الخريطة ليعرف المكان المناسب ليس مجرد فرار ، ولكنه فرار إلى أمن ، ولذلك سميت الهجرة قبل هذه الهجرة بـ « هجرة إلى دار أمن » أما الهجرة التي أرخت بها فهي « الهجرة إلى دار إيمان » .

والفرق بين الهجرتين : أن هذه الهجرة إلى أمن ، وهذه هجرة إلى دار إيمان . ننظر نظرة أخرى نجد أن رسول الله ﷺ علمنا حين نخطط للأشياء أن نخطط لكل جهاتها ولكل مجالاتها .

فقد خطط لألة السفر « الرواحل » .

وخطط لزاد السفر .

وخطط من يهدي إلى الطريق .

كل شيء صنَّع بحساب دقيق .

لعل قائلًا يقول : إن رسول الله ﷺ كان بأي سبب سينتصر ؟ لأن الله أرسله ولن يخذله ! ولكنه يعلمنا نحن الذين لا ينزل علينا وحى حين نقبل على أمر من الأمور يجب أن نخطط له . وانظروا إلى مكر الله بالكافرين ، بالله استعرضوا الأمر وقولوا لي : بأي عقلية وبأي عقيدة جاء الرجل الذي اسمه : ابن أريقط ليهدى محمداً إلى الطريق إلى المدينة وهو كافر على دين قومه ، أما أغراه الجعل الذي جعلته قریش لمن يدل على محمد ؟ مع أنه كافر ، لو كان مؤمناً لقلنا : إن حرارته لحفظ نبي الدعوة هي التي جعلته يدلهم ،

ولكنه كافر ، ومع ذلك استخدمه رسول الله ﷺ ليكون هاديًا إلى الطريق ،
وكان من الممكن مادام هاديًا إلى الطريق أن يضلّهم في الشعب ليذهبوا إلى
حيث خرجوا ، ولكن رسول الله ﷺ بإشراقات النبوة وإلهامات الوحي أمن
ذلك الرجل .

لا بد أنه قرأ شيئًا في إشاعات عينيه .

لا بد أنه قرأ شيئًا في مواجيدته ، ووجد : أن هذا لا يمكن أن يبيعنا إلى
قريش مع أنه كافر !!

فإذا ما علمت قريش أن الذي هدى محمدًا إلى الطريق كافر ؛ كان ولا بد
أن يفهموا أن هذا الدين لن يسلم إليهم أبدًا .

أيضًا : نجد أن رسول الله ﷺ هاجر خفية ، ولكنها خفية أشق على نفوس
الكافرين من العلن ؛ لأنه هاجر خفية وهم متربصون ، وهم محيطون به ،
فكيف يخرج من بينهم ؟ تلك نكاية أخرى ، لو لم يكونوا محيطين به ،
لقالوا : لو أحطنا به لما أفلت منا ؟!

لا .. أحبطوا به وسيُفُلت !!

وبعد ذلك ننظر نظرة أخرى : وهو أن رسول الله ﷺ ليس أقل شجاعة من
عمر ؛ فإن عمرًا هاجر جهرًا ، متحدثًا وقال : « من أراد أن يشكّل أمه ،
أو يرمل زوجته أو يتم ولده ، فليلقني وراء هذا الوادي » .

أكان محمدٌ أقل شجاعة من عمر ؟ !

لا .. إن محمدًا ﷺ كان دائمًا أسوة للضعيف ، أما القوى فلا يحتاج
لأسوة !

ربما عز على واحد أن يقول أنا أهاجر خفية ! لا .. محمد هاجر خفية .
إذن .. هاجر بأي وسيلة استطعت .

فيخاف أبو بكر أن يكون أمامهم رَصْدٌ يَتَرَصَّدُ لرسول الله ﷺ . فيمشى أمامه ليتأكد أن ليس أمامه رصد .

وهو لا يمشى إلا في المنحنيات غير المتضحة . فيمشى خلفه الرسول ﷺ فيخاف أبو بكر عليه ؛ أن يأتيه من أمامه من قبيل يترصد له .

ومرة يخاف عليه ممن يطلبه من ورائه ؛ فيمشى خلفه إذا ذكر الرصد ؛ صار أمام رسول ﷺ . وإذا الطلب ؛ صار خلف رسول الله ﷺ .

وإذا وجد مثلاً : حينما يقول يأتي يميناً وشمالاً ، لا بد أن يجد هنا مُنْعَطِفاً ، أو مكاناً ككهف يوارى . أو أكمة إلخ .

إذن .. أبو بكر ضحى بذاتيته . هب أن هناك رصداً . من الذي يُؤخذ أول شيء من الرصد أبو بكر .

الطلب : أبو بكر .

اليمين : أبو بكر .

الشمال : أبو بكر .

إذن .. قوله : « لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا » الخوف هنا ليس على ذاتيته ؛ لأنه ضحى بذاتيته في المواقف كلها . وإنما الخوف هنا على رسول الله ﷺ .

هذا درس يعطينا أنه إذا ما كان في الناس رائد فِكْرٍ ، أو رائد إصلاح ، أو رائد جهاد يكون من تمام إيمان الناس أن يحافظوا على هذا الرائد . لأنه ليس كل أحد يصلح أن يكون رائداً . هناك أناس يعوضون إن ماتوا ، وأناس لا يعوضون .

إذن .. يجب أن يكون من يعوض فداء لمن لا يعوض . حين يكون هناك من يعوض فداء لمن لا يعوض ، يكون هنا إيمان بالدعوة من جميع أطرافها ؛ من

مركزها نبعا ، ومن محيطها ، ومن أقطارها ، ومن كل شيء ، الكل يضحى من أجل هذا .

لكن هذا يجب أن نفهم أنه يعيش للدعوة ، لا بد أن نعرف من تصرفاته أنه لا يعيش لنفسه . ولا للمحيطين به . حينئذ يستحق أن يضحى كل فرد من الأفراد المحيطين به ليقى عنوانا للدعوة عنوانا للرأى . عنوانا للفكرة . كذلك كان أبو بكر رضى الله تعالى عنه .

الرسول ﷺ يخاطب من ناحية يقين المعاينة فيقول : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما ١٢ » انظر إلى يقين المعاينة . فكأنه عاين : الله ثالثهما .

وما دام هو يتحدث من ناحية يقين المعاينة والله ثالثهما ، وهم فى معية الله . والمعية من الضعيف مع القوى تضى على الضعيف قوة من القوى .

هب أن رجلاً ضعيفاً صار مع فارس وبعد ذلك داهمته قوة ، الضعيف لا يواجه إلا بالفارس فحين يكون الإنسان فى معية الله يواجه كل الأحداث بالله . ولكنه حين يفصل عن الله ؛ يواجه كل الأحداث بنفسه : « ما بالك باثنين الله ثالثهما » .

وما دام الله ثالثهما ؛ فإنه يرد على أبى بكر بأنه لو وضع أحدهم عينيه تحت أقدامه لا يرانا ؛ لأنهم فى معية من لا تدركه الأبصار .

إذن .. قانون القوى هو المسيطر .

وننظر إلى حدث « أم معبد » فى الهجرة :

أم معبد تستقبل ركب الهجرة ، ولا تجد عندها ما تقر به . ليس عندها شيء . والكريم حين يؤذى بصدمة الإعسار تكون شديدة عليه . حينئذ يجود بما عنده ولم يكن عندها إلا شاة ضرعها ليس فيه شيء . فقدمتها فمسح رسول الله ﷺ على ضرعها فدر لبنًا .

ليس هناك اضطراب أكثر من هذا !!
ليس عندهم وأيضاً هي ليس عندها، فلا الطارق عنده، ولا المطروق عنده.
إذن .. الأسباب غير موجودة .
فالخلق سبحانه وتعالى يجرى خرق النواميس فيها . فيدر ضرعها ، فتشرب
هي ويشربون هم .

وبعد ذلك : نأتى إلى ملحظية الاستقبال : وملحظية الاستقبال يجب أن
نفهم فيها أنها احتشاد بمكلف ، واحتفال بمن يقيد حركة . لو كنا سنحتفل
برجل يطلق حركتنا فى الوجود ، فإن الأمر سيكون سهلاً .
ولكن هذا الرسول جاء بتشريع يقول : افعل كذا ولا تفعل كذا . جاء
ليقيد حركتهم .

فبعد أن كنتم أحراراً فيما تأتون ، وفيما تدعون . لا يحكمكم التزام بمنهج
ولا أمر من مشرع . أنتم ستصبحون مقيدين ملتزمين !!
فكيف يفرح الإنسان بالمقيد والملزم ؟

هذا شيء عجيب !!

أنا أفهم : أننا نفرح برجل يعطينا راحة .. بحبوحة .. أما هذا فجاء بجماعته
« المهاجرين » وليس لهم شيء ، وكان ولا بد وأن يستقبلهم الأنصار بأرزاق
لأنهم لا أرزاق لهم ؛ وبأماكن لأنهم تركوا بيوتهم وأهليهم ، فكانوا لا بد أن
يكونوا أهلاً لهم بدل أهلهم ومالاً لهم بدل أموالهم وسكناً لهم بدل سكنهم ،
ويقيدهم منهج جديد .

كيف يفرحون بهذا ؟ ! مما يدل على أن صفقة الإيمان حين تعقد يجب أن
يلحظ فيها لا التقييد الذى يقيد الحركة ، ولكن الجزاء على تقييد هذه الحركة .
ولا شك أن الجزاء على تقييد الحركة ، والجزاء على التضحيات التى تنتظر

الأنصار ليقدموها للمهاجرين قارنوها بما أعد لهم ، وأيقنوا بأنه معد ، قارنوها بهذا فوجدوها أمراً ضعيفاً يستحق أن يوهب كما تهب أنت الثمن لمن باع لك السلعة طمعاً في أن السلعة ستكون أكثر من الثمن .

ولذلك نجد لوئاً من التأخى يحدثه رسول الله ﷺ ؛ ليكون أسوة تسير في دنيا الإيمان كلها، وتنظم جماعات المسلمين .

النعم التي ينعم الله بها على عباده كثيرة .
ومن الممكن أن تتعدى نعمتك إليّ في أى مظهر من مظاهر النعم : مالا ، مركباً ، داراً ، زرعاً ، ثمرًا . كل نعمة ممكن إلا نعمة الله بالمرأة على الرجل ؛ فتلك نعمة لا يحب أحد أن يشارك فيها أبداً .

هذه قمة الأشياء التي يحتفظ بها ، ولا تسمح بها النفس .
تجدها عند الأنصار . فالمهاجرون خرجوا من ديارهم ومن أموالهم ، ومن أزواجهم يأتى الرجل من الأنصار المتزوج من امرأتين ، فيقول للمهاجر : راهما ، أى : انظرهما التي تعجبك أطلقها لكى تتزوجها أنت !
إيثار من نوع جديد . أرونى أية سماحة هذه !!

الشيء الذى تضمن به بنية الغيرة فى الإنسان ، كل نعمة تحب أن تتعدى إلى سواك إلا أن تتمتع بامرأة ثم يراها أحد ، أو يتمتع بها أحد .
لكن هذه أيضاً أظهرت حميتهم لإيمانهم الجديد ، هذه الحمية التي تأتى فى الجنس بالنسبة للمرأة فيضحى الواحد منهم بامرأة من امرأته حتى يهبها إلى المهاجر .

ولما يأتى رسول الله ﷺ فيجد أن الحق سبحانه وتعالى قد هيا له الزمان ، وهياً له المكان المناسب لانتشار الدعوة ، فيبدأ أولاً بمهبط الإشعاع وهو المسجد . لأن فيه : مكان دوام إعلان الولاء لله الذى آمن به .

قلنا : إنه يتكرر حتى يتكرر إعلان الولاء ؛ لأن مشاغل الحياة قد تأتي فتسمع المؤذن للفجر يقول : الله أكبر ، وتسمع المؤذن في الظهر يقول : الله أكبر ، وفي العصر يقول الله أكبر ، وفي المغرب يقول : الله أكبر ، وفي العشاء يقول : الله أكبر . ثم تمام لا يشغلك شيء وأنت نائم .

ولذلك إذا ما لاحظت قوله سبحانه وتعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْكَوَرٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ ﴾ [النور : ٣٥] .
ماذا قال بعدها ؟

قال : ﴿ فِي يُوتٍ أذنَ اللَّهُ لَن ترفعَ ويذكرُ فيها أسمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ [النور : ٢٦] .

وفي قراءة أخرى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ ﴾ .
لو نظرت إلى مدلول العبارة لوجدت كلمة ﴿ فِي يُوتٍ ﴾ جار ومجرور أين متعلقه ؟ لا بد له من متعلق . وهذه جاءت بعد ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ ... ﴾ إلخ الآية وبعدها قال : ﴿ فِي يُوتٍ ﴾ .

فكأن تجليات نور الحق تنشأ في المكان الذي تستحضر فيه أنت نفسك بين يدي الحق فتهب عليك تجليات الحق سبحانه وتعالى خمس مرات في اليوم ﴿ فِي يُوتٍ أذنَ اللَّهُ لَن ترفعَ ويذكرُ فيها أسمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ ﴾ [النور : ٢٦] لأنها اللحظة التي يناجون فيها ربهم . اللحظة التي فيها خلوتهم مع ربهم .

إذن .. فالرسول ﷺ أول ما صنع : هياً المكان الذي يجب أن يكون فيه دوام إعلان الولاء لله الذي آمن به الجميع .

وما دام دوام إعلان الولاء لله الذى آمن به الجميع ، فإن الجميع ارتبطوا -
 باختلاف أهوائهم واختلاف نزعاتهم واختلاف ميولهم . بشيء واحد .
 والمربوط به ليس مماثلاً .

قلنا سابقاً : إن الذى يتعب الناس مع بعضهم خوف أحدهم أن يتبع واحداً
 فى رأيه ، أو أن واحداً يستذل واحداً بمنهجه . تقول له : لا .. حين تكون
 أنت وهو خاضعين لمنهج إله واحد فالذلة منك ومنه معاً سواء ، لمن ؟ لغير مماثل .
 وما دام الذلة لغير مماثل وأقوى ، إذن .. كلنا نصير عن حركة واحدة .
 وإذا ما نظرنا إلى اختلال هذه فى الأمم التى نعيشها الآن وجدنا أن أصل
 البلاء فى الأمة العربية والإسلامية أن كل واحد له هوى ، وكل واحد له رأى .
 إذن .. المسألة للقوى ، والويل للغافل ، والويل للضعيف ، والويل للذى
 ليس له نصير ، ولكننا لو كانت أهواؤنا جميعاً صادرة عن هوى واحد كما
 قال الرسول ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » حين
 يكون هوى الجميع تبعاً لما جاء به النبى ﷺ فلا تضارب فى الحركة .
 ولا تضارب فى الهوى ، ولا تنازع ، ولا استدلال من أحد لأحد ، ولا اعتزاز
 لأحد على أحد . وسيظل العالم فى هذا الشقاء ، وفى هذا التمزق ، وفى هذا
 الانهيار حتى الخلقى ؛ مادام كل واحد له صوت واحد من دماغه .
 نقول لهم ارجعوا إلى صوت واحد وهو : صيحة السماء فى أذن الأرض .
 فإن رجعت إلى صيحة السماء فى أذن الأرض فستفيقوا جميعاً ، وستجدوا
 عزكم جميعاً . وستجدوا أنكم جميعاً تحكمون عن الله ، وحين تحكمون عن
 الله يستنكف الواحد منا أن يظلم أحداً . يستنكف الواحد منا أن يستذل
 أحداً . يستنكف الواحد منا أن يضمن بقوته على ضعيف .
 ولكن ما دمتم هكذا فليكن الأمر على ما أنتم عليه الآن .

الاستطراق الذى صنعه رسول الله ، قد يقال فى المآخاة ؟ نقول : لا . إن أول استطراق : الاستطراق العقدى فى وحدة التلقى عن إله واحد والاجتماع والوقوف بين يدى الله فى مكان واحد ونسمع كلنا مبدأ واحداً لا نختلف فيه أبداً وهو : الله أكبر ، ونشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . ثم يأتى بعد ذلك كل استطراق اقتصادى أو اجتماعى أو عهدى حلفى - كما صنع مع اليهود عاهدتهم أولاً ؛ لأنهم أهل كتاب ، وكان المفروض فيهم كما كانوا يستفتحون على الذين كفروا ، كان المفروض فيهم أن يكونوا أول مؤمن به ، ولكنهم على العكس عاونوا الكافرين على رسول الله ﷺ ، وما علموا من غبائهم أنهم هم الذين حموا الإسلام فى المدينة . انظروا كيف مكر الله بهم ؟

كانوا قبل أن يجيء الإسلام يستفتحون على الذين كفروا . كانوا يقولون : يأتى نبي منكم تتبعه نحن ؛ لأننا أتباع نبي وحين تتبعه نقتلكم أيها الوثنيون قتل عاد وادم !! فكانوا يهددون الأوس والخزرج بالنبي المنتظر ، الذى عندهم علم به ، وجاء فى كتبهم ، ﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ . فكانوا يتوعدون الأوس والخزرج بأنه إذا ما ظهر ذلك النبي فستتبعه ، وحين تتبعه نكون قوة به ، وحين نكون قوة به نقتلكم قتل عاد وادم .

فالأوس والخزرج سمعوا منهم هذا ، فحين علموا منهم أن نبياً قد ظهر بمكة قالوا : هذا هو النبي الذى توعدتنا به بهود ، هيا بنا لنسبق إليه قبل أن يسبقونا إليه . فكأن الله كما جعل الكافر . فى مبدأ الانطلاق للهجرة . الهادى لركب محمد ﷺ وصاحبه . وهو الذى جاء بأنصار الإيمان إلى مكة يهود .

إذن .. فالكفار واليهود تعاونوا على نصر الإسلام ﴿ وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] حينما استقر رسول الله ﷺ في المدينة ، ووجد في أنصار ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ .
ويقول الله : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ ﴾ [الحشر : ٩] كل هذا أظهر حفيظة قريش .

ولكن قريشاً رأت أنها بصدد قوة ، هذه القوة أصبحت تهددهم ، وتهدد مركز المهابة في نفوسهم .

ومركز المهابة لقريش : أن تجارتهم لا يتعرض لها . لا في الجنوب ولا في الشمال ، ولماذا لا يتعرض لتجارتها ؟

لأن الحج إلى بيت الله كان موجوداً ، وكل قبيلة مهما نأت كانت منها من يحج إلى بيت الله كل عام .

إذن .. فأى قبيلة يمرون بها شمالاً إلى الشام ، وجنوباً إلى اليمن سيمرون بقبائل ؛ وهذه القبائل يضطرها أمرها أن تذهب إلى الحج . فكل قبيلة من هذه القبائل ستكون بين يدي قريش بمكة ، فيخافون أن يتعرضوا لتجارتهم بسوء ؛ لأن الانتقام منهم مؤكد حين يذهبون إلى بلادهم .

فكانت المهابة لقريش من هذه الناحية . ولذلك كانت أى قبيلة تخاف أن تجير عليهم ومعني : تجير عليهم : يعنى يقول : أنا مجير هذا من قريش . لا يستطيع أحد أن يقول هذه الكلمة أبداً .

فإذا كانت قريش بهذه المنزلة ، ووجد في الطريق للشام قوة إسلامية أصبحت تهددها ، وحين تهددها أصبحت قريش تفقد مهابتها ؛ لأن الذى جاء لها بالصيت : رحلة الشتاء ورحلة الصيف ؛ فحين توجد قوة في المدينة تستطيع أن تقف أمامها ، وهذا ما حدث في أيام بدر في العير والنفير !! .

إذن .. فقریش أصبحت تخاف هذه المهابة على نفسها خوفًا اقتصاديًا ،
وخوف مهابة ، أن تسقط هذه المهابة ، ولذلك كان ولا بد أن تقع معاهدة
بين قریش الكافرة وبين رسول الله ﷺ وهى معاهدة الحديبية .
إذن .. أصبح رسول الله قوة . وما دام قوة : تُعَاهِد وتعاهد . يعنى : تعطى
شيئًا وتأخذه .

إذن : فقوته قد اعترف بها .
حين أصبح قوة يعترف بها . لمكان موقع المدينة بالمهاجرين وبالأنصار من
الإسلام ، ومن قبائل قریش . استطاع محمد ﷺ أن يعاهد .
و حين عاهد أمن الشر من جانب ، فتفرغ لجوانب أخرى .
إذن .. فالهجرة إلى المدينة كانت انطلاقًا بالدعوة ، ولذلك تجد كل
الأحداث الضخمة نشأت بعد الهجرة .

الهجرة فى ذاتها حينما تكون حدثًا إسلاميًا ، ويجب أن نعلم أن رسول الله
ﷺ وعمره الإيمانى من ساعة أوحى إليه إلى أن لقى الرفيق الأعلى كل جزئية
من جزئيات حياته ، حركة . أى فعل . أو قول ، وحركة غيره أمامه ، وقول
غيره أمامه ويقره دستور لم يترك صغيرة ولا كبيرة من أقضية الإسلام التى
تنشأ إلى أن تقوم الساعة .

فحين نريد أن نأخذ العبر من حياته ﷺ ، يجب أن نأخذ العبر لا على أنها
قصة تاريخية نقتل بها الوقت ، ولا أن نأخذها ترفا عقليًا ، ولكن نأخذها على
أنها تشكل نمطًا سلوكيًا .

ومعنى : تشكل نمطًا سلوكيًا : أن كل من يعى قضية من قضايا الإيمان
وجزئية من جزئيات الإسلام مسئول أمام الله عن بلاغها نظريًا ، وعن
توضيحها تطبيقيًا . وعن إمكانها أن تحدث سلوكيًا ؛ لأن الذى يظهر الآن أن

مبادئ الإسلام شيء ما أجمله !! ولكن تطبيق المسلمين لما يعلمون من الإسلام شيء يُزهد فيه .

فهم بتصرفاتهم يصرفون الناس أن ينظروا في الإسلام . ولذلك لا أزال أذكر كلمة المستشرق المفكر في القمة - الذي أسلم - قال : « الحمد لله الذي هداني للإسلام قبل أن أعرف المسلمين » . لأنه ربما لو كان عرف المسلمين بسلوكهم المخالف لم يسلم .

لأن السلوك يظن البعض أنه يمثل الإسلام هكذا فهموا !!
نقول : لا .. تلك نظرية يجب أن تبتعد في مجال المقارنات المبدئية، لماذا؟
لأن الإسلام حين يشرع شيئاً ليس معناه أن كل مؤمن بالإسلام سينفذه . قد يخالف ، وما دام قد يخالف يكون قد ارتكب جريمة في الإسلام ومادام قد ارتكب جريمة فلا بد لها من عقوبة .

فالأفة ألا تجد في مبدأ الإسلام عقوبة على شيء تراه أنه جريمة ، أما أن توجد جريمة وبعد ذلك تقول : المسلمون يفعلون !!

نقول : يفعلون ولا يجرمون ، أم يفعلون ويجرمون ويعاقبون ؟ !

إذن .. الأفة الآن أنهم يفعلون ولا يجرمون !!

وقد يجرمون ولا يعاقبون .. لماذا ؟

لأن الإسلام معطل الآن ، ليس له وظيفة ، ليس له شغل ، موضوع في المتحف أو في رؤوس البعض . والله يريد الإسلام مبدأً نظرياً ينقل ويحقق ، ومبدأً تطبيقياً يطبق ، فإذا ما قصرنا في الأول فقد قصرنا في حمل العلم الذي قال فيه الرسول ﷺ : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » .

وإذا ما علمنا وقصرنا فى التطبيق ابتداءً غير المسلمين لا ينظرون إلى إيماننا
ولكن ينظرون إلى سلوكنا .

فحين يرون سلوكنا غير إيماني يزهدون فى الإسلام .
إذن .. فنحن الذين نزهد فى الإسلام وكان الأولى أن نكون الداعين إلى
الإسلام (١) .

(١) شريط كاسيت بعنوان : « الهجرة النبوية .. دروس وعبر » لفضيلة الشيخ الإمام
أهدى إلينا من الأخ الأستاذ محمد عوض ، بإذاعة القرآن الكريم ، مصر .

معنى الهجرة

قال الشيخ الإمام : كلمة « هاجروا » مأخوذة من الفعل الرباعي « هاجر » ، والاسم « هجرة » والفعل « هاجر » . وهجر غير هاجر . فقد يترك الإنسان مكاناً يقيم فيه فيكون هذا معناه « هجر » أى يترك وهو عن قلة وضيق تدفع إلى الهرب ، إنما هاجر لا بد أن يكون هناك تفاعل بين اثنين أُلجأ إلى أن يهاجر .

إذن .. فهناك عمليتان : اضطهاد الكفار للمسلمين ؛ لأنهم لو لم يضطهدوهم وعاشوا فى أمان يعلنون إيمانهم وإسلامهم ، ما حدثت الهجرة . ولكن الاضطهاد الذى لاقاه المسلمون كان تفاعلاً أدى إلى هجرتهم .
وقد تقدم قول المتنبي :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ألا تفارقهم فالراحلون همو
أى : أنك إذا تركت قومًا دون أن يكرهوك على ذلك تكون أنت الذى رحلت عنهم ، ولكن المهاجرة التى قام بها المسلمون كانت بسبب أن الكفار ألجأوهم إلى ذلك .

إذن.. هجر تكون من جهة واحدة ، واسم الهجرة مأخوذ من هاجر^(١).

(١) والهجرة : الخروج من أرض إلى أرض والمهاجرون : الذين ذهبوا مع النبى ﷺ مشتق منه وتهجر فلان أى تشبه بالمهاجرين . وقال عمر بن الخطاب ، رضى الله تعالى عنه : هاجروا ولا تهجروا ؛ قال أبو عبيد : يقول أخلصوا الهجرة لله ولا تشبهوا بالمهاجرين على غير صحة منكم ، فهذا هو التهجر ، وهو كقولك فلان يتحلم وليس بحليم ويتشجع أى أنه يظهر ذلك وليس فيه .

قال الأزهري : وأصل المهاجرة عند العرب خروج البدوى من باديته إلى المدن ؛ يقال : هاجر الرجل إذا فعل ذلك ؛ وكذلك كل مخل بمسكنه منتقل إلى قوم =

= آخرين بسكناه ، فقد هاجر قومه ، وسمى المهاجرون مهاجرين لأنهم تركوا ديارهم ومساكنهم التي نشؤوا بها لله ، ولحقوا بدار ليس لهم بها أهل ولا مال حين هاجروا إلى المدينة ؛ فكل من فارق بلده من بدوى أو حضرى أو سكن بلداً آخر ، فهو مهاجر ، والاسم منه الهجرة .

قال الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافَعًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ وكل من أقام من البوادي بمباديهم ومحاضرهم في القبط ولم يلحقوا بالنبي ، ﷺ ، لم يتحولوا إلى أمصار المسلمين التي أحدثت في الإسلام وإن كانوا مسلمين ، فهم غير مهاجرين ، وليس لهم في الفئ نصيب ويسمون الأعراب .

الجوهري : الهجرتان هجرة إلى الحبشة وهجرة إلى المدينة . والمهاجرة من أرض إلى أرض : ترك الأولى للثانية .

قال ابن الأثير : الهجرة هجرتان : إحداهما التي وعد الله عليها الجنة في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنْ أَنْتَ إِلَّا اللَّهُ أَشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْتَ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ [التوبة : ١١١] فكان الرجل يأتي للنبي ﷺ ، ويدع أهله وماله ولا يرجع في شئ منه وينقطع بنفسه إلى مهاجرة ، وكان النبي ﷺ ، يكره أن يموت الرجل بالأرض التي هاجر منها ، فمن ثم قال : لكن البائس سعد بن خولة ، يرثى له أن مات بمكة ^(١) وقال حين قدم مكة : « اللهم لا تجعل مناياتنا بها ^(٢) » ؛ فلما فتحت مكة صارت دار إسلام كالمدينة وانقطعت الهجرة .

والهجرة الثانية : من هاجر من الأعراب وغزا مع المسلمين ولم يفعل كما فعل أصحاب الهجرة الأولى ، فهو مهاجر ، وليس بداخل في فضل من هاجر تلك =

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٣٩٣٦] عن سعد بن مالك عن أبيه رضى الله عنهما.

(٢) جزء من حديث أخرجه أحمد في المسند [٢٥/٢] عن ابن عمر رضى الله عنهما.

وصححه الشيخ شاكر رقم [٤٧٧٨] .

= الهجرة ، وهو المراد بقوله : لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة^(١) ، فهذا وجه الجمع بين الحديثين ، وإذا أطلق ذكر الهجرتين فإنما يراد بهما هجرة الحبشة وهجرة المدينة .
لسان العرب [٢٥١/٥] .

وقال الفيروز آبادي :

الهجر : ضد الوصل ، وقد هجره هجراً بالفتح وهجراناً بالكسر ، والاسم الهجرة .
والمهاجرة من أرض إلى أرض : ترك الأولى للثانية .
والتهاجر : التقاطع .

وقد هجر المريض يهجر هجراً بالضم فهو هاجر ، والكلام مهجور . قال أبو عبيد :
يروى عن إبراهيم ما ثبت هذا القول في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا
الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان : ٣٠] قال : قالوا فيه غير الحق ألم تر إلى المريض إذا
هجر قال غير الحق ، وعن مجاهد نحوه .

والهجر بالضم : الاسم من الإهجار وهو الإفحاش في المنطق والخنا .

والهجر والهجران يكون بالبدن وباللسان وبالقلب ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَهْجُرُوهُمْ فِي
الْمَضَاجِعِ ﴾ [النساء : ٣٤] أى بالأبدان ؛ وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا
الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ باللسان أو بالقلب ؛ وقوله تعالى : ﴿ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾
محتمل للثلاثة ؛ وقوله تعالى : ﴿ وَالرَّجَزَ فَأَهْجُرْ ﴾ [المدثر : ٥] حث على المفارقة
بالوجوه كلها .

والمهاجرة في الأصل : مصارمة الغير ومشاركته . والمهاجرة في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ
هَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا ﴾ [البقرة : ٢١٨] و ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ وغيرهما من الآيات
فالظاهر منه أن المراد الخروج من دار الكفر إلى دار الإيمان ، كمن هاجر من مكة
إلى المدينة ، وقيل مقتضى ذلك ترك الشهوات والأخلاق الذميمة والخطايا . =

(١) جزء من حديث أخرجه أبو داود [٢٤٧٩] وقال الألباني في صحيح أبي داود [٢١٦٦]
صحيح .

.....

= وقوله : ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ﴾ [العنكبوت : ٢٦] أى تارك لقومى وذاهب إليه . وكذا المجاهدة تقتضى مع مجاهدة العدى مجاهدة النفس .
الهجر : الكلام المهجور لقبحه . وفى الحديث : « لا تقولوا هجراً »^(١) وأهجر فلان : إذا أتى بهجر من الكلام عن قصد . وهجر المريض : إذا أتى بذلك من غير قصد ، قال تعالى : ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا تَهَجَّرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٦٧] وقرئ تهجرون . وقد يشبه المبالغ فى الهجر بالمهجر فيقال : أهجر إذا قصد ذلك . ورماه بهاجرات ومهجات أى بفضائح .

بصائر ذوى التمييز : [٣٠٥ ، ٣٠٤/٥] .

(١) جزء من حديث النسائى فى الكبرى [٢١٦٠] عن بريدة رضى الله عنه ، وأحمد فى المسند [٦٦ ، ٦٣/٣] ومالك فى الموطأ [٣٨٦/٢] عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

فضل الهجرة والترغيب فيها

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء : ٩٧] .

« التوفي » معناه « القبض » ؛ فيقال : « توفيت ديني » أى قبضته مستوفياً .
ويقال : « توفي الله الإنسان » أى قبضه إليه مستوفياً .

والقبض له أمر أعلي، وهو الله الخالق سبحانه.

ومن بعد ذلك يوجد ملك مُكَلَّف يقبض أرواح العباد هو « ملك الموت » ،
كما أن هناك معاونين لملك الموت من الملائكة .

فالوفاة إذن تنسب مرة لله تعالى ، قاله سبحانه هو المتوفى : لأنه الأمر
الأعلى ، وتنسب الوفاة مرة للملائكة كما فى قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ
الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ [الأنعام : ٦١] .

وتنسب أخرى إلى ملك الموت كما فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ
الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ [السجدة : ١١] .

وإذا ما ذكر القرآن الكريم هذه الأساليب الثلاثة فى وصف عملية الوفاة فهل
يعد هذا اختلاف وتناقض وتضارب فى أساليب القرآن ؟ بالطبع لا ، بل هو
إيضاح لمراحل الولاية التى صنعها الله، فهو الأمر الأعلى يصدر الأمر إلى ملك
الموت ، وملك الموت إما أن ينفذ بنفسه، أو يصدر الأمر لجنوده من الملائكة.
وقوله تعالى : ﴿ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ الظلم هو أن تأخذ من صاحب الحق
وتعطى غير ذى الحق ، والظلم يقتضى ظالماً ومظلوماً وأمرًا وقع الظلم فيه.
فكيف يكون الإنسان ظالماً لنفسه وتوفاه الملائكة على ذلك؟ لا بد أنه فعل

ما يستوجب ذلك . فالإنسان بعد أن آمن بالله تعالى ورسوله، واتبع ما جاء به الرسول ، قد تحدثه نفسه بالمخالفة، هنا يواجه صراعاً بين أمرين: مسئولية النفس الإيمانية التى تقبل بها المنهج من الله، ووازع تلك النفس التى تلح عليه بالانحراف. ويدور ما هو أشبه بالحوار بين النفس الإيمانية ووازع النفس الملح بالانحراف. وعندما تغلب النفس الإيمانية يعرف الإنسان أن نفسه صارت مطمئنة وسعيدة ، ويقول لنفسه: إتنى إن طاوعت وازع الانحراف أكون قد حققت شهوة عاجلة يعقبها خزي وندامة، وإن رفضت الشهوة أكون قد أنصفت نفسي .

والصراع بين النفس الإيمانية والنفس الشهوانية قد ورد فى القرآن الكريم فى قصة ابنى آدم قاييل وهابيل، يقول ربنا تعالى : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقْبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧] .

هنا يقول هابيل لقاييل: لماذا تقتلنى ؟ إتنى لست أنا الذى تقبل القربان ولكن الذى تقبله هو الله تعالى فما ذنبى ؟

ويقول له : ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّيْ أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة : ٢٨] .

ولتأمل قول ربنا العليم الحكيم : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾ . كأن هناك صراعاً فى نفس قاييل بين أمرين « اقتل » و « لا تقتل » ، النفس الإيمانية تقول : « لا تقتل » والنفس الشهوانية تقول : « بل عليك أن تقتل » . وتغلبت النفس الشهوانية فطوَّعت له قتل أخيه ، ومهدت له ذلك . وبعد أن قتل أخاه ، وضاعت شرة الغضب صار من النادمين ، ثم بدأت الحيشيات تظهر وتضجح . فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض ويحفر ليوارى جثة غراب

آخر . هنالك قال قاييل كما جاءت فى القرآن الكريم : ﴿ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغَرَابِ فَأُورَى سَوَاءَ أَخِي ﴾ [لثالثة : ١٣] .

وهكذا نعلم أن ظلم النفس هو أن نخالف ما شرع الله لتلك النفس لينفعها نفعاً أبدياً مستوفياً ، ولكن النفس قد تندفع وراء حبها للشهوات وتمنيها للنفع العاجل الذى لا خلود له ، وبعد أن يحقق الإنسان هذا النفع العاجل لنفسه يشعر أنه ظلم نفسه .

وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ﴾ أى : فى أى شئ كنتم من أمر دينكم ؟ والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع أى : لماذا ظلمتم أنفسكم ؟ ولماذا لم تفعلوا مثلما فعل إخوانكم وهاجرتم مع إخوانكم وانضممتم لمجتمع الإيمان ؟ ولماذا ظلمتم فى أماكنكم محجوزين ومحاصرين ولا تستطيعون الحركة ، ولا تستطيعون الفكاك ؟

وتكون إجابة الذين ظلموا أنفسهم : ﴿ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ ﴾ أى : أنهم لم يكونوا قادرين على الخروج والهجرة ولا يعرفون السبيل إليها ، وخافوا على أموالهم وديارهم ، والقوم الذين استضعفهم قالوا لهم : إن خرجتم لا تأخذوا شيئاً من أموالكم . هذه هى بعض مظاهر الاستضعاف . وهنا تقول الملائكة ما يفيد أن هذا الكلام لا يليق ولا ينفع ، تقول الملائكة : ﴿ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ .

وكأن هذا تنبيه آخر ، وإعلان أن مثل هذا القول ومثل تلك الحجة لا قيمة لها؛ لأن الذى يمسكه مكانه وماله دون أمر الله إنما هو الذى ربط يقينه بالأسباب . أما الذى يضع منهج الله فوق مكانه وولده وكل شئ فهذا هو الذى وثق بالله لأنه هو المسبب وهو سبحانه مانع ومعطى الأسباب .

إن قوله : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ تعنى أن الحق سبحانه خلق الخلق جميعاً وأسكنهم الأرض، وهذه الأرض ليست لأحد دون أحد ، فمن يضيق به مكان فليذهب إلى مكان آخر .

وإذا كان الإنسان قد اضطرت ظروف صنعته أوضاع غير طبيعية فلا ينتقل إنسان من مكان إلى مكان إلا بعد سلسلة طويلة من التعقيدات فذلك مناقضة لقضية الخلافة في الأرض؛ لأن الخلافة لم توزع جماعة ما على أرض ما. فالإنسان، كل إنسان خليفة في الأرض كل الأرض، مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ [الرحمن : ١٠] .

فقد جعل الله الأرض متضعة مسخرة مدللة للإنسان ، والأرض هي كل الأرض، والأنام هم كل الأنام. وإن لم ينتبه العالم إلى هذه القضية ويجعلها قضية كونية اجتماعية ، سيظل ذلك العالم في شقاء . فالذي يجعل الحياة في الأرض فاسدة هو أن هناك أرضاً تحتاج إلى أناس ، وأناس في بلاد يحتاجون إلى الأرض .

ومن الواجب أن تسيح المسألة فتأخذ الأرض التي بلا رجال ما تحتاجه من الرجال من البلاد التي لا أرض فيها . وهذا الضجيج الذي يعكر صفو الحياة سببه أنه يوجد في كون الله أرض بلا رجال ورجال بلا أرض ، فإذا ما ضاق مكان بإنسان فله أن يذهب إلى مكان آخر، ولو كان الأمر كذلك لسعدت البشرية ، ومن ينقض هذه القضية فعليه أن يعرف أنه يأخذ الخلافة في الأرض بغير شروطها ، فالذي يفسد الأمر في الأرض أن الإنسان الخليفة في الأرض نسى أنه خليفة واعتبر نفسه أصيلاً في الكون . وما دام قد اعتبر نفسه أصيلاً في الكون فهذا هو الإفساد .

وقوله تعالى : ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء : ٩٧] تعنى أن الإنسان إذا أقام على ضيم ولم يعمل فكره وعقله ولم يطرح قضية الكون أمامه ليرى الأرض التى تسعه فيها جر فيها فعليه أن يعرف أنه مهدد بسوء المصير ؛ لأن الله قد جعل له الكون كله ليكون فيه خليفة .

أما الذين سوف ينجون من هذا العقاب ومن تعنيف الملائكة لهم ساعة الوفاة فهم من يقول عنهم الحق سبحانه : ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ٩٨] .

وعلينا أن نعرف أن هناك فرقاً بين « مستضعف دعوى » ، ومستضعف حقيقى « ، فهناك مستضعف قد قبل استضعاف غيره له ، وجعل من نفسه ضعيفاً . هذا هو « مستضعف دعوى » .

أما « المستضعف الحقيقى » فهو من هؤلاء الذين يذكرهم الحق سبحانه فى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ هؤلاء هم المستضعفون فعلاً حسب طبيعة عجزهم من الرجال والنساء والولدان .

وهل الرجل يكون مستضعفاً ؟ نعم ؛ لأن الاستضعاف إما أن يكون طارئاً وإما أن يكون ذاتياً؛ فبعض من الرجال يكون مملوكاً لغيره ولا يقدر على التصرف أو الذهاب وكذلك النساء؛ فالمرأة لا تستطيع أن تمشى وحدها وتحمل نفسها، بل لا بد أن يوجد معها من يحميها كزوج أو محرم لها، وكذلك الولدان ؛ لأنهم بطبيعتهم غير مكلفين وهم بذلك يخرجون عن نطاق التعنيف من الملائكة؛ لأنهم ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ . فالإنسان مكلف بالخروج عن ظلم غيره له ولو بالاحتيال ، والاحتيال هو أعمال الفكر إعمالاً يعطى للإنسان فرصة أكثر مما هو متاح له بالفعل . فقد

تكون القوة ضعيفة . ولكن بالاحتياال قد يوسع الإنسان من فرص تلك القوة .
فمثلاً الذى قام ببناء أهرامات مصر، كيف وضع الحجر الأخير على القمة ؟
لقد فعل ذلك بالحيلة ، والذى جلس لينحت مسلة من الجرانيت طولها يزيد
على العشرة أمتار، ثم نقلها وأقامها . إنه فعل ذلك بالحيلة .

فالحيلة هى إذن : فكر يعطى الإنسان قدرة فوق قدرته على المقدور عليه.
كذلك معرفة السبيل إلى الهجرة، وكانت معرفة الطريق إلى الهجرة من
مكة إلى المدينة فى زمن رسول الله تحتاج إلى خبرة حتى يتجنب الواحد منهم
المفازات والمتاهات ، وحينما قام الرسول بالهجرة أحضر دليلاً للطريق، وكان
دليله كافراً، فلا يتأتى السير فى مثل هذه الأرض بلا دليل.

ولنتأمل قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ فَأُولَٰئِكَ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَغْفِرَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء : ٩٩] .

﴿ فَأُولَٰئِكَ ﴾ إشارة إلى من جاء ذكرهم فى الآية السابقة لهذه الآية :

﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ

سَبِيلًا ﴾ [النساء : ٩٨] .

ومع ذلك فإن الله حين أشار إلى هؤلاء المستضعفين بحق قال سبحانه
وتعالى : ﴿ فَأُولَٰئِكَ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَغْفِرَ عَنْهُمْ ﴾ وكان مقتضى الكلام أن يقول
الحق : « فأولئك عفا الله عنهم » ، لكن الحق جاء بـ ﴿ عَسَى ﴾ ليحثهم على
رجاء أن يغفو الله عنهم، والرجاء من الممكن أن يحدث أو لا يحدث.
ونعرف أن ﴿ عَسَى ﴾ للرجاء ، وأنها تستخدم حين يأتى بعدها أمر محبوب
نحب أن يقع .

فقد ترجو شيئاً من غيرك وتقول: عساك أن تفعل كذا. وقد يقول الإنسان:
عساى أن أنبل كذا، وهذا يكون القائل هو الذى يملك الفعل وهذا أقوى قليلاً

، ولكن الإنسان قد تخونه قوته؛ لذلك فعليه أن يقول: عسى الله أن يفعل كذا، وفي هذا اعتماد على مطلق القوة. وإذا كان الله هو الذى يقول : ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ عَنْهُمْ﴾ فهذا إطماع من كريم قادر^(١).

(١) عسا : الشيوخ يعسو عسواً وعسواً وعسياً مثل عتياً وعساء وعسوة وعسى عسى ، كله : كبير مثل عتي . ويقال للشيخ إذا ولى وكبر : عتا يعتو عتياً ، وعسا يعسو مثله ، ورأيت فى حاشية أصل التهذيب للأزهري الذى نقلت منه حديثاً متصل السند إلى ابن عباس قال : قد علمت السنة كلها غير أنى لا أدري أكان رسول الله ، ﷺ ، يقرأ من الكبير عتياً أو عسياً فما أدري أهذا من أصل الكتاب أم سطره بعض الأفاضل . وفى حديث قتادة بن النعمان : لما أتيت عمى بالسلاح وكان شيخاً قد عسا أو عشا ؛ عسا ، بالسين المهملة ، أى كبر وأسن من عسا القضيب إذا يس ، وبالمعجمة أى قل بصره وضعف . وعست يده تعسو عسواً : غلظت من عمل ؛ قال ابن سيده : وهذا هو الصواب فى مصدر عسا . وعسا النبات عسواً : غلظ واشتد ؛ وفيه لغة أخرى عسى يعسى عسى ؛ وأنشد :

يهوون عن أركان عز أدوما عن صامل عاس ، إذا ما اصلخما

قال : والعساء مصدر عسا العود يعسو عساء ، والقساء مصدر قسا القلب يقسو قساء . وعسا الليل : اشتدت ظلمته ؛ قال :

وأظفن الليل إذا الليل عسا

والغين أعرق . والعاسى مثل العاتى : وهو الجافى . والعاسى : الشمراخ من شماريخ العذف فى لغة بلحرث بن كعب . الجوهري : وعسا الشئ يعسو عسواً وعساء ، ممدود ، أى يس واشتد وصلب . والعسا ، مقصوراً : البلح والعسو : الشمع فى بعض اللغات .

وعسى : طمع وإشفاق ، وهو من الأفعال غير المتصرفة ؛ وقال الأزهري : عسى حرف من حروف المقاربة ، وفيه ترج وطمع ؛ قال الجوهري : لا يتصرف لأنه وقع بلفظ الماضى لما جاء فى الحال ، تقول : عسى زيد أن يخرج ، وعست فلانة أن =

= تخرج ، فزيد فاعل عسى وأن يخرج مفعولها ، وهو بمعنى الخروج إلا أن خبره لا يكون اسماً ، لا يقال: عسى زيد منطلقاً . قال ابن سيده : عسيت أن أفعل كذا وعسيت قاربت ، والأولى أعلي ، قال سيويه : لا يقال عسيت الفعل ولا عسيت للفعل ، قال : اعلم أنهم لا يستعملون عسى فعلان ، استغنوا بأن تفعل عن ذلك كما استغنى أكثر العرب بعسى عن أن يقولوا عسيا وعسوا ، وبلو أنه ذاهب عن لو ذهابه ، ومع هذا فإنهم لم يستعملوا المصدر في هذا الباب كما لم يستعملوا الاسم الذى فى موضعه يفعل فى عسى وكاد ، يعنى أنهم لا يقولون عسى فاعلاً ولا كاد فاعلاً فترك هذا من كلامهم للاستغناء بالشيء عن الشيء ؛ وقال سيويه : عسى أن تفعل كقولك دنا أن تفعل ، وقالوا : عسى الغوير أبوساً أى : كان الغوير أبوساً ، حكاه سيويه ؛ قال الجوهري : أما قولهم عسى الغوير أبوساً فشاذ نادر ، وضع أبوساً موضع الخبر ، وقد يأتى فى الأمثال ما لا يأتى فى غيرها ، وربما شبهوا عسى بكاد واستعملوا الفعل بعده بغير أن فقالوا عسى زيد ينطلق ؛ قال سماعة بن أسول النعامي :
عسى الله يغني ، عن بلاد ابن قادر ، بمنهر جون الرباب سكوب
هكذا أنشده الجوهري ؛ قال ابن بري : وصواب إنشاده :

عن بلاد ابن قارب

وقال : كذا أنشده سيويه ؛ وبعبده :

ههجع تحف الريح فوق سباله ، له من لويات العكوم نصيب
وحكى الأزهرى عن الليث : عسى تجرى مجرى لعل ، تقول : عسيت وعسيتما وعسيتم وعست المرأة وعستا وعسين ؛ يتكلم بها على فعل ماض وأميت ما سواه من وجوه فعله ، لا يقال يعسى ولا مفعول له ولا فاعل . وعسى ، فى القرآن من الله جل ثناؤه ، واجب وهو من العباد ظن ، كقوله تعالى : عسى الله أن يأتى بالفتح ، وقد أتى الله به ؛ قال الجوهري : إلا فى قوله : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ ﴾ ؛ قال أبو عبيدة : عسى من الله إيجاب فجاءت على إحدى اللغتين =

= لأن عسى فى كلامهم رجاء ويقين ؛ قال ابن سيده : وقيل : عسى كلمة تكون للشك واليقين ؛ قال الأزهرى : وقد قال ابن مقبل فجعله يقيناً أنشده أبو عبيد :
ظنى بهم كعسى ، وهم بتنوفة ، يتنازعون جوائز الأمثال
أى ظنى بهم يقين . قال ابن برى : هذا قول أبى عبيدة ، وأما الأصمعى فقال :
ظنى بهم كعسى أى ليس بثبت كعسى ، يريد أن الظن هنا وإن كان بمعنى اليقين فهو كعسى فى كونها بمعنى الطمع والرجاء ، وجوائز الأمثال ما جاز من الشعر وسار . وهو عسى أن يفعل كذا وعسى أى خلىق ؛ قال ابن الأعرابي : ولا يقال عسى . وما أعساه وأعس به وأعس بأن يفعل ذلك : كقولك أحري به ، وعلى هذا وجه الفارسي قراءة نافع : فهل عسيتم ، بكسر السين ، قال : لأنهم قد قالوا هو عسى بذلك وما أعساه وأعس به ، فقوله عسى يقوى عسيتم ، ألا ترى أن عسى كحري وشج ؟ وقد جاء فَعَلَ وفَعِلَ فى نحو ورى الزند ووري ، فكذلك عسيتم وعسيتم ، فإن أسند الفعل إلى ظاهر فقياس عسيتم أن يقول فيه عسى زيد مثل رضى زيد ، وإن لم يقله فسائغ له أن يأخذ باللغتين فيستعمل إحداهما فى موضع دون الأخرى كما فعل ذلك فى غيرها . وقال الأزهرى : قال النحويون : يقال عسى ولا يقال عيسى . وقال الله عز وجل : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ [محمد : ٢٢] ؛ اتفق القراء أجمعون على فتح السين من قوله عسيتم إلا ما جاء عن نافع أنه كان يقرأ فهل عسيتم ، بكسر السين ، وكان يقرأ : « عسى ربكم أن يهلك عدوكم » فدل موافقته القراء على عسى على أن الصواب فى قوله عسيتم فتح السين . قال الجوهري : ويقال عسيتم أن أفعل ذلك وعسيتم ، بالفتح والكسر ، وقرئ بهما فهل عسيتم وعسيتم . وحكى اللحياني عن الكسائي : بالعسى أن يفعل ، قال : ولم أسمعهم يصرفونها مصرف أخواتها ، يعنى بأخواتها حري وبالحري وما شاكلها .

لسان العرب [٥٦: ٥٤/١٥] .

وبعد أن يذكر سبحانه ما يحدث لكل من مات وتوفته الملائكة ظالماً نفسه بأن ظل في أرض لا يمكنه فيها إعلاء دينه ومكث فيها ، وكان من الممكن أن يهاجر إلى أرض تعلوها أحكام الإسلام وفيها إخوانه من المؤمنين؛ ومع ذلك فالذى ينوى فى نفسه شيئاً يريد أن يحقق به قضية إيمانية فهو معان عليها لأن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافِقًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : ١٠٠] .

فالذى يهاجر فى سبيل الله تعالى سيجد السعة إن كانت هجرته خالصة لله تعالى ولرسوله ﷺ وفى البداية هاجر المسلمون الأوائل إلى الحبشة ؛ لأنهم لم يكونوا آمنين فى مكة على دينهم .

وقد يقول قائل : ولماذا لم يختار النبى أن يهاجر المهاجرون الأوائل إلى قبيلة عربية فى الجنوب أو فى الشمال ؟

نقول : لقد كانت لقريش السيادة على كل الجزيرة العربية بقبائلها، فكل القبائل تحج إلى بيت الله تعالى ، وكانت لقريش السيادة على المكان الواقع فيه البيت ولم تكن هناك أى قبيلة عربية قادرة على أن تقف أمام هوى قريش. ولذلك أمر رسول الله ﷺ المسلمين الأوائل بالهجرة إلى الحبشة، والعلة فى الذهاب إلى الحبشة أن هناك ملكاً لا يظلم عنده أحد . وكان العدل فى ذاته وساماً لذلك الملك وسماها المؤمنون دار أمن ، وإن لم تكن دار إيمان. وأما الهجرة إلى المدينة فقد كانت إلى دار إيمان.

ويقول الخليفة الراشد على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : عجبت للقوم يسعون فيما ضمن لهم ويتركون ما طلب منهم . فكل سعى الناس إنما هو للرزق والعيش وهو أمر مضمون لهم من خالقهم جل وعلا .

ولن يجد المهاجر إلا السعة من الله. والشاعر يقول :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق

وساعة تقرأ كلمة ﴿ مُرَغَمًا ﴾ تعرف أنها تفتح المجال أمام المستضعفين الذين يستذلهم الجبارون. ومادة « مراغم » هي « الراء والغين والميم » والأصل فيها « الرغام » أى « التراب » . ويقال : سوف أفعل كذا وأنف فلان راغم ، أى أنف فلان يذهب إلى التراب وسأفعل ما أنا مصمم عليه. ومادام هناك إنسان سيفعل شيئاً برغم أنف إنسان آخر، فمعناه أن الثانى كان يريد أن يستذله وأراد أن يرغمه على شئ، لكنه رفض وفعل ما يريد^(١) .

(١) رَغِمَ : الرَغِمَ والرَّغِمَ والرَّغِمَ : الكره ، والمرغمة مثله . قال النبي ﷺ بعثت مرغمة؛ المرغمة : الرَغِمَ أى بعثت هواناً وذلاً للمشركين ، وقد رَغِمَ ورغمه يرغم ، ورغمت السائمة المرعى ترغمه وأنفته تأنفه : كرهته ؛ قال أبو ذؤيب:

وكن بالروض لا يرغمن واحدة

من عيشهن ، ولا يدرين كيف غد

ويقال : ما أرغم من ذلك شيئاً أى ما أنقمه وما أكرهه . والرَّغِمَ : الذلة. ابن الأعرابي : الرَّغِمَ التراب ، والرَّغِمَ الذل ، والرَّغِمَ القسر ؛ قال : وفى الحديث : وإن رَغِمَ أنفه أى ذل ؛ رواه بفتح الغين ؛ وقال ابن شميل : على رَغِم من رَغِم ، بالفتح أيضاً . وفى حديث معقل بن يسار : رَغِمَ أنفى لأمر الله أى ذل وانتقاد . ورغم أنفى لله رَغِمًا ورَغِمًا يرغِم ويرغِم ورَغِم ؛ الأخيرة عن الهجرى ، كله : ذل عن كره ، وأرغمه الذل . وفى الحديث : إذا صلى أحدكم فليلزم جبهته وأنفه الأرض حتى يخرج منه الرَغِم ؛ معناه حتى يخضع ويذل ويخرج منه كبر الشيطان ، وتقول : فعلت ذلك على الرَغِم من أنفه . ورغِم فلان ، بالفتح ، إذا لم يقدر على الانتصاف ، وهو يرغِم رَغِمًا ، وبهذا المعنى رَغِمَ أنفه .

= والمرغِم والمرغِم الأنف ، وهو المرسن والمخطم والمعطس .

= قال الفرزدق يهجو جريراً :

تبكى المراغة بالرغام على ابنها ، والناهقات يهجن بالإعوال
وفى الحديث : أنه ، عليه السلام ، قال : « رَغِمَ أَنْفُهُ ثَلَاثًا » قيل : من يا رسول الله؟
قال : « من أدرك أبويه أو أحدهما حياً ولم يدخل الجنة »^(١) . يقال : أرغم الله أنفه
أى ألزقه بالرغام ، وهو التراب ؛ هذا هو الأصل ، ثم استعمل فى الذل والعجز عن
الانتصاف والانتقياد على كره .

وفى الحديث : « وإن رَغِمَ أَنْفُ أَبِي الدرداء »^(٢) أى وإن ذل .
وقيل : وإن كره .

وفى حديث سجدتى السهو : كائنا ترغيماً للشيطان^(٣) .

(١) أخرجه مسلم [٩/٢٥٥١] عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ . قال : « رَغِمَ أَنْفٌ ، ثم رَغِمَ
أنفٌ ثم رَغِمَ أنفٌ » قيل : من ؟ يا رسول الله : قال من أدرك أبويه عند الكبر ، أحدهما
أو كليهما فلم يدخل الجنة .

(٢) عن وهب بن عبد الله أن أبا الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ « من قال لا إله إلا الله
وحده لا شريك له ، دخل الجنة » قال : قلت وإن زنى وإن سرق ؟ قال : « وإن زنى وإن
سرق » قلت : وإن زنى أو سرق ؟ قال : « وإن زنى أو سرق » قلت : وإن زنى أو سرق ؟
قال : « وإن زنى أو سرق على رَغِمَ أَنْفُ أَبِي الدرداء » قال : فخرجت لأنادى بها فى
الناس ، قال : فلقينى عمر ، فقال ارجع ، فإن الناس إن علموا بهذه اتكلوا عليها ، فرجعت
فأخبرته ﷺ ، فقال ﷺ : « صدق عمر » . [رواه أحمد فى المسند [٤٤٢/٦] ، وذكر
الهيثمى فى الزوائد [٢١/١] وقال : رواه أحمد والبزار والطبرانى فى الكبير والأوسط ،
واسناد أحمد أصح ، وفيه ابن لهيعة وقد احتج به غير واحد .

(٣) أخرجه ابن ماجه [١٢١٠] عن أبى سعيد الخدرى ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا
شك أحدكم فى صلاته فليبلغ الشك ولين على اليقين . فإذا استيقن التمام سجد
مسجدتين . فإن كانت صلاته تامة كانت الركعة نافلة . وإن كانت ناقصة ، كانت الركعة
لتمام صلاته ، وكانت السجدتان رَغِمَ أَنْفُ الشيطان » . وقال الألبانى فى صحيح
ابن ماجه [٩٩٦] : حسن صحيح .

وعندما يرى الإنسان إنساناً جباراً يشمخ بأنفه ويتكبر ، فهو يحاول أن يعانده ويصنع غير ما يريد ويجعل مكانة هذا الأنف في التراب، ويقال في المثل الشعبي المصري: أريد أن أكسر أنف فلان.

إذن .. قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَغَمًا ﴾ أى أنه سبحانه يعطى المهاجر أشياء تجعل من كان يستضعفه ويستذله يشعر بالخزى إلى درجة أن تكون أنفه فى الرغام .

= وفى حديث أسماء : إن أمى قدمت عليّ راغمة مشرقة أفأصلها ؟ قال : « نعم »^(١) .

لما كان العاجز الذليل لا يخلو من غضب ، قالوا : ترغم إذا غضب وراغمة أى غاضبة ، تريد أنها قدمت على غضبى لإسلامى وهجرتى متسخطة لأمرى أو كارهة مجيئها إلى لولا ميسر الحاجة ، وقيل : هاربة من قومها من قوله تعالى : ﴿ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَغَمًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ١٠٠] ؛ أى مهرباً ومتسعاً ؛ ومنه الحديث : « إن السقط ليراغم ربه إن أدخل أبويه النار »^(٢) . أى يغاضبه . وفى حديث الشاة المسمومة : فلما أرغم رسول الله ﷺ ، أرغم بشر بن البراء ما فى فيه أى ألقى اللقمة من فيه فى التراب . ورغم فلان أنفه : خضع وأرغمه : حملة على ما لا يقدر أن يمتنع منه .

سان العرب [٢٤٥/١٢-٢٤٦] .

(١) رواه أبو داود [١٦٦٨] ، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [١٤٦٧] .
(٢) أخرجه ابن ماجه [١٦٠٨] عن أسماء بنت عابس بن ربيعة، عن أبيها، عن عليّ ؛ قال : قال رسول الله ﷺ « إن السقط ليراغم ربه إذا أدخل أبويه النار فيقال: أيها السقط المراغم ربه ! أدخل أبويك الجنة . فيجرهما بسرره حتى يدخلهما الجنة » . قال أبو علي : يراغم به ، يغاضب . فى الزوائد : إسناده ضعيف ، لاتفاقهم على ضعف مندل بنعلی ، وضعفه الألبانى فى ضعيف ابن ماجه [٣٥٣] .

والمستضعف فى أرض ما يجد من يضيق عليه حركته، لكنه عندما يهاجر فى سبيل الله سيجد سعة ورزقاً .

ويقول تعالى : ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : ١٠٠] ولا أحد يعرف ميعاد الموت . فإن هاجر إنسان فى سبيل الله فقد لا يصل إلى المراغم؛ لأن الموت قد يأتيه، وهنا يقع أجره على الله . فإذا كان سبحانه قد وعد المهاجر فى سبيله بالمكان الذى يرغب أنف خصمه وذلك سبب، ومن مات قبل أن يصل إلى ذلك السبب فهو قد ذهب إلى رب السبب، ومن المؤكد أن الذهاب إلى رب السبب أكثر عطاءً . وهكذا نجد أن المهاجر رابح حياً أو ميتاً .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى : سقط أجره على الله . كأن الحق سبحانه وتعالى يقول للعبد : أنت عندما تهاجر إلى أرض الله الواسعة، إن أدركك الموت قبل أن تصل إلى السعة والمراغم، فأنت تذهب إلى رحابي . والمراغم سبب من أسبابي وأنا المسبب .

وحتى نفهم معنى : ﴿ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ علينا أن نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ [النمل : ٨٢] .

الوقوع هنا هو السقوط، ولكنه ليس كالسقوط الذى نعرفه، بل هو الذهاب إلى الله . ولماذا يستخدم الحق هنا ﴿ وَقَعَ ﴾ بمعنى « سقط » ؟
لأنه سبحانه يلفتنا إلى ملحظ هام : حيث يكون الجزاء أحرص على العبد من حرص العبد عليه، فإذا ما أدرك العبد الموت فالجزاء يسعى إليه وهو فى مكانه عند الله ، ونعلم من هذا أن الجزاء يعرف صاحبه جيداً ويعرف مكانه فيذهب إليه أين كان .

وقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ حتى لمن توانى قليلاً ، وذلك حتى يلحق بالركب الإيمانى ويتدارك ما فاتته ؛ لأن الله يغفر ما فات إن حاول العبد تداركه .

فضل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار

يقول تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ
بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١٠٠] .

و « السابق » هو الذى حصل منه الفعل - بصدد ما هو فيه - قبل غيره ، وكلنا
والحمد لله مؤمنون ، من آمنوا أولاً ، ومن آمنوا بعد ذلك الكل مؤمنون ، لكن هناك
أناس سبقوا إلى الإيمان ، فهل كان سبقهم سبق زمان أم سبق اتباع ؟ إن سبق
الزمان يتحدد فى الدين عاصروا رسول الله ﷺ ، فإن ظن ظان أن المقصود
بالسابقين هم الذين سبقونا سبق زمان ، فقد يقول منا قائل : وما ذنبنا نحن وقد
جئنا بعد زمانهم ؟

ولذلك نقول : إنما السبق يعتبر من معاصر ، أى : كان معهم أناس غيرهم
وهم سبقوهم ؛ ولذلك جاء القول : ﴿ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ وأيضاً لم يكن كل
الأنصار من أهل المدينة هم من السابقين .

وينحصر المعنى فى الذين سبقوا إلى الإيمان فى مكة ، وسبقوا إلى النصرة
فى المدينة ، هؤلاء هم ﴿ وَالسَّابِقُونَ ﴾^(١) .

(١) قال القرطبي : فيه سبع مسائل :

الأولى : لما ذكر جل وعز أصناف الأعراب ذكر المهاجرين والأنصار ، وبين أن منهم
السابقين إلى الهجرة وأن منهم التابعين ، وأثنى عليهم .

وقد اختلف فى عدد طبقاتهم وأصنافهم . ونحن نذكر من ذلك طرفاً نبين
الغرض فيه إن شاء الله تعالى . وروى عمر بن الخطاب أنه قرأ « والأنصار »
رفقاً عطفاً على السابقين .

.....
= قال الأخفش : الخفض فى الأنصار الوجه ؛ لأن السابقين منهما . والأنصار اسم إسلامى . قيل لأنس بن مالك : رأيت قول الناس لكم : الأنصار ، اسم سماكم الله به أم كنتم تدعون به فى الجاهلية؟ قال : بل اسم سمانا الله به فى القرآن ؛ ذكره أبو عمر فى الاستذكار .

الثانية : نص القرآن على تفضيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وهم الذين صلوا إلى القبلتين ؛ فى قول سعيد بن المسيب وطائفة . وفى قول أصحاب الشافعى هم الذين شهدوا بيعة الرضوان ، وهى بيعة الحديبية ؛ قاله الشعبي . وعن محمد بن كعب وعطاء بن يسار : هم أهل بدر . واتفقوا على أن من هاجر قبل تحويل القبلة فهو من المهاجرين الأولين من غير خلاف بينهم . وأما أفضلهم وهى :

الثالثة : فقال أبو منصور البغدادى التميمي : أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة ، ثم الستة الباقون إلى تمام العشرة ، ثم البديريون ثم أصحاب أحد ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية .

الرابعة : وأما أولهم إسلاماً فروى مجالد عن الشعبي قال : سألت ابن عباس من أول الناس إسلاماً ؟ قال أبو بكر ، أو ما سمعت قول حسان :

إذا تذكرت شجواً من أخى ثقة فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا

خير البرية أتقأها وأعدلها بعد النبى وأوفأها بما حملا

الثانى التالى المحمود مشهده وأول الناس منهم صدق الرسلا

وذكر أبو الفرج بن الجوزى عن يوسف بن يعقوب بن الماجشون أنه قال : أدركت أبى وشيخنا محمد بن المنكدر وربيعة بن أبى عبد الرحمن وصالح بن كيسان وسعد بن إبراهيم وعثمان بن محمد الأحنسى وهم لا يشكون أن أول القوم إسلاماً أبو بكر ؛ وهو قول ابن عباس وحسان وأسماء بنت أبى بكر ، وبه قال إبراهيم النخعى . وقيل : أول من أسلم علي ؛ روى ذلك عن زيد بن أرقم وأبى ذر والمقداد وغيرهم .

= قال الحاكم أبو عبد الله : لا أعلم خلافاً بين أصحاب التواريخ أن علياً أولهم إسلاماً .
وقيل : أول من أسلم زيد بن حارثة . وذكر معمر نحو ذلك عن الزهري . وهو
قول سليمان بن يسار وعروة ابن الزبير وعمران بن أبي أنس . وقيل : أول من أسلم
خديجة أم المؤمنين ؛ روى ذلك من وجوه عن الزهري ، وهو قول قتادة ومحمد بن
إسحاق بن يسار وجماعة ، وروى أيضاً عن ابن عباس . وادعى الثعلبي المفسر
اتفاق العلماء على أن أول من أسلم خديجة ، وأن اختلافهم إنما هو فيمن أسلم
بعدها . وكان إسحاق بن إبراهيم بن راهويه الحنظلي يجمع بين هذه الأخبار ،
فكان يقول : أول من أسلم من الرجال أبو بكر ، ومن النساء خديجة ، ومن
الصبيان علي ، ومن الموالى زيد بن حارثة ، ومن العبيد بلال . والله أعلم .
وذكر محمد بن سعد قال : أخبرني مصعب بن ثابت قال : حدثني أبو الأسود
محمد بن عبد الرحمن بن نوفل قال : كان إسلام الزبير بعد أبي بكر وكان رابعاً أو
خامساً . قال الليث بن سعد : وحدثني أبو الأسود قال : أسلم الزبير وهو ابن ثمان
سنين . وروى أن علياً أسلم ابن سبع سنين . وقيل : ابن عشر .

الخامسة : والمعروف عن طريقة أهل الحديث أن كل مسلم رأى رسول الله ﷺ فهو من
أصحابه . قال البخاري في صحيحه : من صحب النبي ﷺ أو رآه من
المسلمين فهو من أصحابه . وروى عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يعد
الصحابي إلا من أقام مع رسول الله ﷺ سنة أو سنتين ، وغزا معه غزوة أو
غزوتين . وهذا القول إن صح عن سعيد بن المسيب يوجب ألا يعد من
الصحابة جرير ابن عبد الله البجلي أو من شاركه في فقد ظاهر ما اشترطه
فيهم ممن لا نعرف خلافاً في عدّه من الصحابة .

السادسة : لا خلاف أن أول السابقين من المهاجرين أبو بكر الصديق .

وقال ابن العربي : السبق يكون بثلاثة أشياء : الصفة وهو الإيمان ، والزمان ،
والمكان . وأفضل هذه الوجوه سبق الصفات ؛ والدليل عليه قوله ﷺ في
الصحيح : « نحن الآخرون الأولون بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه =

.....
= من بعدهم فهذا يومهم الذى اختلفوا فيه فهدانا الله له فاليهود غداً والنصارى بعد غد «(١)». فأخبر النبي ﷺ أن من سبقنا من الأمم بالزمان سبقناهم بالإيمان والامثال لأمر الله تعالى والانقياد إليه ، والاستسلام لأمره والرضا بتكليفه والاحتمال لوظائفه ، لا نعترض عليه ولا نختار معه ، ولا نبدل بالرأى شريعته كما فعل أهل الكتاب ؛ وذلك بتوفيق الله لما قضاه وبتييسيره لما يرضاه ؛ وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

السابعة : قال ابن خويز منداد : تضمنت هذه الآية تفضيل السابقين إلى كل منقبة من مناقب الشريعة ، فى علم أو دين أو شجاعة أو غير ذلك ، من العطاء فى المال والرتبة فى الإكرام . وفى هذه المسألة خلاف بين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما . واختلف العلماء فى تفضيل السابقين بالعطاء على غيرهم ؛ فروى عن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه أنه كان لا يفضل بين الناس فى العطاء بعضهم على بعض بحسب السابقة . وكان عمر يقول له : أتجعل ذا السابقة كمن لا سابقة له؟ فقال أبو بكر : إنما عملوا لله وأجرهم عليه . وكان عمر يفضل فى خلافته ؛ ثم قال عند وفاته : لئن عشت إلى غد لألحقن أسفل الناس بأعلامهم ؛ فمات من ليلته . والخلافة إلى يومنا هذا على هذا الخلاف .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴾ فيه مسألتان :
الأولى : قرأ عمر « والأنصار » رفقا . « الذين » بإسقاط الواو نعتا للأنصار ؛ فراجعه زيد ابن ثابت ، فسأل عمر أبى بن كعب فصدق زيदा ؛ فرجع إليه عمر وقال : ما كنا نرى إلا أنا رفعا رفعة لا ينالها معنا أحد . فقال أنس : إني أجد =

(١) أخرجه البخارى [٨٩٦] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ؛ أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فهذا اليوم الذى اختلفوا فيه فهدانا الله ، فغدا لليهود وبعد غد للنصارى » .

= مصداق ذلك في كتاب الله في أول سورة الجمعة : ﴿ وَآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ وفي سورة الحشر : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ وفي سورة الأنفال بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ ﴾ فثبتت القراءة بالواو . وبين تعالى بقوله : « يا أحسان » ما يتبعون فيه من أفعالهم وأقوالهم ، لا فيما صدر عنهم من الهفوات والزلات ؛ إذ لم يكونوا معصومين رضى الله عنهم .

الثانية : واختلف العلماء في التابعين ومراتبهم ؛ فقال الخطيب الحافظ : التابعي من صحب الصحابي ؛ ويقال للواحد منهم : تابع وتابعي . وكلام الحاكم أبي عبد الله وغيره مشعر بأنه يكفي فيه أن يسمع من الصحابي أو يلقاه وإن لم توجد الصحبة العرفية . وقد قيل : إن اسم التابعين ينطلق على من أسلم بعد الحديبية ؛ كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ومن داناهم من مسلمة الفتح ؛ لما ثبت أن عبد الرحمن بن عوف شكاه إلى النبي ﷺ خالد بن الوليد ، فقال النبي ﷺ لخالد : « دعوا لي أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم كل يوم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » (١) .

ومن العجب عد الحاكم أبو عبد الله النعمان وسويد ابني مقرن المزني في التابعين عندما ذكر الإخوة من التابعين وهما صحابييان معروفان مذكوران في الصحابة ، وقد شهدا الخندق كما تقدم . والله أعلم .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه [٢٥٤١] عن أبي سعيد رضى الله تعالى عنه أنه قال : كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء فسيبه خالد فقال رسول الله ﷺ : « لا تسبوا أحداً من أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه » .

وفى سورة الواقعة يقول الحق سبحانه : ﴿ وَالسَّيِّقُونَ السَّيِّقُونَ ﴾ ١١ أُولَئِكَ

= وأكبر التابعين الفقهاء السبعة من أهل المدينة ، وهم سعيد بن المسيب ، والقاسم ابن محمد ؛ وعروة بن الزبير ، وخارجة بن زيد ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، وعبد الله بن عتبة بن مسعود ، وسليمان بن يسار . وقد نظمهم بعض الأجلة فى بيت واحد فقال :

فخذهم عبيد الله عروة قاسم سعيد أبو بكر سليمان خارجه
وقال أحمد بن حنبل : أفضل التابعين سعيد بن المسيب ؛ فقل له : فعلقمة والأسود .
فقال : سعيد بن المسيب وعلقمة والأسود . وعنه أيضاً أنه قال : أفضل التابعين
قيس وأبو عثمان وعلقمة ومسروق ؛ هؤلاء كانوا فاضلين ومن عليّة التابعين .
وقال أيضاً : كان عطاء مفتى مكة والحسن مفتى البصرة ، فهذان أكثر الناس عنهم ؛
وأبهم .

وروى عن أبى بكر بن أبى داود قال : سيدتا التابعين من النساء حفصة بنت سيرين
وعمرة بنت عبد الرحمن ، وثالثتهما - وليست كهما - أم الدرداء .
وروى عن الحاكم أبى عبد الله قال : طبقة تعد فى التابعين ولم يصح سماع أحد
منهم من الصحابة ؛ منهم إبراهيم بن سويد النخعى وليس بإبراهيم بن يزيد النخعى
الفقيه . وبكير بن أبى السميّط ، وبكير بن عبد الله الأشج . وذكر غيرهم قال :
وطبقة عدادهم عند الناس فى أتباع التابعين ، وقد لقوا الصحابة منهم أبو الزناد
عبد الله بن ذكوان ، لقى عبد الله بن عمر وأنساً . وهشام بن عروة ، وقد أدخل
على عبد الله بن عمر ، وجابر بن عبد الله وموسى بن عقبة ، وقد أدرك أنس بن
مالك وأم خالد بنت خالد بن سعيد . وفى التابعين طبقة تسمى بالمخضرمين ، وهم
الذين أدركوا الجاهلية وحياة رسول الله ﷺ وأسلموا ولا صحبة لهم . واحدهم
مخضرم « بفتح الراء » كأنه مخضرم ، أى قطع عن نظرائه الذين أدركوا الصحبة
وغيرها .

وذكرهم مسلم فبلغ بهم عشرين نفساً ، منهم أبو عمرو الشيباني ، وسويد بن غفلة
الكندي ، وعمرو بن ميمون الأودي ، وأبو عثمان النهدي وعبد خير بن يزيد =

الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ [الواقعة] .

ثم يأتي من بعدهم في المرتبة : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾
ثم يحدد الحق سبحانه وتعالى هؤلاء فيقول : ﴿ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ
مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ [الواقعة] .

ولذلك حينما يأتي من يقول : لن يستطيع واحد من أمة محمد ﷺ
تأخر عن عصر محمد ﷺ أن يصل إلى منزلة الصحابة ؛ لأن الله قال :
﴿ وَالسَّيِّئُونَ ﴾ ، نقول له : لا ، بل افطن إلى بقية قوله سبحانه : ﴿ ثَلَاثَةٌ مِّنَ
الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ ، وهذا دليل على أن بعضاً من الذين جاءوا بعد
زمان رسول الله ﷺ سينالون مرتبة رفيعة^(١).

= الخيرانى « بفتح الخاء » ، بطن من همدان ، وعبد الرحمن بن مل . وأبو الحلال
العتكى ربيعة بن زرارة . ومن لم يذكره مسلم ؛ منهم أبو مسلم الخولانى عبد الله
ابن ثوب ، والأحنف بن قيس . فهذه نبذة من معرفة الصحابة والتابعين الذين نطق
بفضلهم القرآن الكريم ، رضوان الله عليهم أجمعين . وكفانا نحن قوله جل وعز :
﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] على ما تقدم .
وقوله عز وجل : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .
وقال رسول الله ﷺ : « وددت أنا لو رأينا إخواننا »^(١) . الحديث . فجعلنا إخوانه ؛
إن اتقينا الله واقفينا آثاره حشرنا الله فى زمرة ولا جاد بنا عن طريقته وملته بحق
محمد وآله . تفسير القرطبي [٢٣٥/٨ - ٢٤٠] .

(١) أخرج مسلم فى صحيحه [١٢/٢٨٣٢] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال ،
قال رسول الله ﷺ : « من أشد أمتى لى حباً ، ناس يكونون بعدى يود أحدهم
لو رآنى بأهله وماله » .

(١) جزء من حديث مسلم فى صحيحه [٣٩/٢٤٩] عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وفى الحديث قال رسول الله ﷺ : « وددت أنا قد رأينا إخواننا » . فقال أصحاب النبي ﷺ : أولسنا إخوانك ؟ قال : « أنتم أصحابي ، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد » (١) .

ولكن من هم السابقون المقصودون فى قوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ مِنَ الْمُهِجْرِينَ ﴾ نعلم أن السابقين من المهاجرين هم أهل بدر ، الذين دخلوا أول معركة فى الإسلام ، مع أنهم خرجوا من المدينة ، لا ليشهدوا حرباً ،

= وأخرج أحمد فى المسند [١٥٥/٣] عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « طوبى لمن آمن بى ورأى مرة ، وطوبى لمن آمن بى ولم يرى سبع مرار » .

والحديث أخرجه ابن حبان فى صحيحه [٧٢٣٢] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه وحسنه الأرنأوط .

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم [٣٩/٢٤٩] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه بلفظ : أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين . وإنا إن شاء الله ، بكم لاحقون وددت أنا قد رأينا إخواننا » قالوا : أولسنا إخوانك يا رسول الله ؟

قال : « أنتم أصحابي ، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد » . فقالوا : كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله ؟ فقال : « أرايت لو أن رجلاً له خيل غرٌّ محجلة . بين ظهرى خيل دهم بهم ألا يعرف خيله ؟ »

قالوا : بلى يا رسول الله .

قال : « فإنهم يأتون غرّاً محجلين من الوضوء . وأنا فرطهم على الحوض . ألا ليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال . أناديهم : ألا هلم ! فيقال : إنهم قد بدلوا بعدك . فأقول : سحقاً سحقاً » .

ولكن ليعترضوا عيراً لقريش تحمل بضائع، ويرجعوا بالغنائم . ومع ذلك دخلوا الحرب ، لا مع القوافل التي ضمت العير والحراس والرعاة ، ولكن دخلوا الحرب مع النفير ، وهم من جاءوا ونفروا من مكة، وهم صناديد قريش. وهكذا كانت منزلة أهل بدر، أنهم سبقوا إلى الجهاد في أول معركة للإسلام^(١).

ولذلك حين حاول حاطب بن أبي بلتعة أن يخبر ناساً من المشركين من أهل مكة ببعض أمر رسول الله ﷺ أخبر الله نبيه ﷺ ، فقال النبي ﷺ لعلى رضى الله عنه ومن معه ائتوا إلى مكان اسمه « روضة خاخ » في الطريق بين مكة والمدينة ، فستجدون فيه جارية معها كتاب إلى أهل مكة ، خبأته في عقيصتها. فلما ذهب على ومن معه رضى الله تعالى عنهم يبحثون عن المرأة في الموضع الذي ذكره لهم رسول الله ﷺ ، وجدوا المرأة ولكنها أنكرت أن معها كتاباً ، فهددوها ؛ فأخرجته من عقيصتها ؛ فوجدوه من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من مشركي قريش . وعادوا به إلى النبي ﷺ ، فأحضر النبي ﷺ حاطباً ، وقال له : ما حملك على هذا يا حاطب ؟

قال له : يا رسول الله : أنا لصيق بقريش ولي فيها أهل ومال ، وليس لي بها عزوة ؛ فأردت أن أتخذ يداً عند قريش يعرفونها لي ؛ فيحافظوا على أهلي وعلى مالي ، وعرفت أن ذلك لا يضرك شيئاً وأن الله ناصرك . وما فعلته ينفعني ولا يضرك ،

قال : صدقت .

(١) انظر كتاب غزوات الرسول ﷺ للشيخ الشعراوي - غزوة بدر - وهو من منشورات مكتبة التراث الإسلامي .

وأراد عمر رضی الله تعالى عنه أن ينزل عليه بسيفه ، فقال النبي ﷺ :
« إنه قد شهد بدرًا ، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما
شئتم فقد غفرت لكم » (١).

لأن أهل بدر دخلوا المعركة بدون عدة ، وبدون استعداد ، ومع ذلك هانت
نفوسهم عليهم ، فكأن الله قال : أنتم عملتم ما عليكم ، وقد غفرت لكم
كل ما تفعلونه من السيئات .

(١) اللصيق قال سفيان : كان حليفاً لهم ولم يكن من أنفسهم .
والحديث أخرجه البخاري [٧٠٠٣] عن عبيد الله بن أبي رافع قال : سمعت علياً
رضي الله تعالى عنه يقول : « بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد وقال :
« انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه منها » .
فانطلقنا تعادى بنا خيلنا ، حتى انتهينا إلى الروضة ، فإذا نحن بالظعينة ، فقلنا :
أخرجي الكتاب . فقالت : ما معي من كتاب . فقلنا : لتخرجن الكتاب ، أو لنلقين
السياب . فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه :
من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر
رسول الله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ : « يا حاطب ما هذا ؟ » قال : يا رسول الله
لا تعجل علي ، إني كنت امرأ ملصقاً في قريش ، ولم أكن من أنفسهم ، وكان من
معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهلهم وأموالهم فأحببت إذا فاتني
ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي ، وما فعلت كفراً
ولا ارتداداً ولا رضا بالكفر بعد الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : « قد صدقكم » .
فقال عمر : يا رسول الله ، دعني أضرب عنق هذا المنافق . قال : إنه قد شهد بدرًا ،
وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد
غفرت لكم » . وأخرجه مسلم [١٦١/٤٩٤٢] .

و « روضة خاخ » مكان بين مكة والمدينة بالقرب من المدينة .

و « عقاصها » أي : شعرها المصفور جمع عقيصه .

إذن .. فالسابقون من المهاجرين هم أهل بدر وأهل الحديبية ، وهم أهل بيعة
الرضوان الذين رُدوا مع رسول الله ﷺ عن العمرة ، ثم عقد النبي ﷺ مع
القرشيين المعاهدة .

والسابقون من الأنصار هم من جاءوا للنبي في مكة، وأعطوا له العزوة
وأعطوا له الأمان والعهد ، وكانوا اثني عشر في بيعة العقبة الأولى ، وخمسة
وسبعين في العقبة الثانية^(١). هؤلاء هم السابقون ، وأضاف الحق إليهم :
﴿ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ ﴾ أى : من يأتى من بعدهم .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ ﴾ [الأنفال : ٧٢]
الفئة الأولى فى هذه الآية هم : المهاجرون وقال فيهم الحق تبارك وتعالى :
﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ .
والفئة الثانية هم : الأنصار الذين قال فيهم الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ
ءَاوُوا وَنَصَرُوا ﴾ .

ثم يوحد الله تعالى بين المهاجرين والأنصار فيقول عز وجل : ﴿ أَوْلِيَاءَ
بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ ﴾ .

وبعض من العلماء فسر هذه الآية : على أنها تشمل الالتحام الكامل ،
لدرجة أنه كان يرث بعضهم بعضاً أولاً إلى أن نزلت أية الميراث وهى قول الله
تعالى : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ [الأنفال : ٧٥]
فألفت ذلك التوارث الذى كان بينهم .

(١) انظر بيعة العقبة الأولى والثانية من كتابنا هذا .

وبعض العلماء قال : إن الولاية هي النصر ، وهي المودة ، وهي التمجيد ، وهي الإكبار ، فقالوا : هذه صفات الولاية ، قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] .

وقد عرفنا الكثير عن الإيثار من الأنصار الذي قد بلغ مرتبة لا يتسامى إليها البشر أبداً إلا بصدق الإيمان .

وعندما وصل المهاجرون إلى المدينة وتركوا نساءهم في مكة، كان الأنصاريّ يجيء للمهاجر ويقول له : انظر إلى نسائي والتي تعجبك منهن أطلقها لتزوجها. هذه مسألة لا يمكن أن يصنعها إلا الإيمان الكامل، وحين يصنعها الإيمان ، فهذا الإيمان يجدع أنف الغيرة ويمنعها أن تتحرك، ولا يكون هناك من له أكثر من زوجة ومن هو محروم من المرأة.

وقد حدد الحق لنا ميزة كل طائفة من طوائف المؤمنين وبين أحكامهم: فالطائفة الأولى : المهاجرون الذين آمنوا وتركوا دينهم الذي ألفوه، ثم هاجروا وتركوا أوطانهم وبيوتهم وأموالهم وزوجاتهم وأولادهم ثم بعد ذلك عملوا لينفقوا على أنفسهم بمال يكتسبونه وينفقوا منه أيضاً على الجهاد في سبيل الله؛ مع أنهم تركوا أموالهم وكل ما يملكون في مكة، فكأنهم ضحوا بالمال وضحوا بالنفس . ودخلوا وهم قلة في معركة مع الكثرة المشركة، ولم يكونوا واثقين من النصر ولكنهم كانوا يطلبون الشهادة.

إذن .. فهم آمنوا ، هذه واحدة ، وهاجروا ، وهذه الثانية ، وجاهدوا بأموالهم هذه الثالثة ، وجاهدوا بأنفسهم هذه الرابعة ، وكانوا أسوة لأنهم سبقوا إلى الإيمان والجهاد فشجعوا غيرهم على أن يؤمنوا ، ولذلك فلهم أجر

من سن سنة حسنة ، ولهم أجر من عمل بها، وهؤلاء هم السابقون الأولون
ولهم منزلة عالية وعظيمة عند الله عز وجل^(١).
والطائفة الثانية : الأنصار وهم الذين آووا هذه واحدة ، ونصروا هذه الثانية ،
وأحبوا من هاجر إليهم ، هذه الثالثة . وهؤلاء جمعهم الله في الولاية أى
النصرة والمودة والتعظيم والإكبار .

(١) عن جرير بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « من سن فى الإسلام سنة حسنة ،
فعمل بها بعده ، كتب له مثل أجر من عمل بها . ولا ينقص من أجورهم شيء .
ومن سن فى الإسلام سنة سيئة ، فعمل بها بعده ، كتب عليه مثل وزر من عمل
بها ، ولا ينقص من أوزارهم شيء » . أخرجه مسلم [١٥/١٠١٧]
وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « من دعا إلى هدى ، كان له من الأجر
مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً . ومن دعا إلى ضلالة ، كان
عليه من الإثم مثل آثام من تبعه ، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً » .
أخرجه مسلم [١٦/٢٦٧٤] .

جزاء السابقين الأولين

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا
وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ ^(١) [الأنفال : ٧٤] .

(١) قال البيضاوى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا ﴾ هم المهاجرون هجروا أوطانهم حباً لله
ولرسوله . ﴿ وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ ﴾ فصرفوها فى الكراع والسلاح وأنفقوها على
المحاييج . ﴿ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ بمباشرة القتال . ﴿ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا ﴾
هم الأنصار آووا المهاجرين إلى ديارهم ونصروهم على أعدائهم . ﴿ أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ فى الميراث ، وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة
دون الأقارب حتى نسخ بقوله : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ أو بالنصرة
والمظاهرة ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ﴾ .
أى من توليهم فى الميراث ، وقرأ حمزة « ولايتهم » بالكسر تشبيهاً لها بالعمل
والصناعة كالكتابة والإمارة كأنه بتولية صاحبه يزاول عملاً . ﴿ وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي
الَّذِينَ فَعَلْتُمْ كُفَرًا فَغَايِبًا ﴾ فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين . ﴿ إِلَّا عَلَىٰ
قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ﴾ عهد فإنه لا ينقض عهدهم لنصرهم عليهم ﴿ وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ فى الميراث أو المؤازرة ، وهو بمفهومه يدل
على منع التوارث أو المؤازرة بينهم وبين المسلمين . ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ ﴾ إلا تفعلوا
ما أمرتم به من التواصل بينكم وتولى بعضكم لبعض حتى فى التوارث وقطع
العلائق بينكم وبين الكفار ﴿ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ ﴾ . تحصل فتنة فيها عظيمة ،
وهى ضعف الإيمان وظهور الكفر . ﴿ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ فى الدين وقرئ « كثير » .
﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ
الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ لما قسم المؤمنين ثلاثة أقسام بين أن الكاملين فى الإيمان منهم هم
الذين حققوا إيمانهم بتحصيل مقتضاه من الهجرة والجهاد وبذل المال ونصرة =

إِنْ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَّكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ ﴾ [الأنفال : ٧٢] .
 قد أعطانا الحكم الشرعى فى ولاية بعضهم لبعض . وأوضح أن هؤلاء لا بد أن يكونوا أولياء ، وهذا هو الحكم المطلوب منهم ، ولكنه سبحانه فى هذه الآية الكريمة قال : ﴿ أَوْلِيَّكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ .

فلم يتكلم الحق سبحانه وتعالى هنا عن الولاية ولم يعط حكماً بها، وإنما قال سبحانه وتعالى : ﴿ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ وهذا حصر يسمونه قصراً ، أى أن غيرهم لا يكون مؤمناً حقاً ، مثلما تقول : فلان هو الرجل، يعنى أن غيره لا تعد رجولته كاملة من كل نواحيها . وهذه مبالغة إيمانية .

وقوله تعالى : ﴿ هُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ يتكلم الحق سبحانه وتعالى هنا عن الجزاء . والجزاء إما أن يكون فى الدنيا ، ولذلك حكم الله لهم بأنهم هم المؤمنون حقاً ، وإما أن يكون الجزاء فى الآخرة . وجزاء الآخرة يمحو السيئات ويرفع الدرجات فقولته تعالى : ﴿ هُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ أى : تمحى سيئاتهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ أى تضاعف لهم الحسنات فى الجنة . فكان الآية الأولى كان مقصوداً بها حكم الولاية . وهو حكم مطلوب منهم . والآية الثانية تكلمت عن الجزاء وبينت جزاءهم فى الدنيا والآخرة . والجزاء

= الحق ، ووعد لهم الموعد الكريم فقال . ﴿ هُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ لا تبعة له ولا منة فيه ، ثم ألحق بهم فى الأمرين من سيلحق بهم ويتسم بسمتهم فقال : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ ﴾ أى من جملةكم أيها المهاجرون والأنصار .

تفسير البيضاوى [٢٩٣/١ : ٣٩٣] .

فى الدنيا أنهم هم المؤمنون حقًا ، أما الجزاء فى الآخرة فهو محو الذنوب حتى لا يعاقبوا . ورفع درجاتهم بإعطائهم الثواب ؛ وهو رزق كريم .

والمغفرة لهم على قليل الذنوب ؛ لأنه لا يوجد أحد بلا كبوة فى شئ من الأشياء ولا أحد معصوم مثل الرسل فهم وحدهم الذين عصمهم الله من الوقوع فى المعاصي ، ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يغفر لمن ذكرهم فى هذه الآية النزوات الصغيرة، ولهم رزق كريم أيضاً . والرزق هو ما انتفع به الإنسان، وإن كان الناس ينظرون إلى الرزق على أنه المادة فقط ؛ من مال وأرض وعقار وطعام ولباس ، ولكن الحقيقة أن الرزق مجموع أشياء متعددة ؛ منها ما هو مادي وما هو معنوي .

فلاستقامة رزق ، والفضيلة رزق ، والعلم رزق ، والتقوى رزق ، وكلما امتد نفع الرزق يوصف بأنه حسن وجميل . وهنا وصف الحق الرزق بأنه كريم . والكرم هو مجموع الأشياء التى فيها محاسن . وإذا جاء الرزق بلا تعب يكون كريماً، فالهواء رزق لا عمل لك فيه ؛ يمر عليك فتتنفس ، والماء رزق لا عمل لك فيه لأنه يهبط عليك من السماء ، والطعام رزق لك فيه عمل قليل ، فأنت بذرت ورويت وانتظرت حتى جاء الثمر .

إذن .. فهناك رزق لا عمل لك فيه مطلقاً وهو رزق فى قمة الكرم ، وهناك رزق لك فيه عمل ضئيل وهو رزق كريم لأنه أكبر من العمل . وأنت حين تعطى إنساناً أجره ليس هذا مثلاً أو كرمًا منك لأنه مقابل عمل ، ولكن الكرم أن تعطيه بلا مقابل . ورزق الجنة بلا مقابل لأنه بمجرد أن يخطر الشئ على بالك وتشتهيه تجده أمامك .

إذن .. فهو رزق فى قمة الكرم ، والحق سبحانه وتعالى قد جعل الكرم من صفات الرزق ، فالرزق يعرف عنوانك ومكانك وأنت لا تعرف عنوانه

ولا مكانه ؛ لأنك قد تبذل جهداً كبيراً فى زراعة أرضك ثم تأتى آفة وتصيب
الزراع فلا يعطيك رزقاً . وقد تذهب إلى مكان وأنت خالى الذهن فتأتيك
صفقة فيها رزق وفير .

إذن .. فالرزق يعرف مكانك ويأتى إليك ولكنك لا تعرف أين هو . وقد
حدد الله سبحانه وتعالى الرزق وقسمه على عباده، وكل رزق مقسوم لك
سيصل إليك ولن يذهب إلى غيرك، وأنت قد تأكل طعاماً تشتهيهِ ثم يهيج
معدتك فتفرغ معدتك منه، ويأتى طائر ليلتقط بعضه؛ هذا رزق الطائر تعافه
أنت . وقد تأكل الطعام ويتحول إلى مكونات فى دمك ثم تذهب تتبرع بهذا
الدم إلى غيرك .

إذن .. فهذا الطعام الذى أكلته وتحول إلى دم فى جسدك ليس رزقك ولكنه
رزق من نقل إليه الدم .

ويقول ربنا تبارك اسمه وتعالى جده : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ
ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ [النحل : ١١٢] .
فالرزق يأتيك ولا تذهب أنت إليه، وإذا كان الرزق قد ربط فى الدنيا
بأسباب العمل، فالرزق فى الآخرة يأتيك بلا عمل .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدِ وَهَاجَرُوا
وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولَئِىَ الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ
اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٧٥] .

إذن .. فمن آمن بعد هؤلاء الأولين وهاجر وجاهد له أيضاً مغفرة ورزق
كريم . هكذا حدد الحق سبحانه وتعالى فئات المؤمنين وجعل لكل فئة مقامها،
فالذين آمنوا هم جميعاً قد انضموا انتماء أولياً إلى الله، ولذلك نجد أن الحق
سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان مقهوراً فى أشياء ومختاراً فى أشياء يفعلها أو

لا يفعلها ، والمؤمن يختار ما أراده الله تعالى له ؛ فيفعل إذا قال له : « افعل » ، ولا يفعل إذا قال له : « لا تفعل » ، وهو بهذا يكون قد اختار أمر الله وحكمه وآثره على أمر غيره رغبة منه إليه سبحانه وطمعاً في مرضاته ورحمته .

إن معنى الإيمان أن يستقر في قلبك وأن تؤمن أن الله تعالى بكل صفات كماله خلق لنا هذا الكون ، وأنا جئنا إلى هذا الكون فوجدناه قد أُعد لنا إعداداً جيداً ، كل ما فيه مسخر لخدمة الإنسان، وأعطانا الله سبحانه وتعالى الاختيار في أشياء، وجعلنا من رحمته مقهورين في أشياء .

مثلاً دقات القلب والدورة الدموية وأجزاء جسمك الداخلية مقهورة لله عز وجل لا دخل لاختيارك فيها، وكذلك التنفس فأنت تتنفس وأنت نائم ولا تعرف كيف يحدث ذلك، ولكن الأفعال التي تصدر منك بعد فكر، تلك هي الأفعال التي جعل الله لك فيها اختياراً. ولو أرادك الخالق سبحانه أن تكون مقهوراً لفعل ، ولو أراد أن يؤمن الناس جميعاً لفعل ؛ ولكنه سبحانه وتعالى ترك لهم الاختيار؛ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر؛ لئبتي عباده فيحیی من حی عن بینة ويهلك من هلك عن بینة ولله الأمر من قبل ومن بعد .

إذن .. فالانتماء الأول للمسلم هو انتماء الإيمان ، وللإنسان انتماءات أخرى ؛ ينتمى لوطنه ولأهله ولأولاده ولماله ، ولكنها كلها دائرة في فلك الإيمان ولذا يجب أن يكون الانتماء الأول لله تعالى ، بحيث يترك الناس أوطانهم وأموالهم وأهلهم إذا كان الإيمان يقتضى ذلك . والإنسان المؤمن هو الذى يترك اختياره فيختار ما أمر به الله عز وجل ويجعل كل ما يملكه في خدمة ذلك ؛ فيجاهد بنفسه لأن الله أمره بذلك ، ويجاهد بماله لأن الله أمره بذلك . إذن فالمؤمن الحق لا انتماء له إلا لله . فالذين هاجروا والذين آووا ونصروا ، تركوا أموالهم وأولادهم وكل ما يملكون حيّاً في الله تعالى وطاعة له سبحانه .

فالأَنْصار لم يهاجروا ولكنهم وضعوا كل إمكاناتهم فى إيواء المهاجرين ونصرتهم حيًّا لله تعالى وطاعة له سبحانه .

أما الفئة الثانية : فهناك نقص فى إيمانهم؛ ذلك أنهم لم يهاجروا رغم إسلامهم وفضلوا أن يبقوا مع أولادهم وأهلهم. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى عنهم : ﴿ مَا لَكُمْ مِّنْ وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأنفال : ٧٢] .

أى ليس مطلوباً أن توالوهم ، لكن إذا استنصروكم فى الدين فعليكم النصر، لماذا ؟ لأنهم لم يتركوا الانتماءات الأخرى مثل المال والولد والأهل .

والفئة الثالثة : هم الذين جاءوا من بعد ذلك ، لم تكن هناك هجرة ليهاجروا ولكن من آمن منهم وجاهد وترك اختياره وخضع لاختيار الله خضوعاً تاماً يكون كالمؤمنين الأوائل ؛ لأنهم تركوا كل الانتماءات من أجل الله تعالى . وصدق الله العظيم القائل : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٧٥] .

عرض النبي ﷺ نفسه على القبائل

بعد موت أبي طالب ، عم النبي ﷺ ، والسيدة خديجة رضى الله تعالى عنها اشتد أذى الكفار لرسول الله ﷺ والذين آمنوا معه . فكان ﷺ يعرض نفسه على قبائل العرب فى المواسم ؛ بغية أن يجد من ينصره ويحميه ؛ حتى يبلغ رسالة ربه سبحانه وتعالى ، وورد أنه ﷺ كان يقول : « يا بنى فلان ؛ إني رسول الله إليكم ، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد وأن تؤمنوا بى وتصديقونى ، وتمنعونى حتى أبين عن الله ما بعثنى به » (١) .

(١) قال الحافظ فى الفتح : ذكر ابن إسحاق وغيره أن النبي ﷺ كان بعد موت أبي طالب قد خرج إلى ثقيف بالطائف يدعوهم إلى نصره ، فلما امتنعوا منه رجع إلى مكة فكان يعرض نفسه على قبائل العرب فى مواسم الحج (١) .
وذكر بأسانيد متفرقة أنه أتى كندة وبنى كعب وبنى حذيفة وبنى عامر بن صعصعة وغيرهم ، فلم يجبه أحد منهم إلى ما سأل (٢) .

وقال موسى بن عقبة عن الزهري : « فكان فى تلك السنين - أى التى قبل الهجرة - يعرض نفسه على القبائل ، ويكلم كل شريف قوم ، لا يسألهم إلا أن يؤروه ويمنعوه ، ويقول : لا أكره أحداً منكم على شيء ، بل أريد أن تمنعوا من يؤذنى حتى أبلغ رسالة ربي ، فلا يقبله أحد ، بل يقولون : قوم الرجل أعلم به » .
وأخرج البيهقي ، وأصله عند أحمد ، وصححه ابن حبان من حديث ربيعة بن عباد - بكسر المهملة وتخفيف الموحدة - قال : « رأيت رسول الله ﷺ بسوق =

(١) انظر السيرة لابن هشام [٣٦/٢] .

(٢) انظر السيرة لابن هشام [٤٦-٣٦/٢] .

= ذى المجاز يتبع الناس فى منازلهم يدعوههم إلى الله عز وجل » الحديث^(١) وروى أحمد وأصحاب السنن وصححه الحاكم من حديث جابر « كان رسول الله يعرض نفسه على الناس بالموسم فيقول : هل من رجل يحملنى إلى قومه ؟ فإن قرىشاً منعونى أن أبلغ كلام ربي . فأتاه رجل من همدان فأجابه ، ثم خشى أن لا يتبعه قومه فجاء إليه فقال : أتى قومى فأخبرهم ثم آتيتك من العام المقبل . قال : نعم : فانطلق الرجل وجاء وقد الأنصار فى رجب^(٢) .

وقد أخرج الحاكم وأبو نعيم والبيهقى فى « الدلائل » بإسناد حسن عن ابن عباس « حدثنى على بن أبى طالب قال : لما أمر الله نبيه أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه وأبو بكر إلى منى ، حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب ، وتقدم أبو بكر وكان نساباً فقال : من القوم ؟ فقالوا : من ربيعة . قال : من أى ربيعة أنتم ؟ قالوا : من ذهل - ذكروا حديثاً طويلاً فى مراجعتهم وتوقفهم أخيراً عن الإجابة - قال : ثم دفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج ، وهم الذين سماهم رسول الله ﷺ الأنصار لكونهم أجابوه إلى إيوائه ونصره ، قال : فما نهضوا حتى بايعوا رسول الله ﷺ^(٣) . انتهى .

فتح البارى [٦٢٣/٧ : ٦٢٤] . =

(١) أخرجه البيهقى فى الدلائل [٣٨/٥] ، وأحمد فى المسند [٤٩٢/٣] ، والطبرانى فى الكبير [٤٥٨٤/٥] ، والحاكم فى المستدرک [١٥/١] . وذكره الهيثمى فى المجمع [٢٤/٦] وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

(٢) أخرجه أحمد فى المسند [٣٩٠/٣] ، والترمذى [٢٩٢٥] مختصراً ، وقال : حديث غريب صحيح وأبو داود [٤٧٣٤] ، وابن ماجه [٢٠١] وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٣٣٥] وانظر الصحيحة [١٩٤٧] .

(٣) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة [٤٢٢/٢ - ٤٢٧] .

= وذكر الدكتور أكرم العمرى : لم يدع رسول الله ﷺ فرصة للاجتماع بالناس وتبليغهم الدعوة - تفوته ، وخاصة فى موسم الحج عندما تقبل القبائل إلى مكة ، قال ربيعة ابن عباد الدؤلى - وهو شاهد عيان : « رأيت رسول الله ﷺ بذى المجاز يتبع الناس فى منازلهم يدعوهم إلى الله عز وجل ، ووراءه رجل أحول تقد وجنتاه وهو يقول : « أيها الناس ، لا يغرركم هذا من دينكم ودين آبائكم .

قلت : من هو ؟

قالوا : هذا أبو لهب ^(١) .

ومما مخاطب به الناس فى ذى المجاز : « يأيتها الناس ، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » ^(٢) وكان الناس يزدحمون عليه غير أنهم لا يقولون شيئاً ، وهو لا يسكت بل يكرر =

(١) أخرجه أحمد فى المسند [٤٩٢/٣] بلفظ : رأيت رسول الله ﷺ وهو يدعو الناس إلى الإسلام بذى المجاز وخلفه ؟ رجل أحول يقول : لا يغلبنكم هذا عن دينكم ودين آبائكم . قلت لأبى وأنا غلام : من هذا الأحول الذى يمشى خلفه ؟ قال : هذا عمه أبو لهب . وأخرج الطبرانى فى الكبير [٤٥٨٤/٥] ، والحاكم فى المستدرک [١٥/١] بلفظ : رأيت رسول الله ﷺ بمنى فى منازلهم قل أن يهاجر إلى المدينة يقول : « يأيتها الناس ، إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً » قال : ووراءه رجل يقول : يأيتها الناس إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم ، فسألت : من هذا الرجل ؟ قيل : أبو لهب . وقال حديث صحيح على شرط الشيخين وواقعه الذهبى .

(٢) أخرجه أحمد فى المسند [٣٤١/٤] عن ربيعة بن عباد بلفظ : رأيت النبى ﷺ فى الجاهلية فى سوق ذى المجاز وهو يقول : « يأيتها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » والناس مجمعون عليه ووراءه رجل وضىء الوجه أحول ذو غديرتين يقول : إنه صابىء كاذب يتبعه حيث ذهب فسألت عنه فذكروا لى نسب رسول الله ﷺ وقالوا لى : هذا عمه أبو لهب .

وأخرجه الحاكم فى المستدرک [١٥/١] ، والطبرانى فى الكبير بنحوه والأوسط باختصار بأسانيد . وأحد أسانيد عبد الله بن أحمد ثقات .

= دعوتهم ، وأبو لهب يصيح : إنه صائئ كاذب يريد لتتركوا آلهتكم وتتركوا اللات والعزى^(١).

ومما خاطب به رسول الله ﷺ الناس في الموقف : هل من رجل يحملني إلى قومه ؛ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي عز وجل ؟ فأتاه رجل من همدان فقال : من أنت ؟ فقال الرجل : من همدان .

قال : فهل عند قومك من منعه ؟

قال : نعم .

ثم إن الرجل خشى أن يحقره قومه . فأتى رسول الله ﷺ فقال : آتيهم فأخبرهم ، ثم آتيك من عام قابل .

قال : نعم .

= فانطلق . وجاء وفد الأنصار في رجب^(٢).

(١) أخرجه في المسند [٦٣/٤] وذكره الهيثمي في المجمع [٢٤/٦، ٢٥] وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

(٢) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : كان النبي ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف فيقول : « هل من رجل يحملني إلى قومه ؛ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي عز وجل » فأتاه رجل من همدان فقال : « ممن أنت » فقال الرجل : من همدان ، قال : « فهل عند قومك من منعه ؟ » قال : نعم . ثم إن الرجل خشى أن يحقره قومه ، فأتى رسول الله ﷺ فقال : آتيهم فأخبرهم ثم آتيك من عام قابل ، قال : « نعم » فانطلق وجاء وفد الأنصار في رجب .

وأخرجه أحمد في المسند [٣٩٠/٣] واللفظ له . والترمذي [٢٩٢٥] مختصراً وقال : حديث غريب صحيح ، والحاكم في المستدرک [٦١٢/٢، ٦١٣] وصححه ، ووافقه الذهبي . وصححه الألباني في صحيح الترمذي [٢٣٣٥] .

= وهذا يدل على أن الحادثة في العام الحادى عشر من البعثة ؛ فإن الأنصار قدموا فى العام الحادى عشر من البعثة حيث جرت بيعة العقبة الأولى ، ثم فى العام الثانى عشر حيث جرت بيعة العقبة الثانية ، ثم كانت الهجرة إلى المدينة .
الاتصال بالأنصار ودعوتهم :

يذكر جابر بن عبد الله الأنصاري : « مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس فى منازلهم بعكاظ ومجنة وفى المواسم بمنى يقول : « من يؤوينى ؟ من ينصرنى حتى أبلغ رسالة ربى وله الجنة ؟ » حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر - كذا قال - فيأتية قومه فيقولون : احذر غلام قريش لا يفتنك ، ويمشى بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع ، حتى بعثنا الله إليه من يثرب فأويناه وصدقناه ، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن ، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه ، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام^(١) . وكانت الاتصالات الأولى بالأنصار فى مواسم الحج والعمرة فقد « قدم سويد ابن الصامت الأنصارى مكة حاجاً أو معتمراً فتصدى له رسول الله ﷺ حين سمع به فدعاه إلى الإسلام فقال له سويد : فلعل الذى معك مثل الذى معى ؟ فقال له رسول الله ﷺ : وما الذى معك ؟ .

قال : مجلة لقمان - يعنى حكمة لقمان . فقال له رسول الله ﷺ : « اعرضها على » ، فعرضها عليه . فقال له : « إن هذا الكلام حسن ، والذى معى أفضل من هذا ؛ قرآن أنزله الله تعالى عليّ ، وهو هدى ونور » ، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن ، ودعاه إلى الإسلام . فلم يبعد منه وقال : =

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد فى المسند [٣٢٢/٣، ٣٣٩، ٣٤٠] واللفظ له ، وابن حبان فى صحيحه [٦٢٧٤] ، والحاكم فى المستدرک [٦٢٤/٢، ٦٢٥] وصحيحه ، ووافقه الذهبى . وذكره ابن حجر فى الفتح [٦٢٧/٧] وقال: وعند أحمد بإسناد حسن وصحيحه الحاكم وابن حبان من حديث جابر ... وذكر الحديث .

.....
= إن هذا القول حسن . ثم انصرف عنه فقدم المدينة على قومه فلم يلبث أن قتله الخزرج ، فإن كان رجال من قومه ليقولون : إنا لنراه قد قتل وهو مسلم وكان قتله يوم بُعث^(١) . وعلى أية حال فلا توجد دلائل على قيام سويد بن الصامت بالدعوة إلى الإسلام وسط قومه .

وقبل يوم بعث ييسير - وهو اليوم الذى جرت فيه وقعة بين الأوس والخزرج انتصر فيها الأوس بعد قتل الكثير من الطرفين وفيهم من أكابرهم ، وذلك قبل الهجرة بخمس سنين - سعى الأوس لمخالفة قريش على الخزرج الذين كانوا أكثر منهم عددًا ، فقدم أبو الحيسر أنس بن نافع فى وفد من بنى عبد الأشهل لهذا الغرض ، فسمع بهم الرسول ﷺ ، فجاءهم ودعاهم إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن . فقال أحدهم - وهو إياس بن معاذ وكان غلامًا حدثًا - : أى قوم ؛ هذا والله خير مما جئتم له . فانتهره أبو الحيسر فصمت ، وقام رسول الله ﷺ عنهم ، ورجعوا إلى المدينة ، وجرت الحرب بين الأوس والخزرج يوم بعث ، ثم مات إياس بن معاذ ، وكان قومه يسمعون بهللى الله تعالى ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات ، فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلمًا ، فقد استشعر الإسلام فى لقائه مع رسول الله ﷺ فى ذلك المجلس^(٢) .

وإذا كان الرجلان من الأوس اللذان استشعرا الإسلام فلم تذكر المصادر قيامهما بالدعوة فى وسط قومهما ، فإن البداية المثمرة للاتصال بالأنصار كانت مع وفد الخزرج فى موسم الحج عند عقبة منى .

(١) انظر السيرة لابن هشام [٤٣، ٤١/٢] ، والبيهقى فى الدلائل [٤١٩/٢] ، وابن كثير فى البداية والنهاية [١٤٧/٣] .

(٢) أخرجه أحمد فى المسند [٤٢٧/٥] ، والطبرانى فى الكبير [٨٠٥/١] ، والحاكم فى المستدرک [١٨١، ١٨/٣] ، وصححه ، قال الذهبى : مرسل . وذكره الهيثمى فى المجمع [٣٩/٦] وقال : رواه أحمد والطبرانى ورجاله ثقات .

.....

= قال لهم رسول الله ﷺ : « من أنتم ؟ » .

قالوا : نفر من الخزرج .

قال : « أمن موالى يهود ؟ » .

قالوا : نعم .

قال : « أفلا تجلسون أكلمكم ؟ » .

قالوا : بلى فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن^(١) .

وذكر ابن إسحاق إسلامهم وقيامهم بالدعوة في المدينة^(٢) ولعل استشعار الأنصار لحاجتهم إلى عقيدة تربط بينهم بعد التمزق والعداوة التي خلفتها وقعة بعاث قبل سنتين فقط من هذا اللقاء ، لعل ذلك كان سبباً هيأه الله تعالى لإسلامهم ، وكذلك فإن مقتل رؤسائهم في بعاث خفف من التزاحم على الزعامة والأنفة من الدخول في الإسلام خوف فقدان السلطان والزعامة ، وكذلك فإن الأنصار كانوا يجاورون يهود ، وهم أهل كتاب ، فكانوا يعرفون قضايا الوحي والنبوة والبعث والجنة والنار فلا شك أن أذهانهم كانت مهيئة لفهم الإسلام أكثر من سواهم .

السيرة النبوية الصحيحة [١/١٩٣-١٩٦] .

(١) ذكره ابن هشام في السيرة [٢/٤٥] ، والبيهقي في الدلائل [٢/٤٣٣، ٤٣٤] ، وابن كثير

في البداية والنهاية [٣/١٤٨، ١٤٩] .

(٢) ذكره ابن هشام في السيرة [٢/٤٧] .

بيعة العقبة الأولى

أثناء عرض النبي ﷺ على قبائل العرب في المواسم لقيه نفر من الخزرج أراد ﷺ بهم خيراً ، فلما طلب منهم رسول الله ﷺ أن يجلسوا ليكلّمهم استجابوا له ﷺ ، فعرض عليهم الإسلام وقرأ عليهم القرآن، وكان هؤلاء نفر يعلمون من اليهود المجاورين لهم في المدينة أن نبياً قد أطلّ زمانه وهو مبعوث الآن، وكان اليهود عليهم لعنة الله يتوعدونهم بأن يقتلوهم قتل عاد وإرم ، فلما أراد الله تعالى إظهار دينه وإعزاز نبيه ﷺ، وإنجاز وعده له جعل هؤلاء نفر يستجيبون لدعوته ﷺ فقال بعضهم : يا قوم تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقكم إليه، فصدقوه. وقبلوا منه ما عرضه عليهم من الإسلام وانقلبوا إلى قومهم يدعونهم ويثرونهم فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم ما كان من أمر رسول الله ﷺ، ودعوهم إلى الإسلام، حتى فشا فيهم ، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقوه بالعقبة وهي العقبة الأولى، فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء ، وذلك قبل أن يفترض عليهم الحرب^(١).

(١) قد جرت بيعة العقبة الأولى في العام التالي على لقاء وفد الخزرج ، حيث حضر اثنا عشر رجلاً ؛ عشرة من الخزرج واثنان من الأوس ، مما يشير إلى أن نشاط وفد الخزرج الذين أسلموا في العام الماضي تركز على وسطهم القبلي بالدرجة الأولى ، لكنهم تمكنوا في نفس الوقت من اجتذاب رجال من الأوس ، وكان ذلك بداية ائتلاف القبيلتين تحت راية الإسلام .

.....
= إن مصدر المعلومات الصحيحة الرئيسى عن بيعة العقبة الأولى هو عبادة بن الصامت الخزرجى - وهو شاهد عيان مشارك بالبيعة - وقد جاءت روايته فى الصحيحين وسيرة ابن إسحاق ، لكنها عند ابن إسحاق أوضح وأكمل ونصها كما يلى : قال عبادة بن الصامت : « كنت فىمن حضر العقبة الأولى ، وكنا اثنى عشر رجلاً ، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء - وذلك قبل أن يفترض علينا الحرب - : على أن لا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ولا نأتى بيهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه فى معروف ، فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء غفر وإن شاء عذب »^(١). والمقصود أنهم بايعوا على وفق بيعة النساء التى نزلت بها الآية : ﴿ يَتَّأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعَنَّكَ ﴾ [المتحنة : ١٢] بعد صلح الحديبية^(٢) ؛ حيث لم يرد فى بيعة العقبة الأولى ذكر القتال .

ومعنى ذلك أن عبادة حدث بهذا النص بعد نزول الآية فشبه بيعة العقبة الأولى ببيعة النساء . ويلاحظ أن نص البيعة يكل معاقبة الجرائم إلى الله تعالى فى الآخرة ؛ لعدم تشريع الحدود الإسلامية مما يؤكد قدم النص وأنه يخص بيعة العقبة الأولى . =

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة [٤٩/٢] .

وعن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال - وحوله عصابة من أصحابه : « تعالوا بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا بيهتان تفترينه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصونى فى معروف . فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فى الدنيا فهو له كفارة ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله إن شاء عاقبه ، وإن شاء عفا عنه ، قال : فبايعناه على ذلك »

أخرجه البخارى [٣٨٩٢] واللفظ له ، ومسلم [٤١/١٧٠٩] .

(٢) ذكر ذلك الحافظ ابن حجر فى الفتح [٩٥/١] .

.....

= ولما أُلجِزت بيعة العقبة الأولى ، وعاد الأنصار إلى المدينة بعث رسول الله معهم مصعب بن عمير ، وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين . فقام بمهمته خير قيام وانتشر على يديه الإسلام ، ورجع إلى مكة قبل بيعة العقبة الثانية^(١) .

السيرة النبوية الصحيحة [١٩٧/١، ١٩٨] .

(١) انظر سيرة ابن هشام [٥٠/٢] ، والبيهقي في الدلائل [٤٣٧/٢] .

بيعة العقبة الثانية

لما انتشر الإسلام في المدينة - خاصة وأن نفراً من أهل مكة قد هاجروا إليها ، وعاشوا في طمأنينة وسلام بين إخوانهم المسلمين الجدد - قال الأنصار إلى متى نترك رسول الله ﷺ ومن معه من إخواننا يكابدون المشقة والأذى فأرسلوا له ﷺ في موسم الحج سبعين رجلاً وتواعدوا شعب العقبة وبايعوه على السمع والطاعة ، وأن يمنعوه مما يمنعون أنفسهم ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكان ممن حضر هذه البيعة مع رسول الله ﷺ عمه العباس بن عبد المطلب ، وكانت هذه البيعة تسمى بيعة الحرب (١) .

(١) لما انتشر الإسلام في المدينة ، واطمأن المسلمون المهاجرون بين إخوانهم الأنصار ، وبقي رسول الله ﷺ في مكة يلاقى عنت قريش وأذاها الذي كان يشتد على مر الأيام ، قدم وفد الأنصار في موسم الحج فبايعوا بيعة العقبة الثانية . قال جابر بن عبد الله الأنصاري : « ثقلنا : حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة ويخاف ، فرحجل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم ، فواعدناه شعب العقبة فاجتمعنا من رجل ورجلين حتى توافينا ، فقلنا : يا رسول الله ، نبايعك .

قال : « تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومة لائم ، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ، ولكم الجنة » .

قال : فقمنا إليه فبايعناه . وأخذ بيده أسعد بن زرارة - وهو من أصغرهم - فقال : رويداً يا أهل يثرب ، فإننا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ﷺ ، وأن إخراجهم اليوم مفارقة العرب كافة ، وقتل خياركم ، وأن تعضكم السيوف . =

.....
= فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك وأجركم على الله ، وإما أنتم تخافون من أنفسكم جبينة ، فبينوا ذلك فهو عذر لكم عند الله .

قالوا : أمت عنا يا أسعد ، فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً ولا نسلبها .

قال : فقمنا إليه فبايعناه ، فأخذ علينا وشرط ، ويعطينا على ذلك الجنة ، وقد نظر العباس في وجوه وفد الأنصار ثم قال : هؤلاء قوم لا أعرفهم ، هؤلاء أحدث مما يدل على غلبة الشباب على الوفد^(١) .

وهكذا بايع الأنصار رسول الله ﷺ على الطاعة والنصرة والحرب ، لذلك سماها عبادة ابن الصامت بيعة الحرب^(٢) .

وتقدم رواية الصحابي كعب بن مالك الأنصاري - وهو أحد المبايعين في العقبة الثانية - تفاصيل مهمة ؛ قال : « خرجنا في حجاج قومنا من المشركين ، وقد صلينا وفقهنا .. ثم خرجنا إلى الحج ، وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق .. وكنا نكتم من معنا من المشركين أمرنا .. فقمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ، نتسلل تسلل القطا مستخفين ، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ، ومعنا امرأتان من نسائنا : نسيبة بنت كعب ، وأسماء بنت عمرو ، =

(١) أخرجه أحمد في المسند [٣٢٢/٣، ٣٢٣] واللفظ له ، والحاكم في المستدرک [٦٢٤/٢] - [٦٢٥] وصححه ، ووافقه الذهبي . وذكره الحافظ ابن حجر في الفتح [٦٢٧/٧] وقال : وعند أحمد بإسناد حسن وصححه الحاكم .. وذكر الحديث .

(٢) عن عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله ﷺ بيعة الحرب ، وكان عبادة من الاثنى عشر الذين بايعوا في العقبة الأولى على بيعة النساء في السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا ، ولا ننازع في الأمر أهله ، وأن نقول بالحق حيثما كنا ، لا نخاف في الله لومة لائم .

أخرجه أحمد في المسند [٣١٦/٥] .

= فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب - وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له - فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب فبين أن الرسول ﷺ في منعة من قومه بني هاشم ولكنه يريد الهجرة إلى المدينة ، ولذلك فإن العباس يريد التأكد من حماية الأنصار له وإلا فليدعوه . فطلب الأنصار أن يتكلم رسول الله ، فيأخذ لنفسه ولربه ما يحب من الشروط . فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ، ثم قال : « أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم » .

فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم والذي بعثك بالحق ، لنمنعك مما تمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أهل الحرب ، وأهل الحلقة ، ورثناها كابراً عن كابر ، فقاطعه أبو الهيثم بن التيهان متسائلاً : يا رسول الله ، إن بيننا وبين القوم حباً وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : « بل الدم بالدم والدم بالهدم ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم » .

ثم قال : « أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيباً ؛ ليكونوا على قومهم بما فيهم فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس » .

وقد طلب الرسول ﷺ منهم الانصراف إلى رحالهم ، وقد سمعوا الشيطان يصرخ منذراً قريشاً ، فقال العباس بن عباد بن نضلة : والله الذي بعثك بالحق ؛ إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسياقتنا .

فقال رسول الله ﷺ : « لم تؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم » .

فرجعوا إلى رحالهم ، وفي الصباح جاءهم جمع من كبار قريش ، يسألونهم عما بلغهم من بيعتهم للنبي ودعوتهم له للهجرة ، فحلف المشركون من الخزرج =

.....

= والأوس بأنهم لم يفعلوا والمسلمون ينظرون إلى بعضهم^(١) .
وهكذا عبرت البيعة بسلام وعاد الأنصار إلى المجينة ينتظرون هجرة النبي ﷺ إليهم
بتلهف كبير .

السيرة النبوية الصحيحة [١٩٨/١-٢٠١] .

(١) أخرجه أحمد في المسند [٤٦١/٣-٤٦٢] واللفظ له ، والطبراني في الكبير [١٧٤/١٩]
وذكره الهيثمي في المجمع [٤٥/٨-٤٨] وقال : رواه أحمد والطبراني بنحوه ، ورجال
أحمد رجال الصحيح ، غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع .
وانظر السيرة لابن هشام [٦٤/٢، ٦٥] ، والبيهقي في الدلائل [٤٤٨/٢] .

من أسباب الهجرة

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ^(١) [الإسراء : ٧٦] يستفز أى يخف ، فهو من الخفة ، مثلما تقول لابنك المتشاغل عن القيام : فر ، أى انهض بسرعة وخفة ^(٢) . والأرض : المقصود بها مكة . والنبي ﷺ كان يحب مكة

(١) قال ابن كثير : قيل : نزلت في كفار قريش ؛ هموا بإخراج رسول الله ﷺ من بين أظهرهم ؛ فتوعدهم الله بهذه الآية ، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسرا ، وكذلك وقع ؛ فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم بعدما اشتد أذاهم له إلا سنة ونصف ، حتى جمعهم الله إياه بيدر على غير ميعاد ، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم ، فقتل أشرافهم وسبى ذراريهم . ولهذا قال تعالى : ﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ [الإسراء : ٧٧] .

وعن قتادة رضى الله عنه فى قوله : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ قال : هم أهل مكة بإخراج النبي ﷺ من مكة وقد فعلوا بعد ذلك ، فأهلكهم الله تعالى يوم بدر ، ولم يلبثوا بعده إلا قليلاً حتى أهلكهم الله يوم بدر ، وكذلك كانت سنة الله تعالى فى الرسل عليهم الصلاة والسلام إذا فعل بهم قومهم مثل ذلك .

ذكره ابن أبى حاتم فى تفسيره [١٣٣٥٧] ، والسيوطى فى الدر المنثور [٣٢٠/٥] .

(٢) قال فى القاموس القويم للقرآن الكريم : فز عن الشيء : أسرع منصرفاً عنه . واستفزه : طارده وأخرجه من مستقره ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أى : يطردونك منها ويخرجونك منها .

وقال تعالى : ﴿ وَأَسْتَفِزُّ مَنِ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ ﴾ [الإسراء : ٦٤] . أى : خووفهم وطاردهم واجعلهم ينصرفون عن الحق .

القاموس القويم [٨١/٨٠/٢] .

ولكن الكافرين بالغوا فى إيدائه ومحاربته حتى يكره الإقامة بها ^(١) ، ويخرج منها ؛ لأنهم يظنون أنه إذا خرج من مكة ستنتهى دعوته؛ لأنهم كانوا يرون أن أنصاره وأتباعه فى مكة ، فإذا تركها خسر الأتباع والمناصرين . ولذلك يطمئن الحق سبحانه رسوله ﷺ أنه حتى لو خرج من مكة فلن يلبثوا بعده إلا قليلاً . فهم يؤذون الرسول ﷺ ليخرج ، ولكن الخروج لا يكون إلا بأمر الله تعالى . فالله سيتركهم حتى يمكروا ويبيتوا لقتل الرسول ﷺ ، ثم يبطل سبحانه مكيدتهم وتآمرهم وينجيه بقدرته وعظمته ﷺ من مكرهم . وذلك لأن الحق سبحانه وتعالى أخبر القوم المعادين لرسول الله ﷺ أنهم لن يظفروا به بأى شكل من الأشكال ، فلن يقدرُوا عليه لا بالمواجهة ولا بالتبیت والمكر . حتى لو استعانوا بالجن فى الكيد للرسول ﷺ أو محاولة النيل منه ، فإن الله تعالى سينجيه .

فكانه سبحانه يقول لهم : لا سبيل لمحاربة هذا الدين ؛ لأنكم لن تستطيعوا أن تغلبوا عليه لا جهاراً ولا تبیثاً ، وحتى لو استعنتم بالجن الأقوى منكم ، فلن تقفوا فى وجه هذه الدعوة ؛ ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٣] . إذن .. قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ فالمراد هنا وإن كادوا ليجعلونك تخف

(١) عن عبد الله بن عدى بن حمراء الزهرى قال : رأيت رسول الله ﷺ واقفاً على الحزوة فقال : « والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت » . أخرجه أحمد فى المسند [٣٠٥/٤] ، والترمذى [٣٩٢٥] ، وقال : حديث حسن غريب ، وابن ماجه [٣١٠٨] ، والحاكم فى المستدرک [٤٣١/٣] ، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٣٠٨٢] .

إلى الخروج من مكة ليخرجوك منها . ولو حدث ذلك فلن يلبثوا خلافاً
إلا قليلاً^(١) . وصدق الحق سبحانه فيما أخبر به رسوله ﷺ ، فبعد عام من
الهجرة حدثت موقعة بدر وانتصر المسلمون انتصاراً كبيراً ، وقتلوا سبعين من

(١) قال مجاهد وقتادة والحسن : نزلت هذه الآية في هم أهل مكة بإخراجه ﷺ من
أم القرى ، ولو أخرجوه منها لما أمهلوا ، ولكن الله أمره بالخروج فخرج .
والمعنى : قارب أهل مكة أن يزعمجوك بعداوتهم وشدة إيدائهم ؛ ليخرجوك من
الأرض الطيبة أرض مكة قبل أن يأذن الله لك بالهجرة .
ولو حققوا ما همّوا به بإكراهك على الخروج ؛ لم يبقوا بعد إكراهك عليه إلا
زماً قليلاً ، يستأصلون ويهلكون جميعاً بعده .

والواقع أنه ﷺ لم يخرج من مكة بإكراه قريش له - وإن كانوا قد خموا به - بل
كان خروجه بأمر ربه حين أذن له في الهجرة ؛ حفاظاً على الدعوة وتمكيناً لها من
المضى في طريقها لأداء مهمتها السامية في جو من الأمن والاستقرار ، وليسلم
منهم ومن أعقابهم من يسلم ، فأذن لرسوله بالهجرة ، فخرج بإذنه لا بإخراج
قريش وفهرهم .

وأُسند الإخراج إليهم في قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيِكَ الَّتِي
أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ [محمد : ١٣] .

وفي قوله ﷺ : « أو مخرجي هم »^(١) ، وفي قول ورقة بن نوفل : ليتني كنت
جذعاً إذ يخرجك قومك . أُسند الإخراج إليهم لهمهم به ومزاولة مقدماته
باستفزازهم له ولأصحابه .

[تفسير الوسيط] .

(١) أخرجه البخاري [٣] من حديث عائشة أم المؤمنين ، رضى الله تعالى عنها ، حيث جاء
فيه : فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزل الله على موسى ، يا ليتني فيها جذعاً ، ليتني
أكون حيّاً إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ : « أو مخرجي هم ؟ » .
قال : نعم ... الحديث .

صناديد قريش ، وأسروا سبعين آخرين . فلم يتمتع المشركون بمكة بعد خروج الرسول وأصحابه منها . لم يتمتعوا بالأرض ولا بالنعيم ولا بالسيادة التي كانوا فيها .

وقوله تعالى : ﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٧] أى لماذا لم يعتبر هؤلاء القوم بما حدث للأمم السابقة الذين كذبوا رسل الله وأذوهم ، فكانت عاقبتهم البوار والخس . ران . والسنة هي العادة التي لا تتغير . وسنة الله لا يستطيع أن يحولها أحد^(١) .

(١) قوله تعالى : ﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾ أى سننا سنة فى أم المرسلين قبلك ، وهى أن تعذب كل أمة كفرت برسولها وأذته ، وجعلته يخرج من بين أظهرها ، وذلك بإهلاكها بحيث لا تلبث بعده إلا قليلاً حتى يحيق بها الدمار والنكال ، ولولا أنه ﷺ رسول الرحمة لجاء قومه والذين كفروا به بعذاب من عند الله لا قبل لهم به فى الدنيا ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٣] . وإسناد السنة إلى الرسل مع أنها لله جل شأنه ؛ لأنها سُنت لأجلهم .

وقوله : ﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ أى : لا تخلف فى وعدها ، ولا تغيير فى وقتها ونوعها .

[التفسير الوسيط] .

المؤامرة على رسول الله ﷺ

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾ ^(١) [الأنفال : ٣٠] .
 إن هذه الآية حيثية لقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [البقرة : ١٠٥] ؛ ولذلك إياكم أن تلتفتوا إلى ما تعطيه الخيانة لكم من مغنم الدنيا ؛ لأن الله عنده المغنم العظيمة في الدنيا والآخرة . وعندما أراد الحق سبحانه وتعالى أن ينبه الصحابة والمسلمين إلى ذلك قال : ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَعَاوَنَكُمْ وَأَيْدَكُمْ يَنْصَرِهِمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ^(٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا

(١) عن ابن عباس : في قوله : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ ﴾ قال : تشاورت قريش ليلة بمكة ، فقال بعضهم : إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق ، يريدون النبي ﷺ ، وقال بعضهم : بل اقتلوه ، وقال بعضهم : بل أخرجوه ، فأطلع الله عز وجل نبيه على ذلك ، فبات على فراش النبي ﷺ تلك الليلة ، وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون عليا ، يحسبونه النبي ﷺ ، فلما أصبحوا ثاروا إليه فلما رأوا عليا رد الله مكرهم ، فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ قال : لا أدري ، فاقتصوا أثره ، فلما بلغوا الجبل خلط عليهم ، فصعدوا في الجبل ، فمروا بالغار ، فرأوا على بابه نسج العنكبوت ، فقالوا : لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه ، فمكث فيه ثلاث ليال . أخرجه أحمد في المسند [٣٤٨/١] ، وقال الشيخ شاكر [٣٢١٥] : في إسناده نظر من أجل عثمان الجزري . وأخرجه الطبراني في الكبير [١٢١٥٥/١١] ، وقال الهيثمي في المجمع [٣٠/٧] : رواه أحمد والطبراني ، وفيه عثمان الجزري وثقه ابن حبان وضعفه غيره وبقية رجاله رجال الصحيح .

تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾ ﴿١﴾ [الأنفال] ، أما بالنسبة لرسول الله ﷺ فلم يقل : اذكر . لماذا ؟ لأن رسول الله ﷺ هو الذى يُذكرُ الناس بفضل الله عليهم ، فلا يعقل أن يكون هو المذكر ، ويُطلب منه أن يُذكر ، وفى نفس الوقت فإن حياة رسول الله ﷺ كلها حياة إيمانية ليس فيها شيء دنيوى يشغل الرسول ﷺ ويجعله ينسى ، أما نحن فإن الدنيا قد تشغلنا فننسى ، فلذلك لا بد أن يُذكرنا الله ورسوله .

(١) قال ابن كثير : ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم ، وإحسانه إليهم . حيث كانوا قليلين فكثرتهم . ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم ، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات واستشكرهم ، فأطاعوه وامثلوا جميع ما أمرهم ، وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قليلين مستخفين مضطهدين ، يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله من مشرك ، ومجوسى ، ورومى ، كلهم أعداء لهم لقلتهم وعدم قوتهم ، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن الله لهم فى الهجرة إلى المدينة ، فأواهم إليها وقبض لهم أهلها آووا ونصروا يوم بدر وغيره ، وواسوا بأموالهم ، وبذلوا مهجهم فى طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ .

قال قتادة بن دعامة السدوسى رحمه الله فى قوله تعالى ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ قال : كان هذا الحى من العرب أذل الناس ذلاً . وأشقاء عيشاً . وأجوعه بطوناً ، وأعراة جلوداً وأبينه ضللاً ، من عاش منهم عاش شقياً ومن مات منهم ردى فى النار ، يؤكلون ولا يأكلون والله ما نعلم قبلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلاً منهم حتى جاء الله بالإسلام ، فمكن به فى البلاد ووسع به فى الرزق ، وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس ، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتهم فاشكروا الله على نعمه ، فإن ربكم منعم يحب الشكر . وأهل الشكر فى مزيد من الله .

تفسير ابن كثير [٢٨٧/٢ ، ٢٨٨] .

إن المكر له وسائل وغايات ، وسيلته هي التدبير بخفاء ، وغايته هي إيذاء إنسان قوى لا تقدر على مواجهته مواجهة مباشرة ، فتحتال على هذه المواجهة حتى تتمكن منه وهو غير متنبه لك .

ولكن لماذا مكر الكفار ؟ الله سبحانه وتعالى ذكر لنا ثلاثة أشياء :

الأول : يمكرون ليشتوك .

الثاني : ويمكرون ليقتلوك .

الثالث : ويمكرون ليخرجوك .

وقد ذكر الله هذه الأسباب الثلاثة ؛ لأنها هي التي اقترحت في الاجتماع الذي عقده كفار قريش ، وتشاوروا فيما يفعلون برسول الله ﷺ . فقد علموا أن أهل المدينة من الأوس والخزرج بايعوا رسول الله ﷺ ، وأنه مهاجر إليهم ، وقد أفزعهم هذا ؛ لأن هجرة محمد عليه الصلاة والسلام ستزيده قوة ومنعة . وإذا كان - وهو في مكة - قد أصبح له أتباع ، وفي كل يوم يزداد عدد المسلمين بالرغم من العذاب الشديد الذي يلاقونه والذي وصل في حدته وشدة إلى القتل ، فكيف إذا هاجر إلى المدينة وآمن الأوس والخزرج ؟ بالطبع ستزداد قوتهم ويهددون قريشاً وزعامتها بالجزيرة العربية ، ولذلك اجتمعوا في دار الندوة ؛ ليقرروا كيف يتخلصون من محمد ﷺ .

وبينما هم مجتمعون دخل عليهم إبليس في زى أعرابي من نجد وسمع لقولهم : نشبهه . فما معنى نشبهه ؟ التشبث ضد الحركة ، فالسكون ثبات ، والحركة ضد الثبات .

إذن .. فهم يريدون أن يقيدوا حركة رسول الله ﷺ ؛ لأن حركته تخوفهم . فعندما كان رسول الله ﷺ في مكة بدون حركة إيمانية ، لم يكن في وجوده أى خوف أو تهديد للكفار ، بل كانوا يأتمنونه على أموالهم ويلقبونه بالصادق

الأمين . ولكن تحرك رسول الله ﷺ لنشر منهج الله هو الذى خوفهم .
ولذلك فلا بد أن تمنع حركته بأن يقيدوه فى مكان أو يحددوا حركته
بالسجن . ولكن هذا رأى لم يوافق عليه المجتمعون ؛ لأنهم إن قيدوه أو سجنوه
سيأتى المؤمنون ليفكوا عنه القيد ، أو يخرجوه من السجن ، فكأنهم لم يفعلوا
شيئاً . وحينئذ قام آخر وقال : نخرجه من مكة فيذهب لحال سبيله ، فيتعد عنا
فلا نقاسى منه ومن دعوته ، ولكنهم رفضوا هذا رأى أيضاً ؛ لأنهم إن
أخرجوه سيؤثر فيمن يخرج إليه تأثيراً ، الأمر الذى يجعل له أتباعاً كثيرين .
واستقر رأى فى النهاية على أن يقتلوه .. ولكن ما هى الوسيلة ؟ إن قتله
واحد من رجال قريش قام أهل رسول الله ﷺ للثأر وحدثت حروب لا يعلم
أحد متى تنتهى . فاقترح إبليس عليهم أن يأخذوا من كل قبيلة فتى من أقوى
وأبرع فتيانها فى القتال . ويذهبوا إلى بيت رسول الله ﷺ ، ويدخلوا عليه
وهو راقد فى فراشه فيضربوه ضربة رجل واحد ، وبذا يتفرق دمه بين القبائل .
وحينئذ لا تستطيع قبيلة رسول الله ﷺ أن تواجه كل القبائل ، فترضى بالدية
وتنتهى المسألة .

إذن .. فقد كان هناك ثلاثة اقتراحات ، إما التثبيت وهو التقييد أو السجن ،
وإما الإخراج أى يخرجونه من مكة ويمنعونه من دخولها ، أو يقتلونه ويتفرق
دمه بين القبائل . كان هذا هو مكرهم . ولكن الله تعالى كان بهم محيطاً ،
وأعد لهم ما لم يستطيعوا اكتشافه ، فمهما مكر الكفار فالله تعالى أعلم
بمكرهم ، وأعد لرسوله ﷺ طريق النجاة الذى لن يصلوا إليه فيه . ولذلك
فإن مكرهم لن يحقق شيئاً بل على العكس ، سيخيب أثره ويفشل .

وقد حدث فعلاً وخرج رسول الله ﷺ من بيته ، بينما ألقى الله النوم على
فتيان قريش الواقفين بسيوفهم على باب دار الرسول عليه الصلاة والسلام ،

وخرج رسول الله ، وأمسك حفنة من الرمال ورماها في وجوه فتيان قريش ، وقال : « شأهت الوجوه »^(١) ، وانطلق رسول الله ﷺ في رحلته إلى المدينة ، وحفظته عناية الله حتى وصل إلى المدينة المنورة . وهكذا كان فضل الله بأن حفظ رسول الله من مكر الكفار .

(١) عن ابن عباس قال : إن الملاء من قريش اجتمعوا في الحجر ، فتعاقدوا باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ونائلة وإساف : لو قد رأينا محمداً لقد قمنا إليه قيام رجل واحد فلم نفارقه حتى نقتله ، فأقبلت ابنته فاطمة تبكي ، حتى دخلت على رسول الله ﷺ فقالت : هؤلاء الملاء من قريش قد تعاقدوا عليك ، لو قد رأوك لقد قاموا إليك فقتلوك ، فليس منهم رجل إلا قد عرف نصيبه من دمك ، فقال : « يا بنية ، أريني وضوءاً » فتوضأ ، ثم دخل عليهم المسجد ، فلما رأوه قالوا : ها هو ذا ، وخفضوا أبصارهم ، وسقطت أذقانهم في صدورهم ، وعقروا في مجالسهم ، فلم يرفعوا إليه بصراً ، ولم يقم إليه منهم رجل ، فأقبل رسول الله ﷺ حتى قام على رؤوسهم ، فأخذ قبضة من التراب ، فقال : « شأهت الوجوه » ، ثم حصبهم بها ، فما أصاب رجلاً منهم من ذلك الحصى حصاة إلا قتل يوم بدر كافراً . أخرجه أحمد في المسند [٣٦٨، ٣٠٣/١] ، وصححه الشيخ شاكراً برقم [٢٨٦٢، ٣٤٨٥] ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه [٦٥٠٢] ، وصححه الأرنؤوط .

وقال ابن إسحاق : ولما رأأت قريش أن رسول الله ﷺ قد كانت له شيعه وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة ، فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم ، فاجتمعوا له في دار الندوة « وهى دار قصى بن كلاب التى كانت قريش لا تقضى أمراً إلا فيها » يتشاورون ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه .

قال ابن إسحاق : فحدثنى من لا أتهم من أصحابنا ، عن عبد الله بن أبى نجيح ، عن مجاهد بن جبر أبى الحجاج وغيره ممن لا أتهم ، عن عبد الله بن عباس =

= رضى الله تعالى عنهما ، قال لما أجمعوا غ لذلك واتعدوا أن يدخلوا في دار الندوة ليتشاوروا فيها في أمر رسول الله ﷺ غدوا في اليوم الذي اتعدوا له ، وكان ذلك اليوم يسمى يوم الرحمة ، فاعترضهم إبليس - لعنه الله - في هيئة شيخ جليل عليه بت^(١) له ، فوقف على باب الدار ، فلما رأوه واقفاً على بابها قالوا : من الشيخ ؟ قال : شيخ من أهل نجد ، سمع بالذي اتعدتم له فحضر معكم لسمع ما تقولون ، وعسى أن لا يعدمكم منه رأياً ونصيحا ، قال : أجل ، فادخل ، فدخل معهم - لعنه الله - وقد اجتمع فيها أشرف قريش : من بنى عبد شمس : عتبة بن ربيعة ، وشيبة ابن ربيعة وأبو سفيان بن حرب ، ومن بنى نوفل بن عبد مناف : طعيمة بن عدي ، وجبير بن مطعم ، والحارث بن عامر بن نوفل ، ومن بنى عبد الدار بن قصي : النضر بن الحارث بن كلدة ، ومن بنى أسد ابن عبد العزى : أبو البختري بن هشام ، وزمعة بن الأسود بن المطلب ، وحكيم ابن حزام ، ومن بنى مخزوم : أبو جهل ابن هشام ، ومن بنى سهم : نبيه ومنبه ابنا الحجاج ، ومن بنى جمح : أمية ابن خلف ، ومن كان معهم ، وغيرهم ممن لا يعد من قريش .

فقال بعضهم لبعض : إن هذا الرجل قد كان منأمره ما قد رأيتم ، فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرها فأجمعوا فيه رأياً ، قال : فتشاوروا ثم قال قائل منهم : احبسوه في الحديد ، وأغلقوا عليه باباً ، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله زهيراً والنابعة ومن مضى منهم من هذا الموت ، حتى يصيبه ما أصابهم ، فقال الشيخ النجدي : لا والله ما هذا لكم برأى ، والله لئن جبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه فلاوشكوا أن يشبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم ، ما هذا لكم برأى ، فانظروا في غيره فتشاوروا عليه ، ثم قال قائل منهم : نخرجه من بين أظهرنا فنتفيعهم بلادنا ، فإذا أخرج عنا فوالله =

(١) البت : كساء غليظ من صوف أو وبر .

= ما نبالى أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه ، فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت .

قال الشيخ النجدي : لا والله ما هذا لكم برأى ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به !!؟ والله « لئن » فعلتم ذلك ما أمنتهم أن يحل على حى من الغرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم فى بلادكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد ، دبروا فيه رأيا غير هذا ، قال : فقال أبو جهل بن هشام : والله إن لى فيه لرأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد . وقالوا : وما هو يا أبا الحكم : قال : ألقى أن نأخذ من كل قبيلة شابا فتى جليدا ^(١) نسيئا ومسيطا فينا ، ثم نعطي كل فتى منهم سيفا صارما ^(٢) ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فرضوا منا بالعقل ^(٣) فعقلناه لهم ، قال : يقول الشيخ النجدي : القول ما قال الرجل ، هذا الرأى ، لا رأى غيره ، فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له .

السيرة لابن هشام [١٠٠/٢-١٠٢] .

(١) جليدا : قويا شديدا .

(٢) صارما : قاطعا .

(٣) العقل : الدية ، وهى المال الذى يعطى لولئ القتيل .

ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله

يقول تعالى : ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل : ٢٦] . والمكر هو التبييت الدقيق الخفى الذى يصنعه الماكر ليعمى على الممكور به^(١) ، وهذه ظاهرة لا تدل على القوة ، ولكنها تدل على الضعف ؛ لأن الشجاع لا يكر ، ولكنه يواجه ، ولكن الذى يكر هو من يعجز عن المواجهة مثل الذى يكيد ويرتب أموراً ينفذ بها كيده ، هذا أيضاً دليل على الضعف والخوف .

ولذلك يقال: المرأة أقوى من الرجل ؛ لأن الله قال عنها : ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف : ٢٨] ، وكيدهن عظيم لأن ضعفهن أعظم ، ولا يكيد إلا الضعيف . لكن لو أخطأ واحد فى حق إنسان قوى فإنه قادر على أن ينتقم منه ، ولكنه يتركه من أجل الله ، ويقول له: هذه المرة سامحتك لكن لا تفعلها مرة أخرى ، فهذا قوى لأنه لا يخشى المرة القادمة ، أما الآخر الذى لا يقدر على المرة الثانية ، فإنه ينتهز فرصة أول مرة ويضرب ضربته ؛ لأنه

(١) قال صاحب القاموس القويم للقرآن الكريم : مكر - من باب نصر - يكر مكرًا : دبر الشر لغيره فى خفية واحتيال ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِيْءَايَانَا ﴾ [يونس : ٢١] . أى تدبير سيئ بقصد صرفها عن وجهها وصد الناس عنها .

وإذا أسند المكر إلى الله سبحانه ، فمعناه إبطال مكر الماكرين وإيقاع العقوبة بهم من حيث لا يشعرون ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَكْرُوهَا وَمَكْرُ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَمَكْرُوهَا وَمَكْرُنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل : ٥٠] .
القاموس القويم [٢/٢٣١، ٢٣٢] .

لا يقدر على غيرها . قال الشاعر:

وضعيفة فإذا أصابت فرصة قتلت كذلك قدرة الضعفاء

إذن .. فالمكر تبیت خفى بيته الماكر بما يستر عن الممكور به . لكن أنت حين تمكر ، فإنك تمكر بواحد مثلك ليس له مدد من جهة ثانية أعلى منك : إنما الرسل حين تمكر بهم - وهم مؤيدون من عند الله تعالى - فإذا مكرت بهم فمكرك مكشوف ومعروف لهم . وإذا عرف المكر فلا مكر . وعرفه من يقدر على إبطاله وهو الله سبحانه . فقد يعرف الإنسان مكراً ولكن لا يستطيع إبطاله ، والله تعالى يحمي رسله وأنبياءه وينصرهم حتى يستطيعوا أن يبلغوا رسالات الله إلى البشرية ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر : ٥١] ولذلك : لعظمة النبي ﷺ وعظمة منهجه ، أراه الله كل هذه الأشياء ، فحاربه الكفار مواجهة باللسان فاتهموه بالجنون والكذب والسحر والكهانة ، وحاربوه مواجهة بالإيذاء ، وحاربوه تبيتاً ومكراً ، وقد حدث هذا في ليلة الهجرة ، فمكروا وخططوا وجاءوا بأقوى وأشجع شبابهم وانتظروا أمام بيت النبي ﷺ حتى يحين وقت تنفيذ الجريمة .

ولكن الله أراد أن يثبت لهم أنهم مغفلون ، وأن مكرهم مكشوف ومفضوح وأن الله سيحمي نبيه من مكرهم ويحفظه من كيدهم ، فأخرجه أمامهم دون أن يروه^(١) ، فكأنه سبحانه يطمئنه يخبره ويقول له: لن يُنص. روا

(١) قال ابن كثير : قد أورد أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ سؤالاً فقال : قد علم أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قتله قومه بالكلية ، كيحیی ، وزكريا ، وشعيا ، =

عليك بأى وسيلة لا باعتداءات اللس. ان ولا باعتداءات الجوارح ، ولا بالمجاهرة ولا بالتبويت ، ولا حتى بالاستنصار بالجن ، فلن يضروك بشيء . وهذه مسألة وضحت مع جميع الرسل ، فهذه تسلية لرسول الله ﷺ ، وحتى يعلم أن الله ناصره ومؤيده ولن يسلمه أبداً لأعدائه .

= ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجراً كإبراهيم ، وإما إلى السماء كعيسى ، فأين النصرة فى الدنيا ؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين :

أحدهما : أن يكون الخبر خرج عامّاً ، والمراد به البعض . قال : وهذا سائغ فى اللغة .
الثانى : أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم من آذاهم^(١) ، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو فى غيبتهم أو بعد موتهم ، كما فعل بقتلة يحيى وزكريا وشعيا ، سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم ، وقد ذكر أن النمرود أخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر ، وأما الذين راموا صلب المسيح عليه السلام من اليهود فسلط الله عليهم الروم فأهانوهم وأذلّوهم وأظهرهم الله تعالى عليهم ، ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام إماماً عادلاً وحماً مقسطاً فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود ، ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام . وهذه نصرة عظيمة ، وهذه سنة الله تعالى فى خلقه فى قديم الدهر وحديثه أنه ينصر عباده المؤمنين فى الدنيا ويقر أعينهم من آذاهم .

ففى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قال : « يقول الله تبارك وتعالى : من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالحرب »^(٢) . ولهذا أهلك الله عز وجل قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وأصحاب =

(١) انظر تفسير الطبرى [٧٤/٢٤] .

(٢) جزء من حديث أخرجه البخارى [٦٥٠٢] بلفظ : « إن الله قال : من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب » .

.....
= الرس ، وقوم لوط ، وأهل مدين ، وأشباهم وأضرابهم ممن كذب الرسل وخالف الحق ، وأنجى الله تعالى من بينهم المؤمنين ، فلم يهلك منهم أحداً وعذب الكافرين ، فلم يقلت منهم أحداً .

وقال السدى : لم يبعث الله عز وجل رسولا قط إلى قوم فيقتلونه ، أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون ، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم ، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم فى الدنيا ، قال : فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون فى الدنيا وهم منصورون فيها ، وهكذا نصر الله نبيه محمداً ﷺ وأصحابه على من خالفه وتناوأه وكذبه وعاداه ، فجعل كلمته هى العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان ، وأمره بالهدجرة من بين ظهرائى قومه إلى المدينة النبوية ، وجعل له فيها أنصاراً وأعواناً ، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم وخذلهم وقتل صناديدهم ، وأسر سرائهم فاستاقهم مقرنين فى الأصفاد ، ثم من عليهم بأخذه الفداء منهم ، ثم بعد مدة قرية فتح عليه مكة فقرت عينه ببلده ، وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم ، فأنقذه الله تعالى به مما كان فيه من الكفر والشرك ، وفتح له اليمن ودانت له جزيرة العرب بكمالها ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، ثم قبضه الله تعالى إليه ؛ لما له عنده من الكرامة العظيمة ، فأقام الله تبارك وتعالى أصحابه خلفاء بعده ، فبلغوا عنه دين الله عز وجل ودعوا عباد الله تعالى إلى الله جل وعلا ، وفتحوا البلاد والرساتيق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب حتى انتشرت الدعوة المحمدية فى مشارق الأرض ومغاربها . ثم لا يزال هذا الدين قائماً منصوراً ظاهراً إلى قيام الساعة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ أى : يوم القيامة تكون النصره أعظم وأكبر وأجل ، قال مجاهد : الأشهاد الملائكة .

تفسير ابن كثير [٨٥/٤، ٨٦] .

فَاللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَوْضَحَ لِرَسُولِهِ ﷺ مَا حَدَّثَ لِلرَّسْلِ وَكَيْفَ أَنَّ اللَّهَ
نَصَرَهُمْ وَلَمْ يَخْذِلْهُمْ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾
وَقَالَ أَيْضاً : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١) ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴾
وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (١) [الصافات] فلا تخف يا محمد من مكرهم
وتبئيتهم لك بالشر؛ لأننا أقوى منهم ونعلم مكرهم ونبطله وسنجازيهم عليه .
وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ
بُتَيْنَهُمْ مِّنَ الْفَوَاحِشِ ﴾ [النحل : ٢٦] كأن هذا المكر جعلوه بناء ، هنا نقل
الشيء المعنوي إلى شيء مادي . فكأن الكفار قد جعلوا المكر حصناً يحتمون
به ويتحصنون فيه . فالله سبحانه لم يهدم هذا الحصن من أعلى ، ولكنه هدمه
من أسفل فانطبق سقفه على مَنْ فيه . لذلك قال تعالى : ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ
السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل : ٢٦]
أى سقط عليهم سقف هذا الحصن وهم بداخله؛ لأن البناء لو سقط وهم
ليسوا بداخله كانت الخسارة خسارة مملوك فقط ، ولكن أن يقع عليهم وهم
بداخله فهذه خسارة مملوك ومالك ، وكل هذا تشبيه لمكر الكفار بالدعوة
وصاحبها ﷺ في عهده وعهد مَنْ سبقه من الرسل . وقوله : ﴿ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾
يدل على أن المكر الذى بنوه ورتبوه وخططوا له سقط على رؤوسهم ؛ لأن

(١) قال أبو الحسن النيسابورى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ أى : تقدم
الوعد بأن الله ينصرهم بالحجة والظفر بعدوهم ، قال مقاتل : عنى بالكلمة : قوله :
﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ فهذه الكلمة التى سبقت ﴿ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ
الْغَالِبُونَ ﴾ حزب الله لهم الغلبة بالحجة والنصرة فى العاقبة ؛ لأنهم ينجون من
عذاب الدنيا والآخرة .

الوسيط فى تفسير القرآن [٥٣٥/٣٠] .

المكر السيئ لا يحقق إلا بأهله (١) . فقد تجد إنساناً عنده ولد يريد أن يزوجه . فبدلاً من أن يبحث له عن ذات الدين ، تجده يختار له بنت فلان القوى الذى عنده أولاد أقوياء؛ لكى يحموه هو وابنه ويعيش فى حمايتهم وكنفهم ، فإذا حدث أى خلاف تجد هؤلاء الذين اختارهم وفضلهم لقوتهم وفتوتهم انقلبوا عليه ؛ لأنه مكر مكرأ سيئاً ، ولم يهتم بجانب الدين والتربية والخلق .

وقوله تعالى : ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يفيد أن الحادث وقع فجأة وبغته لهم ؛ لأن البغته تشل الحركة ، وتوقف التفكير ؛ ولذلك كان العرب يشنون حروبهم فى الصباح ؛ لأن العدو يكون غير مستعد ؛ لأنه يكون خاملاً من النوم وليس عنده استعداد للحرب .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ، لا يشعرون لماذا ؟ لأنهم مكروا وبيتوا وهم يفهمون أن هذا المكر سيخفى علينا ، فحين يأتيهم العذاب يأخذهم بغتة وعلى غرة دون أن يتوقعوه . فيأتيهم من تحتهم ومن فوقهم ومن حيث لا يشعرون (٢) . ليس هذا فقط ، بل إن لهم عذاباً فى الآخرة .

(١) إشارة إلى قول الله تعالى : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر : ٤٣] .

(٢) يقول فى التفسير الوسيط : والمعنى : قد تأمر الذين من قبل قريش على رسلهم ، فدبروا لهم المكاييد ، ليهلكوهم أو ليقضوا على الحق الإلهى الذى جاعوا به أممهم ، فأحبط الله كيدهم ، وسقط عليهم بنیان المؤامرة التى دبروها ، دون أن ينال الرسل منها كريمة .

وشبهت حال الماكرين برسلهم فى تدبير مكايدهم التى أرادوا بها الإيقاع برسل الله وفى إبطال الله تعالى تلك الحيل والمكاييد ، وجعلها أسباباً لهلاكهم ، بحال قوم =

فَاللَّهُ سَبْحَانَهُ حِينَ هَدَدَ الْكَفَّارَ وَتَوَعَّدَهُمْ بِعَذَابِ الْآخِرَةِ لَمْ يَتْرَكْهُمْ فِي الدُّنْيَا بِدُونِ عِقَابٍ ، وَلَكِنَّهُ يَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الدُّنْيَوِيَّ أحيانًا حَتَّى يَكُونُوا عِبْرَةً لِّغَيْرِهِمْ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الطور : ٤٧] . وَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ دُونَ ذَلِكَ ﴾ أَيْ : أَقْرَبَ مِنَ الْآخِرَةِ يَقَعُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ . هُنَا الْعَكْسُ ، هَذَا عَذَابٌ فِي الدُّنْيَا ؛ لِأَنَّ الْعَذَابَ أَتَاهُمْ مِنْ تَحْتِهِمْ ، وَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ وَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ .

وَبَعْدَ ذَلِكَ تَقُولُ الْآيَاتُ : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَفِّقُونَ فِيهِمْ ﴾ [النحل : ٢٧] وَالْخِزْيُ هُوَ الْهَوَانُ وَالْمَذَلَّةُ ، وَهُوَ لِلْمُسْتَكْبِرِينَ أَقْوَى مِنَ الْعَذَابِ وَالْإِيلَامِ ؛ لِأَنَّ الضَّرْبَ يُمْكِنُ أَنْ يَتَجَلَدَ فِيهِ ، وَيَتَحَمَّلَ . كَمَا قِيلَ :

وتجلدى للشامتين أريهمو أنى لرب الدهر لا أتضعضع

فَقَدْ يَصْبِرُ الْإِنْسَانُ عَلَى الضَّرْبِ وَيَكْتُمُ أَلَمَهُ ، وَلَكِنْ الْخِزْيُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكْتُمَهُ ؛ لِأَنَّ الْخِزْيَ قَشْعِرِيرَةٌ تَغْشَى الْبَدْنَ وَتَعْلُو الْوُجُوهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْلِتَ مِنْهَا ، إِنَّمَا الْآلَامُ الْجَسَدِيَّةُ يُمْكِنُ أَنْ يَكْتُمَهَا . وَلَكِنْ الْخِزْيُ أَلَمُ نَفْسِي وَالْآلَامُ النَّفْسِيَّةُ تَنْضَحُ عَلَى الْبَشَرَةِ مَهْمَا حَاوَلَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَكْتُمَهَا . فَأَنْتَ تَرَى

= بَنَوْا بَيَانًا ﴿ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أَيْ : أَتَاهُمُ الْهَلَاكُ وَالْدَّمَارُ مِنْ جِهَةِ بَيَانِهِمُ الَّذِي أَقَامُوهُ ضِدَّ الرُّسُلِ ، وَقَدْ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّهُ مُحْكَمٌ بِحَيْثُ لَا يَأْتِيهِمْ مِنْ جِهَتِهِ مَا يُؤْذِيهِمْ ، فَخَيَّبَ اللَّهُ ظَنَّهُمْ وَجَعَلَهُ سَبَبَ هَلَاكِهِمْ فِي دُنْيَاهُمْ . وَكَذَلِكَ أَنْتُمْ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ، أَحْكَمْتُمْ أَمْرَكُمْ ضِدَّ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ، وَقَلْتُمْ فِيهِ مَا قَلْتُمْ ، وَمِنْ جَمَلَتِهِ أَنَّهُ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ، فَسَيَأْتِيكُمْ الْعَذَابُ فِي الدُّنْيَا مِنْ حَيْثُ لَا تَحْتَسِبُونَ كَمَا فَعَلَ اللَّهُ بِمَنْ قَبْلَكُمْ ، إِنْ ظَلَلْتُمْ عَلَى كُفْرِكُمْ .

الإنسان تعرفه من شكله إن كان حزينًا أو سعيدًا ، فالخزى يقتل خميرة الاستكبار فى البدن .

ولذلك يضرب الحق سبحانه وتعالى لنا المثل يقول : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : ١١٢] التذوق دائمًا يكون فى اللسان ، فأنت تتذوق أى شيء فى فمك ، وبعد أن يمر إلى بطنك ينتهى التذوق . ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا أن الجوع أصبح لباسًا يلبسه الجسم ، فيشعر به الجسم كله ويحس بألمه ؛ لأنه يريد أن يعطى الصورة قوة ويعمم الألم على الجسم . فساعة يحدث الإذلال للمتكبرين ، فهذا أصعب عذاب لهم ، وخاصة أمام الذين كانوا يتبعونهم ويعظمونهم . ثم يأتى التحدى فى قوله سبحانه : ﴿ أَتِنَ شُرَكَاءَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ﴾ [النحل : ٢٧] أين الذين جعلتموهم شركاء لي ؟ لماذا لم يأتوا لنصرتكم فى هذا الموقف ؟! فى هذا اليوم يعترف الكفار على أنفسهم بعد أن تخلى عنهم شركاؤهم ؛ فيقولون : ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴾ ﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء] . إذن . . أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم ؟ لماذا تخلوا عنكم ؟ ومعنى ﴿ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ﴾ : من الشق ، والشق صدع بين شيئين ، مثل أن تشق جدارًا أو لوح زجاج أو غير ذلك .

فمعنى : ﴿ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ﴾ أى : جعلتموهم شقًا وجعلتم المؤمنين ومن معهم شقًا ، فكأنهم جعلوهم خصمين ، فتشاقون أى تقسمون المسألة ، فأنتم فى جانب الباطل وغيركم فى جانب الحق ، فأنتم تشاقون بسببهم ، فأين هم الآن ؟ لماذا لم يأتوا لينصروكم ^(١) ؟

(١) ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَتُنَ شُرَكَاءَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ﴾ [النحل : ٢٧] أى ثم يوم قيام الناس من قبورهم لحساب ربهم يذل الله المشركين بعذاب الخزى =

= على رءوس الأشهاد ، ويقول لهم تفضيخًا وتوبيخًا : أين شركائى فى الألوهية الذين كنتم تخاصمون الأنبياء والمؤمنين فى شأنهم ، فاستحضروهم ليشفعوا لكم أو لينقذوكم إن كنتم صادقين فى مزاعمكم نحوهم ، وهيهات أن يجدوهم شافعين أو منقذين ؛ بل لائمين مكذبين .

[التفسير الوسيط] .

وقال العلامة الشنقيطى رحمه الله تعالى :
ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة : أنه يسأل المشركين يوم القيامة سؤال توبيخ ، فيقول لهم : أين المعبودات التى كنتم تخاصمون رسلى وأتباعهم بسببها ، قائلين : إنكم لا بد لكم أن تشركوهم معى فى عبادتى !
وأوضح هذا المعنى فى مواضع آخر كقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [القصص : ٦٢] .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ ٦٢ من دون الله هل ينصرونكم أو يخلصونكم ٦٣ [الشعراء] .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ ٦٣ من دون الله قالوا ضلوا عنا ... ٦٤ [غافر] . الآية .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُثَبِّتُ لَهُمْ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ٦٤ ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ٦٥ [الأعراف : ٣٧] .

أضواء البيان [٢٣٦/٣] .

أوائل المهاجرين

يتفق موسى بن عقبة وابن إسحاق على أن أبا سلمة بن عبد الأسد هو أول من هاجر من مكة إلى المدينة بعد أن آذته قريش إثر عودته من هجرة الحبشة . فتوجه إلى المدينة قبل بيعة العقبة بسنة (١) .

وكذلك فإن مصعب بن عمير وابن أم مكتوم كانا من أوائل المهاجرين حيث كانا يقرئان الناس القرآن (٢) . وقد تتابع المهاجرون فقد م المدينة بلال بن رباح وسعد ابن أبي وقاص وعمار بن ياسر ثم عمر بن الخطاب في عشرين من الصحابة (٣) . =

(١) قال ابن هشام في السيرة [٨٦/٢] : فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين من قريش من بنى مخزوم : أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر ابن مخزوم ، واسمه عبد الله ، هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة ، وكان قدم على رسول الله ﷺ مكة من أرض الحبشة ، فلما آذته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار خرج إلى المدينة مهاجراً .

وانظر دلائل النبوة للبيهقي [٤٦٠/٢] ، والبداية والنهاية لابن كثير [١٦٩/٣] وجاء في صحيح مسلم [٣/٩١٨] عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت : أي المسلمين خير من أبي سلمة : أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ .

(٢) عن البراء رضي الله تعالى عنه قال : « أو من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم . ثم قدم علينا عمار بن ياسر وبلال رضي الله تعالى عنهم » .

أخرجه البخاري [٢٩٢٤] .

(٣) عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنهما قال : « أول من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم وكانوا يقرئون الناس ، فقدم بلال وسعد وعمار بن ياسر . ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين من أصحاب النبي ﷺ ، ثم قدم النبي ﷺ ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ ، حتى جعل الإمام يقرن : قدم رسول الله ﷺ ، فما قدم حتى قرأت ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ في سور من المفصل »

أخرجه البخاري [٣٩٢٥] .

= وقد سعت قريش بشتى الطرق إلى عرقلة الهجرة إلى المدينة ، وإثارة المشاكل أمام المهاجرين ، مرة بحجز أموالهم ومنعهم من حملها ، ومرة بحجز زوجاتهم وأطفالهم ، وثالثة بالاحتياال لإعادتهم إلى مكة . لكن شيئاً من ذلك كله لم يعق موكب الهجرة ، فالمهاجرون كانوا على أتم الاستعداد للانخلاع عن أموالهم وأهلهم ودنياهم كلها تلبية لداعى العقيدة .

قالت أم المؤمنين أم سلمة رضى الله تعالى عنها : « لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لى بعيره ، ثم حملنى عليه ، وحمل معى ابنى سلمة بن أبى سلمة فى حجرى ، ثم خرج بى يقود بعيره . فلما رأته رجال بنى المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، رأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها فى البلاد ؟

قالت : فنزعوا خطام البعير من يده فأخذونى منه .
قالت : وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبى سلمة .
قالوا : لا والله لا نترك ابنتنا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا .
قالت : فتجاذبوا ابنى سلمة بينهم حتى خلعوا يده . وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبسنى بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجى أبو سلمة إلى المدينة .
قالت : ففرق بينى وبين زوجى وبين ابنى .
قالت : فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح ، فما أزال أبكى حتى أمسى ، سنة أو قريناً منها ، حتى مرّ بى رجل من بنى عمر - أحد بنى المغيرة - فرأى ما بى ، فرحمنى ، فقال لبنى المغيرة : ألا تخرجون هذه المسكينة ، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها .

قالت : فقالوا لى : الحقى بزوجك إن شئت .
قالت : ورد بنو عبد الأسد إليّ عند ذلك ابنى .
قالت : فارتحلت بعيرى ، ثم أخذت ابنى فوضعتة فى حجرى ، ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة . وما معى أحد من خلق الله .
=

.....
= قالت : فقلت : أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي . حتى إذا كنت بالتنعيم
نقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار ، فقال لي : إلى أين
يا بنت أبي أمية ؟

قالت : فقلت : أريد زوجي بالمدينة .

قال : أو ما معك أحد ؟

قالت : فقلت : لا والله إلا الله وبني هذا .

قال : والله ما لك من مترك .

فأخذ بخطام البعير . فانطلق معي يهوى بي ، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب
قط أرى أنه كان أكرم منه ، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ، ثم استأخر عني ، حتى
إذا نزلت عنه استأخر ببعيري فحط عنه ، ثم قيده في الشجرة ، ثم تنحى إلى
الشجرة فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه فرحله .

ثم استأخر عني فقال : اركبي ، فإذا ركبت فاستويت على بعيري أتى فأخذ
بخطامه ، فقاد بي حتى ينزل بي ، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة .
فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقاء قال : زوجك في هذه القرية - وكان
أبو سلمة بها نازلاً - فادخلها على بركة الله . ثم انصرف راجعاً إلى مكة .
قال : فكانت تقول : والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي
سلمة . وما رأيت صاحباً قط أكرم من عثمان بن طلحة ^(١) .

وقد سقت الخبر بطوله لما فيه من دلالة على الصعوبات التي واجهها المهاجرون ،
وهي تشير إلى أثر العصبية في اتخاذ العشائر القرشية مواقفها من الأحداث . فقد
انحاز قوم أبي سلمة إليه رغم مخالفتهم له في العقيدة ، ثم إن الخبر يكشف عن
صورة من صور المروءة التي عرفها المجتمع القرشي قبل الإسلام تتمثل في موقف =

(١) ذكره ابن هشام في السيرة [٨٦/٢-٨٨] ، وابن الأثير في أسد الغابة [٣٢٩/٧] ، وابن
حجر في الإصابة [٢٢٢/٨] .

.....
= عثمان بن طلحة وتطوعه في مصاحبة المرأة وإحسان معاملتها مما يدل على سلامة الفطرة التي قادته أخيراً إلى الإسلام بعد صلح الحديبية ، ولعل إضاعة قلبه بدأت منذ تلك الرحلة مع المرأة المسلمة .

وثمة صورة تاريخية لحدث آخر هو هجرة عمر بن الخطاب كما حدث بها بنفسه قال : « اتعدت لما أردنا الهجرة إلى المدينة أنا وعياش بن أبي ربيعة ، وهشام بن العاص ابن وائل السهمي ، التناضب من أضاعة بنى غفار فوق سرف^(١) ، وقلنا : أين لا يصبح عندهما فقد حبس ، فليمض صاحبا .

قال : فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند التناضب ، وحبس عنها هشام ، وفتن فافتن .

فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقاء ، وخرج أبو جهل بن هشام ، والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة - وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما - حتى قدما علينا المدينة - ورسول الله ﷺ بمكة - فكلّماه وقالوا : إن أمك قد نذرت ألا يمس رأسها مشط حتى تراك ، فرق لها .

فقلت له : يا عياش ، إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم . فقال : أبر قسم أُمي ، ولي هناك مال فأخذه .

فقلت : والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قریش مالاً ، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما .

فأبى عليّ إلا أن يخرج معهما .

فلما أبى إلا ذلك قلت : أما إذ قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة نجبية ذلول . فالزم ظهرها ، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها ، فخرج عليها معهما . حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل : والله يا أخو لقد استغلظت بعيري هذا ، أفلا تعقبني على ناقتك هذه ؟

(١) التناضب : ضرب من الشجر ، وأضاعة بنى غفار على عشرة أميال من مكة ، والأضاعة : الغدير وسرف : واد من أودية مكة دخل في العمران حالياً .

= قال : بلى .

قال : فأناخ وأناخ ليتحول عليها ، فلما استورا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه وربطاه ، ثم دخلا به مكة وفتناه فافتن .

قال : فكنا نقول : ما الله بقابل من افتن صرفاً ولا عدلاً ولا توبة ؛ قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم .

قال : وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل الله تعالى فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم : ﴿ قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٥١ ﴾ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ٥٢ وَأَنْبِئُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ٥٣ ﴾ [الزمر] .

قال عمر بن الخطاب : فكتبتها يدي في صحيفة ، وبعثت بها إلى هشام بن العاص . قال : فقال هشام : فلما أتتني جعلت أقرأها بذي طوى^(١) أصعد بها فيه وأصوب ولا أفهمها . حتى قلت : اللهم فهمنيها .

قال : فألقى الله تعالى في قلبي أنها إنما أنزلت فينا وفيما كنا نقول لأنفسنا ويقال فينا . قال : فرجعت إلى بعيري فجلست عليه فلحقت برسول الله ﷺ^(٢) . وأما ما روى من إعلان عمر لهجرته وتهديده من يلحق به بشكل أمه فلم يصح^(٣) . =

(١) ذوى طوى : وايد بمكة .

(٢) أخرجه البزار في مسنده [١٣٤٥- كشف] وذكره الهيثمي في المجمع [٦٤/٦] وقال : رواه البزار ورجاله ثقات . وأخرجه الحاكم في المستدرک [٤٣٥/٢] مختصراً ، وصححه ووافقه الذهبي .

(٣) عن عبد الله بن العباس قال : قال لى على بن أبى طالب : ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً ، إلا عمر بن الخطاب ، فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه ، وتنكب قوسه ، وانتضى في يده أسهماً ، واختصر عتزته ، ومضى قبل الكعبة ، والملا =

= لقد نزل كثير من المهجرين في قباء في مكان يسمى « العصبه » قبل مقدم رسول الله ﷺ ، وكان سالم بن معقل مولى أبي حذيفة يؤمهم في مسجد قباء ، لكونه أكثرهم قرآنا (١) .

السيرة النبوية الصحيحة [٢٠٢/١-٢٠٧] .

= من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعا متمكنا ، ثم أتى المقام فصلى متمكنا ، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة ، وقال لهم : شأنت الوجوه ، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس ، من أراد أن تشكله أمه ، ويوتم ولده ، ويرمل زوجته ، فليلقني وراء هذا الوادى . قال على : فما تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين علمهم وأرشدهم ومضى لوجهه .

ذكره ابن الأثير في أسد الغابة [١٤٤/٤، ١٤٥] .

(١) عن ابن عمر قال : لما قدم المهاجرون الأولون العصبه - موضع بقباء - قبل مقدم رسول الله ﷺ كان يؤمهم سالم مولى أبي حذيفة ، وكان أكثرهم قرآنا .

أخرجه البخارى [٦٩٢] .

بدء الهجرة النبوية المباركة (١)

ما دام الإنسان قد آمن بأن العبادة لا تجوز إلا لله وحده ، والاستعانة به جل شأنه . ما دام هذا الإيمان قد استقر في القلب وظهر في السلوك ، فلا بد أن

(١) عن عائشة رضي الله تعالى عنها زوج النبي ﷺ قالت : « لم أعقل أبوى قط إلا وهما يدينان الدين ، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار : بكرة وعشية . فلما ابتلى المسلمون ، خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة ، حتى بلغ برك الغماد لقي ابن الدغنة - وهو سيد القارة - فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟ فقال أبو بكر : أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي ، قال ابن الدغنة : فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يُخرج ، إنك تكسب المعدوم ، وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فأنا لك جار . ارجع واعبد ربك ببلدك ، فرجع ، وارتحل معه ابن الدغنة ، فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش فقال لهم : إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يُخرج ، أخرجون رجلاً يكسب المعدوم ، ويصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويقرى الضيف ، ويعين على نوائب الحق ؟ فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة ، وقالوا لابن الدغنة : ثم أبا بكر فليعبد ربه في داره ، فليصل فيها وليقرأ ما شاء ، ولا يؤذينا بذلك ولا يشتعلن به ؛ فإننا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا . فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر ، فلبث أبو بكر لذلك يعبد ربه في داره ، وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن ، فينقذ عليه نساء المشركين وأبنائهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه . وكان أبو بكر رجلاً بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن ؛ فأفرع ذلك أشراف قريش من المشركين ، فأرسلوا إلى ابن الدغنة ، فقدم عليهم ، فقالوا : إنا كنا أجرتنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره ، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره ؛ فأعلن بالصلاة والقراءة فيه ، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا ، فانهه ، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل ، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك =

= فسله أن يرد إليك ذمتك ، فإننا قد كرهنا أن نخفرك ، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان . قالت عائشة : فأتى ابن الذغنة إلى أبي بكر ، فقال : قد علمت الذي عاقدت لك عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترجع إليّ ذمتي ، فإنني لا أحب أن تسمع العرب أنني أخفرت في رجل عقدت له . فقال أبو بكر : فإنني أرد إليك جوارك ، وأرضى بجوار الله عز وجل . والنبي ﷺ يومئذ بمكة . فقال النبي ﷺ للمسلمين : « إني رأيت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين ، وهما الحرتان » فهاجر من هاجر قبل المدينة ، فقال له رسول الله ﷺ : « على رسلك ، فإنني أرجو أن يؤذن لي » .

فقال أبو بكر : وهل ترجو ذلك بأبي أنت ؟
قال : « نعم » .

فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه ، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر - وهو الخبط - أربعة أشهر .

قال ابن شهاب : قال عروة : قالت عائشة : فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر : هذا رسول الله ﷺ متقنعا في ساعة لم يكن يأتينا فيها . فقال أبو بكر : فداء له أبي وأمي ، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر . قالت : فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن ، فأذن له ، فدخل .

قال النبي ﷺ لأبي بكر : أخرج من عندك .

فقال أبو بكر : إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله .

قال : فإنني قد أذن لي في الخروج .

فقال أبو بكر : الصحابة بأبي أنت يا رسول الله .

قال رسول الله ﷺ : « نعم » .

قال أبو بكر : فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتى هاتين .

قال رسول الله ﷺ : « بالثمن » .

.....
= قالت عائشة : فجهزناهما أحث الجهاز ، وصنعنا لهما سفرة في جراب ، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب ، فبذلك سميت ذات النطاق .

قالت : ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور ، فكما فيه ثلاث ليال ، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثقف لقن ، فيدلج من عندهما بسحر ، فيصبح مع قريش بمكة كبائت ، فلا يسمع أمراً يُكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء ، فيبيتان في رسل - وهو لبن منحتهما ورضيفهما - حتى ينق بها عامر بن فهيرة بَعْلَس ، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث .

واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بنى الدليل ، وهو من بنى عبد بن عدى هاديًا خَرِيْتًا - والخَرِيْت الماهر بالهداية - قد غمس حلقاً في آل العاص بن وائل السهمي ، وهو على دين كفار قريش ، فأمناه ، فدفعنا إليه راحلتيهما ، وواعدها غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث ، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل ، فأخذ بهم طريق السواحل .

أخرجه البخارى [٣٩٠٥] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « وُلد النبي ﷺ يوم الاثنين ، واستُئيب يوم الاثنين وتوفى يوم الاثنين ، وخرج مهاجراً من مكة إلى المدينة يوم الاثنين ، وقدم المدينة يوم الاثنين ، ورفع الحجر الأسود يوم الاثنين » .

أخرجه أحمد في المسند [٢٧٧/١] ، وصححه الشيخ شاکر برقم [٢٥٠٦] . وقال ابن كثير في البداية والنهاية [١٧٥/٣] : وقد كانت هجرته عليه السلام في شهر ربيع الأول ، سنة ثلاث عشرة من بعثته عليه السلام وذلك في يوم الاثنين .

ينصر الخالق سبحانه عبده المؤمن على خصوم الإيمان . وهنا نحب أن نذكر حقيقة يجب ألا تغيب عن الأذهان ، إن على المؤمن ألا يعتقد أن هناك مخلوقاً من مخلوقات الله قادر على أن يقف معانداً لله تعالى ، إنما يقف الخلق المعاندون بعضهم لبعض في صراع بينهم ؛ لذلك فإننا نجد في العادة أن القوى يهزم الضعيف . لكن إذا التحم الضعيف المؤمن بمنهج الله ضد خصم معاند فإن خصمه لن يقدر عليه حتى ولو كان الخصم قوياً ، ولسوف يكون الانتصار للضعيف المؤمن الملتزم بمنهج الله على الذي تخيلنا أنه قوي ، لكن قوته مجردة من الإيمان^(١) .

ولنأخذ من هجرة الرسول الكريم ﷺ درساً؛ لقد هاجر الرسول ﷺ من مكة ومعه أبو بكر الصديق إلى المدينة ؛ ليقى المؤمنين هذا العذاب الذي كانوا يتعرضون له من قبل كفار قريش .

ودخل الرسول ﷺ ومعه أبو بكر إلى غار ثور ؛ يحتميان فيه من الكفار الذين خرجوا للبحث عن محمد ﷺ ، هذا الذي حطم آلهتهم وسفه أحلامهم . وكلنا نعرف قول أبي بكر الصديق لرسول الله ﷺ في هذه اللحظة : « لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا » ، وكان رد الرسول الكريم ﷺ على صاحبه أبي بكر واضحاً جلياً يعث على الاطمئنان ؛ لقد قال الرسول

(١) قال تعالى : ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] أى : كم من جماعة قليلة العدد والعدة استعصمت . بإيمانها بالله ، توكلت عليه غلبت فئة كثيرة العدد والعدة بإرادة الله ونصره فإن النصر من عند الله ، لا بكثرة الجنود ، فلا ينبغي لنا أن نستقل أنفسنا فنجنب عن لقاء عدونا .

[التفسير الوسيط] .

الكريم ﷺ : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما »^(١) . والقرآن الكريم يؤكد هذا القول الواضح بهذه الآية الكريمة : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدُوا بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾^(٢) [التوبة : ٤٠] . إن هذا القول الفصل يوضح

(١) عن أنس أن أبا بكر الصديق حدثه قال : نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار فقلت : يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه . فقال : « يا أبا بكر ! ما ظنك باثنين الله ثالثهما » .

أخرجه البخارى [٤٦٦٣] ، ومسلم [٢٣٨١] .

(٢) قال القاسمى فى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ ﴾ أى بالخروج معه إلى تبوك ﴿ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعنى : كفار مكة حين مكروا به ، فصاروا سبب خروجه ، فخرج ومعه أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ ﴾ حال من ضميره عليه الصلاة والسلام . أى أحد اثنين ﴿ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ﴾ بدل من ﴿ إِذَا أَخْرَجَهُ ﴾ بدل البعض ؛ إذ المراد به زمان متسع . و ﴿ الْغَارِ ﴾ نقب فى أعلى ثور ، وهو جبل فى الجهة اليمنى من مكة على مسيرة ساعة ، مكثا فيه ثلاثاً ؛ ليرجع الطلب الذين خرجوا فى آثارهما ، ثم يسيرا إلى المدينة ﴿ إِذْ يَقُولُ ﴾ بدل ثان ، أى رسول الله ﷺ ﴿ لِصَاحِبِهِ ﴾ أى أبى بكر ﴿ لَا تَحْزَنْ ﴾ وذلك أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه أشفق من المشركين أن يعلموا بمكانهما ، فيخلص إلى الرسول ﷺ أذى ، وطفق يجزع لذلك ، فقال له رسول الله ﷺ ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ أى بالنصرة والحفظ .

﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ ﴾ أى أمته التى تسكن عندها القلوب ﴿ عَلَيْهِ ﴾ أى على النبى ﷺ ﴿ وَأَيَّدُوا بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ يعنى الملائكة ، أنزلهم ليحرسوه =

لنا أن الإيمان المطلق بالله تعالى ، وبأنه مالك كل الأسباب قادر أن يبعث
الطمأنينة والسكينة فى قلب الرسول ﷺ وصاحبه أبى بكر . والله القوى
القادر قد صرف بقدرته نظر الكفار عن الرسول ﷺ وصاحبه وهما فى الغار .
ومن هذه الحكاية نستفيد ما يلى :

أن أى صراع يحدث بين إنسان وآخر قد يكون أحدهما قويا أو يكونان
متساويين فى القوة ، فإن الغلبة والانتصار سيكونان للأقوي . أما إذا قام صراع
بين إنسان مؤمن وآخر غير مؤمن ، فإن الغلبة ستكون للإنسان المؤمن ما دام

= فى الغار ، أو ليعينوه على العدو يوم بدر والأحزاب وحنين ، فتكون الجملة معطوفة
على قوله : ﴿ نَصْرُهُ اللَّهُ ﴾ وقوى أبو السعود الوجه الثانى بأن الأول يأباه
وصفهم بعدم رؤية المخاطبين لهم .

قلت : لا إباءة ؛ لأن هذا وصف لازم لإمداد القوة الغيبية فى كل حال ، وفى
الثانى تفكيك فى الأسلوب لبعد المتعاطفين ، فافهم . والله أعلم .

﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ﴾ أى : المغلوبة المقهورة ، والكلمة :
الشرك ، أودعوة الكفر ، فهو مجاز عن معتقدهم الذى من شأنهم التكلم به على
أنها الشرك ، أو هى معنى الكلام مطلقا على أنها دعوة الكفر ﴿ وَكَلِمَةُ اللَّهِ
هِيَ الْعُلْيَا ﴾ يعنى التوحيد ، أو دعوة الإسلام كما تقدم ، أى التى لا تزال عالية
إلى يوم القيامة ﴿ وَكَلِمَةُ اللَّهِ ﴾ بالرفع على الابتداء و ﴿ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ مبتدأ
وخبر . أو تكون ﴿ هِيَ ﴾ فعلا . وقرئ بالنصب أى : وجعل كلمة الله ،
والأول أوجه وأبلغ ؛ لأن الجملة الإسمية تدل على الدوام والثبوت . وإن جعل لم
يتطرق لها ؛ لأنها فى نفسها عالية لا يتبدل شأنها ولا يتغير حالها . وفى إضافة
« الكلمة » إلى « الله » إعلاء لمكانها ، وتنويه لشأنها ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ أى غالب
على ما أراد ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فى حكمه وتديره .

تفسير القاسمى [٣١٥٦/٨-٣١٥٨] بتصرف .

قد آمن بالله ، ولن ينتصر عليه أحد إلا إذا شرد بعيداً عن منهج الله . نضرب مثلاً على ذلك لتقريب المسألة العقائدية - ولله من قبل ومن بعد المثل الأعلى - لنفترض أن رجلاً له غلام صغير ، ووقف الرجل؛ ليتحدث إلى صديق له ، وذهب الغلام الصغير بعيداً عن أبيه ليلعب في الشارع ، وتصدى لهذا الغلام الصغير أطفال أكبر منه في القوة والعمر ، فلمن يلجأ الغلام ؟ لا بد أنه سيلجأ إلى أبيه . وفي اللحظة التي يلجأ الغلام لأبيه يصاب الأولاد الأكبر منه بالخوف ؛ لأن للطفل أباً قوياً وأن الوالد قادر على حماية ابنه .

يحدث ذلك من أب وابن ، كليهما مخلوق من مخلوقات الله . فما بالنا بالخالق لكل الوجود . ماذا يحدث عندما يحتوى صاحب حق ضعيف بالخالق سبحانه ١٩ ما بالنا بإنسان بذل كل ما في طاقته؛ لتحقيق هدف في حدود منهج الله ، فتكاثر عليه المكذبون بمنهج الله ، فاستنجد هذا الإنسان المؤمن بالحى القيوم .

إن الحماية هنا لن تكون حماية أب لابنه ، ولكنها حماية خالق لمخلوق . لذلك فعندما يقف عبد مؤمن ملتزم بمنهج الله ، فلا بد أن يهزم العبد المكذب بمنهج الله وقرأ قول الله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ ^(١) [الزمر : ٣٦] .

(١) قال القرطبي : الكفاية شر الأصنام ، فإنهم كانوا يخوفون المؤمنين بالأصنام ، حتى قال إبراهيم عليه السلام . ﴿ وَكَيفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ﴾ [الأنعام : ٨١] ، وقال الجرجاني : إن الله كاف عبده المؤمن وعبد الكافر ، هذا بالثواب وهذا بالعقاب .

قوله تعالى : ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ وذلك أنهم خوفوا النبي ﷺ مضرة الأوثان ، فقالوا : أتسب آلهتنا ؟ لكن لم تكف عن ذكرها لتخليلتك أو تصيينك =

بهذا المنطق الإيماني كان الرسول الكريم ﷺ يواجه قريشاً بكفرها وجهلها وجاهليتها . لقد اختاروا الضلال وأبوا أن يُسلموا مع الرسول ﷺ لله الواحد الأحد ، فكانت النتيجة الحتمية أن انتصر الرسول ومن معه ، واندحر الشرك وحزبه . وهكذا الإنسان المؤمن بالله تعالى .

= بسوء . وقال قتادة : مشى خالد بن الوليد إلى العزى ليكسرها بالفأس ، فقال له سادنها : أئخذركها يا خالد ؛ فإن لها شدة لا يقوم لها شيء ، فعمد خالد إلى العزى فهشم أنفها حتى كسرها بالفأس . وتخويفهم لخالد تخويف للنبي ﷺ ؛ لأنه الذي وجه خالدًا . ويدخل في الآية تخويفهم النبي ﷺ بكثرة جمعهم وقوتهم ؛ كما قال : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ ﴾ [القمر : ٤٤] .

تفسير القرطبي [٢٥٨، ٢٥٧/١٥] .

الرسول ﷺ وصاحبه في غار ثور

في طريق هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة ، التجأ هو وأبو بكر رضي الله عنه إلى غار ثور^(١) واختبأ داخله ، وجاء الكفار ووقفوا عند مدخل الغار ،

(١) غار ثور : الغار في اللغة : فجوة في الجبل تشبه البيت كالمغارة والكهف ، والمارد به هنا : غار ثور الواقع على بعد ساعة سيرًا من مكة .

[التفسير الوسيط - تفسير سورة التوبة] .

قال ابن إسحاق : فلما أجمع رسول الله ﷺ الخروج ، أتى أبا بكر بن أبي قحافة ، فخرجوا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته ، ثم عمدا إلى غار ثور - جبل بأسفل مكة - فدخلاه ، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله بن أبي بكر أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر ؛ وأمر عامر بن فهيرة موله أن يرعى غنمه نهاره ، ثم يريحها عليهما ، يأتيهما إذا أمسى في الغار . وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما . قال : انتهى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار ليلاً ، فدخل أبو بكر رضي الله تعالى عنه قبل رسول الله ﷺ ، فلمس الغار ليظهر أفيه سبع أوحية ؟ يقى رسول الله ﷺ بنفسه .

قال ابن إسحاق : فأقام رسول الله ﷺ في الغار ثلاثاً ومعه أبو بكر ، وجعلت قریش فيه حين فقدوه مائة ناقة لمن يرده عليهم ، وكان عبد الله بن أبي بكر يكون في قریش نهاره معهم يسمع ما يأترون وما يقولون في شأن رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله تعالى عنه ، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر ، وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله تعالى عنه ، يرعى في رعيان أهل مكة ، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر فاحتلبا وذبحا ، فإذا عبد الله ابن أبي بكر غدا من عندهما إلى مكة ، أتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفى عليه ، حتى إذا مضت الثلاث وسكن عنهما الناس أتاها صاحبهما الذي استأجراه بيعيريهما وبعير له وأتتهما أسماء =

وسيطر الخوف على قلب أبي بكر خشية أن يقع رسول الله ﷺ في أيدي الكفار ، وق.ال : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، وكان أبو بكر بذلك يقرر واقعًا ، فالكفار واقفون على باب الغار ، والنبى ﷺ وأبو بكر فى داخله ، ونظرة واحدة من الكفار إلى داخل الغار تكشف الأمر كله .
فماذا قال رسول الله ﷺ ؟

رفع الأمر إلى الله وقال : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما »^(١) . وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] .
إذن .. فالرسول ﷺ رفع الأمر إلى الله ، فهو وأبو بكر فى معية الله ، قول أبي بكر: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا . هو قول الإنسان الخائف ، ولكن قول الرسول ﷺ : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ . معناه أنه بق.درة البشر لو نظروا تحت أقدامهم لرأونا ، ولكننا ما دمنا فى حماية الله تعالى وعنايته فإنهم لن يرونا؛ ذلك لأن قدرة الله ستزيغ أبصارهم فلن يرونا ، وحتى

= بنت أبي بكر أبي بكر رضى الله تعالى عنهما بسفرتهما^(١) ونسيت أن تجعل لها عصامًا^(٢) فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة فإذا ليس فيها عصام ، فتحل نطاقتها فتجعله عصامًا ، ثم علقتها به فكان يقال لأسماء بنت أبي بكر : ذات النطاق لذلك .

السيرة لابن هشام [١٠٦/٢-١٠٩] ، وانظر دلائل النبوة للبيهقى [٤٧١-٤٧٥] ،
والبداية والنهاية لابن كثير [١٧٨/٣] .

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٣٦٥٣] ، ومسلم [٢٣٨١] .

(١) الشفر : طعام يصنع للمسافر ، وما يُحمل فيه هذا الطعام يسمى أيضًا « السفرة » .
(٢) العصام : حبل تشد به القربة والسفرة وتحملان ، والعصام أيضًا يطلق على عروة الوعاء التى يعلق بها .

إذا نظروا تحت أقدامهم فلن يرونا؛ وذلك لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يحفظنا ، فنحن لا نحفظ أنفسنا ، وهكذا جاءت هذه الآية ؛ لتبين لنا كيف أن الله سبحانه وتعالى إذا كان معنا كانت لنا الغلبة ، وأنا يجب أن نستعين بالله فى جميع الأمور .

اثنان .. الله ثالثهما

يقول تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ ^(١) [إبراهيم : ٢٧]
القول الثابت معناه أنه حق لا يعتريه تغيير . فالتاس تتغير من حوله وهو يظل ثابتاً . والتثبيت يختلف فى أعراف الناس باختلاف المثبت . افترض أن عندك عموداً مخلصاً فى البيت وجئت له بمهندسين ليثبتوه ، فماذا يفعلون؟ يعملون له دعائم أرضية من أسفل . وتقول : أنا أحضرت له مهندساً كبيراً ثبتته . إذا كان هذا فى البشر ، فما بالك إذا كان الله هو الذى سيثبت؟ فهذا يردك إلى أن المثبت لن يطرأ على تثبيته خلل .

إذن .. فكلمة تثبت دللتنا على أن الإنسان ابن أغيار . وقد تقابله مصاعب ومتاعب فى حياته . فنقول له: إياك أن تخور .. لماذا ؟ لأن لك رباً .

(١) قال القرطبي فى قوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ قال ابن عباس : لا إله إلا الله .

وقيل : معنى ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ ﴾ يديمهم الله على القول الثابت .

وقيل يثبتهم فى الدارين جزاء لهم على القول الثابت .

وقال القفال وجماعة : ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى فى القبر ، ؛ لأن الموتى فى الدنيا إلى أن يُبعثوا ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ أى : عند الحساب .

تفسير القرطبي [٣٦٢/٩، ٣٦٣] بتصرف .

وعن البراء بن عازب رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال : « المسلم إذا سُئل فى القبر يشهد أن لا إله إلا الله أن محمداً رسول الله » . فذلك قوله :

﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ .

أخرجه البخارى [٤٦٩٩] واللفظ له ، ومسلم [٢٨٧١] .

ورسول الله ﷺ حينما كان في الغار وجاء القوم يبحثون عنه ، ومروا أمام الغار . قال أبو بكر : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا . فماذا قال له الرسول ﷺ المنطق كان يقتضى أن يقول له : لا .. حتى لو نظر أحدهم تحت قدميه فلن يرانا ، ولكنه لم يقل له ذلك ، وإنما قال له : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ ^(١) .

(١) عن البراء قال : اشترى أبو بكر رضى الله تعالى عنه من عازب رجلاً بثلاثة عشر درهماً ، فقال أبو بكر لعازب : مَرِ البراء فليحمل إلى رحلى ، فقال عازب : لا ، حتى تُحدثنا كيف صنعت أنت ورسول الله ﷺ حين خرجتما من مكة والمشركون يطلبونكم .

قال : ارتحلنا من مكة فأحيينا - أو سَرِينَا - ليلتنا ويومنا حتى أظهرنا وقام قائم الظهيرة ، فرميت ببصرى هل أرى من ظل فأوى إليه ، إذا صخرة أتيتها ، فنظرت بقية ظل لها فسويته ، ثم فرشت للنبي ﷺ فيه ، ثم قلت له : اضبطجع يا نبي الله ، فاضبطجع النبي ﷺ ، ثم انطلقت أنظر ما حولى : هل أرى من الطلب أحدًا ؟ فإذا أنا براعى غنم يسوق غنمه إلى الصخرة ، يريد منها الذى أردنا ، فسألته فقلت له ، لمن أنت يا غلام ؟ فقال لرجل من قريش سماه فعرفته ، فقلت : هل فى غنمك من لبن ؟ قال : نعم . قلت : فهل أنت حالب لنا ؟ قال : نعم . فأمرته فاعتقل شاة من غنمه ، ثم أمرته أن ينفض ضرعها من الغبار ، ثم أمرته أن ينفض كفيه فقال هكذا ، ضرب إحدى كفيه بالأخرى فحلب لى كنية من لبن ، وقد جعلت لرسول الله ﷺ إدواة على فمها خرقة ، فصبيت على اللبن حتى برد أسفله ، فانطلقت به إلى النبي ﷺ فوافقته قد استيقظ ، فقلت : اشرب يا رسول الله ، فشرب حتى رضيت . ثم قلت : قد آن الرحيل يا رسول الله ، قال : « بلى » . فارتحلنا والقوم يطلبوننا ، فلم يدر كنا أحد منهم غير سراقه بن مالك بن جعشم على فرس له ، فقلت : هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله ، قال : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ .

أخرجه البخارى [٣٦٥٢] .

أبو بكر يتكلم عن القانون الكونى ، ورسول الله ﷺ يتكلم عن خالق الكون سبحانه قانون . أبو بكر يقول بقوانين الكونيات: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، ورسول الله ﷺ يتحدث وكله ثقة بأن الله لن يسلمهما فيقول : « يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما » (١) .

إذن . . فوجه الرد على عبارة أبى بكر وهو يقول له : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا . كيف عدل عن قوله: لا ، لن يرآنا أحد حتى لو نظر تحت قدميه . إلى عبارة أخرى هي : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ ؛ هنا النبى ﷺ أراد أن يلفت أبا بكر إلى قضية إيمانية ، ليس لأن نظرهم سيكون ضعيفاً فلن يرونا ، ولكن لأننا فى معية الله سبحانه وما دمنا فى معية الله ، فالله تعالى حافظنا منهم ومن شرهم ، والله تعالى بالغ أمره قد جعل لكل شيء قدراً (٢) .

(١) أخرجه البخارى [٣٦٦٣] ، ومسلم [٢٣٨١] .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وَرِزْقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق : ٣] .

دليل النبي ﷺ في الهجرة

كانت معرفة الطريق من مكة إلى المدينة على زمن رسول الله ﷺ تحتاج إلى خبرة حتى يتجنب الواحد منهم المفازات والمناهاات وحينما قام الرسول ﷺ بالهجرة اتخذ دليلاً للطريق ، وكان دليله كافراً ، فلا يتأتى السير في مثل هذه الأرض بلا دليل (١) .

(١) وقد صحَّ أن الدليل أخذ بهم طريق السواحل (١) . وفصل ابن إسحاق وصف الطريق الذي سلكوه قال : « فلما خرج بهما دليلهما عبد الله بن أريقط سلك بهما أسفل مكة ، ثم مضى بهما على الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عسفان ، ثم سلك بهما على أسفل أمج (٢) ثم استجاز بهما من مكانه ذلك ، فسلك بهما الحرار (٣) ، ثم سلك ثنية المرة ، ثم سلك بهما لققاً (٤) ، ثم أجاز بهما مدلجة لقف ، ثم استبطن بهما مدلجة محاج ، ثم سلك بهما مرجح محاج ، ثم تبطن بهما مرجح محاج ، ثم تبطن بهما مرجح من ذى الفضوين ثم من ذى كشر ، ثم أخذ بهما على الجداجد ، ثم على الأجرد ثم سلك بهما داسلم من بطن أعداء مدلجة تعهن ، ثم على العبايد ، ثم أجاز بهما الفاجة .

قال ابن هشام : ثم هبط بهما العرج وقد أبطأ عليهما بعض ظهرهم ، فحمل رسول الله ﷺ رجل من أسلم : أوسن بن حجر على جمل له يقال له : ابن الرداء إلى المدينة وبعث معه غلاماً يقال له : مسعود بن هنيذة ، ثم خرج بهما دليلهما من =

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٣٩٠٥] عن عائشة رضى الله تعالى عنها بلفظ : « وانطلق معهما عامر ابن فهيرة والدليل ، فأخذ بهم طريق السواحل » .

(٢) أمج : بلد من أعراض المدينة .

(٣) الحرار : موضع بالحجاز ، يقال : قرب الجحفة ، وقيل : هو وادٍ من أودية المدينة ، وقيل : موضع بخيبر .

(٤) لققاً : هى ثنية بين مكة والمدينة .

.....

= العرج ، فسلك بهما ثنية العائر عن يمين ركوبة حتى هبط بهما بطن رثم ، ثم قدم بهما قباء على بنى عمرو بن عوف لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، يوم الاثنين حين اشتد الضحاء وكادت الشمس تعتدل^(١) .

السيرة النبوية الصحيحة [٢١٧/١، ٢١٨] ، وسيرة ابن هشام [١١٣/٢، ١١٤] .

^(١) انظر السيرة لابن هشام [١١٣/٢، ١١٤] ، والبيهقي في دلائل النبوة [٥٠٣/٢] ،
والبداية والنهاية لابن كثير [١٨٩/٣، ١٩٠] .

سراقة بن مالك يتبع أثر رسول الله ﷺ

كان سراقة بن مالك يتبع أثر الرسول ﷺ ليفوز بالجائزة التي جعلها الكفار لمن يدلهم على مكان الرسول ﷺ ، وكان على فرس له ، فساخت قوائم الفرس في الرمل ، وهذه من المعجزات التي قال الله عنها : ﴿ وَأَيُّكُمْ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة : ٤٠] ففهم سراقة من ذلك أنه منع من متابعته .م ، وأن النبي ﷺ ظاهر على قومه فناداهم وقال لهم : انظروني أكلمكم فوالله لا أريكم ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه فأمر رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه أن يقول له : وما تبتغي منا ، فقال سراقة : تكتب لي كتابًا يكون آية بيني وبينك ، فأمر النبي ﷺ أبا بكر أن يكتب له فكتب له ، فأخذه ورجع ولم يذكر شيئاً مما كان ، حتى أسلم بعد فتح مكة (١) .

(١) قال سراقة : لما خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم . قال : فيينا أنا جالس في نادى قومي إذ أقبل رجل منا حتى وقف علينا فقال : والله لقد رأيت ركب ثلاثة مروا على أنفاً إنى لأراهم محمداً وأصحابه .

قال : فأومأت إليه بعيني أن أسكت . ثم قلت : إنما هم بنو فلان يتغنون ضالة لهم . قال لعله ، ثم سكت .

قال : ثم مكثت قليلاً ثم قمت فدخلت بيتي ، ثم أمرت بفرسى فقيد لي إلى بطن الوادى ، وأمرت بسلاحى ، فأخرج لي من دبر حجرتي ، ثم أخذت قداحى التي استقسم بها ثم انطلقت فلبست لامتى ، ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذى أكره : لا يضره .

قال : وقد كنت أرجو أن أردّه على قريش فأخذ المائة الناقة .

قال : فركبت على أثره ، فبينما فرسى يشتد بي عثر بي فسقطت عنه . =

= قال : فقلت : ما هذا !؟

قال : ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذي أكره : لا يضره .
قال : فأبيت إلا أن أتبعه .

قال : فركبت في أثره ، فبينما فرسي يشتد بي عثر بي فسقطت عنه .

قال : ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذي أكره : لا يضره .
قال : فأبيت إلا أن أتبعه ، فركبت في أثره ، فلما بدا لي القوم ورأيتهم عثر بي فرسي فذهبت يداه في الأرض ، وسقطت عنه ثم انتزع يديه من الأرض وتبعهما دخان كالإعصار .

قال : فعرفت حين رأيت أنه قد منع مني ، وأنه ظاهر .

قال : فناديت القوم ، فقلت : أنا سراقه بن جعشم ، انظروني أكلمكم فوالله لا أريكم ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه .

قال : فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر : « قل له وما تبغى منا ؟ » فقال لي ذلك أبو بكر .

قال قلت : تكتب لي كتابًا يكون آية بيني وبينك .

قال : اكتب له يا أبا بكر .

فكتب لي كتابًا في عظم أو في رقعة أو في خزفة ، ثم ألقاه إلي ، فأخذته فجعلته في كنانتي ، ثم رجعت فسكت ، فلم أذكر شيئًا مما كان . ثم حكى خبر لقائه برسول الله ﷺ بعد فتح مكة وإسلامه (١) .

وقد ذكر سراقه في رواية صحيحة أنه اقترب من الاثنين حتى سمع قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يكثر الالتفات ، كما ذكر أنه عرض عليهما الزاد =

(١) انظر السيرة لابن هشام [١١١/٢، ١١٢] ، ودلائل النبوة للبيهقي [٤٧٨/٢، ٤٨٨] ، وابن الأثير في أسد الغابة [٤١٣/٢، ٤١٤] .

= والمتاع فلم يأخذوا منه شيئاً ، وأن وصيته كانت : « أخف عنا »^(١) . وتذكر رواية صحيحة أنه صبار آخر النهار مسلحة للنبي ﷺ بعد أن كان جاهداً عليه أوله . =

(١) عن مالك المدلجي أنه سمع سراقه بن جعشم يقول : « جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية واحد منهما لمن قتله أو أسره . فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بنى مدلج إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال : يا سراقه ، إني قد رأيت أنفاً أسودة بالساحل أراها محمداً وأصحابه .

قال سراقه : فعرفت أنهم هم ، فقلت له : إنهم ليسوا بهم ، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا . ثم لبثت في المجلس ساعة ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي - وهي من وراء أكمة - فتحبسها علي ، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزُجَّة الأرض ، ونخضت عاليه ، حتى أتيت فرسي فركبتها ، فرفعتها تقرب بي ، حتى دنوت منهم ، فعثرت بي فرسي ، فخررت عنها ، فقامت فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزام ، فاستقسمت بها : أخبرهم أم لا ؟ فخرج الذي أكره فركبت فرسي - وعصيت الأزام - تقرب بي ، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يكثر الالتفات ، ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين . فخررت عنها ثم زجرتها ، فنهضت فلم تكد تخرج يديها ، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عُثان ساطع في السماء مثل الدخان ، فاستقسمت بالأزام فخرج الذي أكره فناديتهم بالأمان ، فوقفوا ، فركبت فرسي حتى جثتهم . ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ ، فقلت له : إن قومك قد جعلوا فيك الدية . وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم ، وعرضت عليهم الزاد والمتاع ، فلم يرزأني ، ولم يسألاني إلا أن قال : « أخف عنا » . فسألته أن يكتب لي كتاب أمن ، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أدم ، ثم مضى رسول الله ﷺ .

جزء من حديث أخرجه البخاري [٣٩٠٦] .

.....
= وأن الرسول هو الذى دعا عليه فصرعه الفرس . وقد احتاط الانان فى الكلام مع
الناس الذين يقابلونهم فى الطريق ، فإذا سئل أبو بكر عن رسول الله قال : هذا
الرجل يهدينى السبيل ، فيحسب الحاسب أنه إنما يعنى الطريق ، وإنما يعنى سبيل
الخير^(١) .

السيرة النبوية الصحيحة [٢١٥/١-٢١٧] .

(١) عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال : « أقبل نبي الله ﷺ إلى المدينة وهو مردف
أبا بكر ، وأبو بكر شيخ يُعرف ونبي الله ﷺ شاب لا يعرف .
قال : فيلقى الرجل أبا بكر فيقول : يا أبا بكر من هذا الرجل الذى بين يديك ؟
فيقول : هذا الرجل يهدينى السبيل .
قال : فيحسب الحاسب أنه إنما يعنى الطريق ، وإنما يعنى سبيل الخير . فالتفت أبو بكر فإذا
هو بفارس قد لحقهم ، فقال : يا رسول الله ، هذا فارس قد لحق بنا ، فالتفت نبي الله
ﷺ فقال : « اللهم اصبره » ؛ فصرعه الفرس ، ثم قامت تحمحم ، فقال : يا نبي الله
مرنى بم شئت .

قال : « فقف مكانك ، لا تترك أحداً يلحق بنا » .
قال : فكان أول النهار جاهداً على نبي الله ﷺ ، وكان آخر النهار مسلحة له .
جزء من حديث أخرجه البخارى [٣٩١١] .

قصة أم معبد

قال الشيخ في قصيدة موكب النور :

وأتى أم معبد فتسامت .. ويحها .. ويحها وويح كريم
قدمت شاتها بضرع بخيل وإذا الله كان عــــون نبي
وهي من فكرة القرى في دوار حين تؤذيه صدمة الإعسار
فإذا مشه قال كالمدرار فازجر العقل عن حدود اقتدار^(١)

(١) عن هشام بن حيش بن خويلد صاحب رسول الله ﷺ : أن رسول الله ﷺ خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة وأبو بكر رضى الله عنه ، ومولى أبى بكر عامر بن فهيرة ، ودليلهما الليثى عبد الله بن أريقط ، مروا على خيمتى أم معبد الخزاعية ، وكانت امرأة برزة جلدة تحتبى بفناء الخيمة ثم تسقى وتطعم ، فسألوها لحماً وتمراً ليشتروا منها فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك ، وكان القوم مرملين مستئين فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة فى كسر الخيمة فقال : « ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ » قالت : شاة خلفها الجهد عن الغنم قال : « هل بها من لبن ؟ » قالت : « هى أجهد من ذلك قال : « أتأذنين لى أن أحلبها ؟ » قالت : بأبى أنت وأمى إن رأيت بها حلباً فاحلبها فدعا بها رسول الله ﷺ فمسح بيده ضرعها وسمى الله تعالى ودعا لها فى شاتها . فتفاجت عليه ودرت فاجترت فدعا بإناء يربض الرهط فحلب فيه ثجاً حتى علاه البهاء ثم سقاها حتى رويت ، وسقى أصحابه حتى رووا وشرب آخرهم حتى أراضوا ثم حلب فيه الثانية على هدة حتى ملأ الإناء ثم غادره عندها ثم بايعها وارتحلوا عنها فقل ما لبثت حتى جاءها زوجها أبو معبد يسوق أعترأ عجاجاً يتساوكن هزالاً مخهن قليل ، فلما رأى أبو معبد اللبن أعجبه قال : من أين لك هذا يا أم معبد ؟! والشاء عازب حائل ولا حلوب فى البيت ، قالت : لا والله إلا إنه مر بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا ، قال : صفيه لى يا أم معبد ، قالت : رأيت رجلاً ظاهر الوضأة أبلج الوجه ، حسن الخلق لم تبعه ثجلة ولم ترريه صعلة ، =

= وسيم قسيم في عينيه دعج ، وفي أشفاره وطف وفي صوته سهل ، وفي عنقه سطع
وفي لحيته كثائة ، أزج أقرن إن صمت فعليه الوقار ، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء ،
أجمل الناس وأبهاء من بعيد وأحسنه وأجمله من قريب ، حلو المنطق فصلاً لا نزر
ولا هذر كأن منطقته خرزات نظم يتحدثون ربعة لا تشنأه من طول ولا تقتحمه عين
من قصر غصن بين غصنين فهو أنضر الثلاثة منظرأً وأحسنهم قدراً له رفقاء يحفون
به إن قال سمعوا لقوله وإن أمر تبادروا إلى أمره محفود محشود لا عابس ولا
مفند . قال أبو معبد : هذا والله صاحب قریش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر ولقد
هممت أن أصبح به ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً وأصبح صوت بمكة عالياً
يسمعون الصوت ولا يدرون من صاحبه وهو يقول :

جزى الله رب الناس خير جزائه	رفيقين حلاً خيمتي أم معبد
هما نزلاها بالهدى واهتدت به	فقد فاز من أمسى رفيق محمد
فيال قصي ما زوى الله عنكم	به من فعال لا تجازي وسودد
ليهن أبا بكر سعادة جده	بصحبه من يسعد الله يسعد
ووليهن بنى كعب مقام فتاتهم	ومقعداً للمؤمنين برصد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها	فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد
دعاها بشاة حائل فتحلبت	عليه صريحاً ضرة الشاة مزبد
فغادره رهناً لديها لحالب	يردها في مصدر بعد مورد

فلما سمع حسان الهاتف بذلك شُبِّب يجاوب الهاتف فقال :

لقد خاب قوم زال عنهم نبهم	وقدس من يسرى إليهم ويغتندي
ترحل عن قوم فضلت عقولهم	وحل على قوم بنور مجدد
هداهم به بعد الضلالة ربهم	فأرشدهم من يتبع الحق يرشد
وهل يستوى ضلال قوم تسفهوا	عمى وهداة يهتدون بمهنسد
وقد نزلت منه على أهل يثرب	ركاب هدى حلت عليهم بأسعد
نبي يرى ما لا يرى الناس حوله	ويتلو كتاب الله في كل مشهد

.....
= وإن قال فى يوم مقالة غائب فتصديقها فى اليوم أو فى ضحى الغد
أخرجه الحاكم فى المستدرک [١٠، ٩/٣] وقال : حديث صحيح الإسناد ولم
يخرجاه ويستدل على صحته وصدق رواته بدلائل :

فمنها : نزول المصطفى ﷺ بالخيמתين متواتر فى أخبار صحيحة ذوات عدد .
ومنها : أن الذين ساقوا الحديث على وجهه أهل الخيמתين من الأعراب الذين
لا يهتمون بوضع الحديث والزيادة والنقصان ، وقد أخذوه لفظاً بعد لفظ عن
أبى معبد وأم معبد .

ومنها : أن له أسانيد كالأخذ باليد أخذ الولد عن أبيه والأب عن جده لا إرسال
ولا وهن فى الرواة .

ومنها : أن الحر بن الصباح النخعي أخذه عن أبى معبد كما أخذه ولده عنه فأما الإسناد
الذى رويناه بسياقة الحديث عن الكعبيين فإنه إسناد صحيح عال للعرب
الأعرابة وقد علونا فى حديث الحر بن الصباح .

وقال الذهبى فى التلخيص : صحيح . ونزول المصطفى بالخيמתين متواتر فى
أخبار صحيحة ، ولذلك دلائل :

منها : أن الذين ساقوا الحديث على وجهه أهل الخيמתين من الأعراب الذين لا يهتمون
وقد أخذوه عن أبى معبد وأم معبد .

ومنها : أن له أسانيد كالأخذ باليد أخذ الولد عن أبيه لا إرسال ولا وهن فى الرواة .
ومنها : أن الحر بن الصباح النخعي أخذه عن أبى معبد كما أخذه ولده عنه .

وأخرجه البيهقى فى الدلائل [٤٩١-٤٩٤] ، والطبرانى فى الكبير [٣٦٠٥/٤] ،
وذكره الهيثمى فى المجمع [٥٨/٦-٦١] وقال : رواه الطبرانى وفى إسناده جماعة
لم أعرفهم .

وقال الدكتور أكرم العمرى : وقد اشتهر فى كتب السيرة والحديث خبر نزول
الرسول ﷺ وأصحابه بخيمة أم معبد بقديد طالين القرى ، فاعتذرت لهم لعدم
وجود طعام عندها ، إلا شاة هزيلة لا تدر لبناً . فأخذ الشاة فمسح ضرعها بيده ، =

= ودعا الله ، وحلب فى إناء حتى علت الرغوة ، وشرب الجميع ، ولكن هذه الرواية طرقها ما بين ضعيفة وواهية إلا طريقاً واحدة يرويها الصحابي قيس بن النعمان السكوني ونصها : « لما انطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر يستخفيان نزلا بأبي معبد فقال : والله ما لنا شاة ، وإن شاءنا لحوامل فما بقى لنا لبن . فقال رسول الله ﷺ : أحسبه فما تلك الشاة ؟ فأتى بها . فدعا رسول الله ﷺ بالبركة عليها ، ثم حلب عسًا فسقاه ، ثم شربوا ، فقال : أنت الذى يزعم قريش أنك صابئ ؟ قال : إنهم ليقولون . قال : أشهد أن ما جئت به حق . ثم قال : أتبعك قال : لا حتى تسمع أنا قد ظهرنا . فاتبعه بعدئذ . وهذا الخبر فيه معجزة حسية للرسول ﷺ . شاهدها أبو معبد فأسلم^(١) .

السيرة النبوية الصحيحة : [٢١٢/١-٢١٥] .

(١) أخرجه البزار فى مسنده [١٣٤٢- كشف- ١٧٤٣] وقال : لا نعلم روى قيس عن النبي ﷺ إلا هذا ، ولا نعلمه بهذا اللفظ إلا عنه ، وهو يخالف سائر الأحاديث فى قصة أم معبد . وذكره الهيثمى فى المجمع [٦١/٦] وقال : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح .

وصول الرسول ﷺ المدينة

قال الشيخ في قصيدة موكب النور
 حرقت قلبها المدينة شوقاً
 أسرعى ناق فوق رحلك نور
 رحمة للحبيب يرجو حبياً
 حشدوا حشدهم فلما تجلّى
 مرحباً مرحباً بأكرم داع
 أنت بشرى عيسى ودعوة إبراهيم
 أنت يا غرة الوجود خيـار
 فاقض فيما لنا بما أنت قاضٍ
 جلجل الحق قوة وحجاجاً
 فذها الشـرك ما دهاه وخـرت
 عبقرياً لطلعة المختار
 ترتجيه مواكب الأنصار
 فيرى الدهر في أقل انتظار
 كبر الحشد من جلال الوقار
 وعلى الرّحـب يا جليل المزار
 .. جاءت سـليلة الأطهار
 من خيـار مقطّـر من خيـار
 ذاك حق الأنصار في كل دار
 واضحاً نهجـه وضوح النهار
 جبهة الغي في سحق القرار^(١)

(١) كان المسلمون في المدينة قد سمعوا بخروجه من مكة ، فكانوا يغدون كل غداة إلى ظاهر المدينة ينتظرونه ، حتى إذا اشتد الحر عليهم عادوا إلى بيوتهم ، حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه انتظروه حتى لم يبق ظل يستظلون به فعادوا ، وقدم الرسول وقد دخلوا بيوتهم ، فبصر به يهودى فناداهم ، فخرجوا فاستقبلوه ، وكانت فرحتهم به غامرة فقد حملوا أسلحتهم وتقدموا نحو ظاهر الحرة فاستقبلوه .
 وقد نزل رسول الله ﷺ في قباء في بنى عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة وأسس مسجد قباء^(١).

(١) عن عروة بن الزبير رضى الله عنه قال : «سمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله ﷺ من مكة ، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه ، حتى يردهم حر الظهيرة ، فانقلبوا يوماً بعدما أطلوا انتظارهم ، فلما أورا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على =

= ولما عزم رسول الله ﷺ أن يدخل المدينة أرسل إلى زعماء بنى النجار فجاءوا متقلدين سيوفهم^(١) .

وقد سجلت رواية أن عدد الذين استقبلوه خمسمائة من الأنصار . فأحاطوا بالرسول ﷺ وبأبي بكر وهما راكبان ، ومضى الموكب داخل المدينة ، « وقيل في المدينة : جاء نبي الله^(٢) . وقد صعد الرجال والنساء فوق البيوت ، وتفرق الغلمان في الطرق ينادون : يا محمد يا رسول الله ، يا محمد يا رسول الله^(٣) . =

= أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه ، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين نزول بهم السراب ، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته : يا معاشر العرب ، هذا جدكم الذي تنتظرون . فثار المسلمون إلى السلاح ، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بنى عمرو بن عوف ، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول ، فقام أبو بكر للناس ، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً ، فطفق من جاء من الأنصار - ممن لم ير رسول الله ﷺ - يحيى أبا بكر ، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه ، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك؛ فلبث رسول الله ﷺ في بنى عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة ، وأسس المسجد الذي أسس على التقوى ، وصلى فيه رسول الله ﷺ . جزء من حديث أخرجه البخاري [٣٩٠٦] .

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري [٣٩٣٢] عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نزل في علو المدينة ، في حى يقال لهم : بنو عمرو بن عوف ، قال : فأقام فيهم أربع عشرة ليلة ، ثم أرسل إلى ملأ بنى النجار ، قال : فجاءوا متقلدى سيوفهم . (٢) جزء من حديث أخرجه البخاري [٣٩١١] عن أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ : فتزل رسول الله ﷺ جانب الحرة ، ثم بعث إلى الأنصار فجاءوا إلى نبي الله ﷺ وأبى بكر فسلموا عليهما وقالوا : اركبا آمنين مطاعين فركب نبي الله ﷺ وأبو بكر وحفوا دونهما بالسلاح ، فقيل في المدينة : جاء نبي الله ، جاء نبي الله ﷺ ، فأشرفوا ينظرون ويقولون : جاء نبي الله .

(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم [٢٠٠٩] عن البراء بن عازب بلفظ : « فصعد الرجال والنساء فوق البيوت ، وتفرق الغلمان والخدم في الطريق ينادون : يا محمد ، يا رسول الله ، يا محمد ، يا رسول الله . »

= قال الصحابي البراء بن عازب ، وهو شاهد عيان : « مارأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ » (١) .

أما تلك الروايات التي تفيد استقباله بنشيد « طلع البدر علينا من ثنيات الوداع » فلم ترد بها رواية صحيحة (٢) .

وأقبل رسول الله ﷺ يسير حتى نزل جانب دار أبي أيوب الأنصاري فتساءل : « أي بيوت أهلنا أقرب ؟ »

فقال أبو أيوب : أنا يا نبي الله ، هذه داري وهذا بابي . فنزل في داره (٣) . =

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري [٣٩٢٥] عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال : « أول من قدم علينا مصعب بن عمير ، وابن أم مكتوم وكانوا يقرئون الناس ، فقدم بلال وسعد وعمار بن ياسر . ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين من أصحاب النبي ﷺ ، ثم قدم النبي ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ حتى جعل الإمام يقرن : قدم رسول الله ﷺ ، فما قدم حتى قرأت ﴿ مَبِيعَ كَسَمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ في سورة من المفصل » .

(٢) قال الحافظ في الفتح : وأخرج أبو سعيد في «شرف المصطفى» ورويناه في «فوائد الخلمي» من طريق عبيد الله بن عائشة منقطعاً : لما دخل النبي ﷺ المدينة جعل الولائد يقرن : طلع البدر علينا من ثنية الوداع .

وهو سند معضل ، ولعل ذلك كان في قدومه من غزوة تبوك . . فتح الباري [٦٧٨/٧] (٣) جزء من حديث أخرجه البخاري [٣٩١١] عن أنس بن مالك بلفظ : فأقبل يسير حتى نزل جانب دار أبي أيوب ، فإنه ليحدث أهله إذ سمع به عبد الله بن سلام وهو في نخل لأهله يخترف لهم ، فجعل أن يضع الذي يخترف لهم فيها ، فجاء وهي معه ، فسمع من نبي الله ﷺ ثم رجع إلى أهله .

فقال نبي الله ﷺ : « أي بيوت أهلنا أقرب ؟ »

فقال أبو أيوب : أنا يا نبي الله ، هذه داري وهذا بابي .

قال : « فانطلق فبهني لنا مقيلاً » . قال : قوما على بركة الله تعالى .

= وقد ورد في كتب السيرة أن زعماء الأنصار تطلعون إلى استضافة الرسول ﷺ ، فكلما مر بأحدهم دعاه للتزول عنده ، فكان يقول لهم : « دعوا الناقة فإنها مأمورة » فبركت على باب أبي أيوب^(١) وكان داره طابقين ، قال أبو أيوب الأنصاري : « لما نزل على رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السفلى وأنا وأم أيوب في العلو ، فقلت له : يا نبي الله - بأبي أنت وأمي - إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك ، وتكون تحتي ، فظهر أنت فكن في العلو ، ننزل نحن فنكون في السفلى ، فقال : يا أبا أيوب ، إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفلى البيت . قال : فلقد انكسر حب لنا فيه ماء ، فقامت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء يؤذيه^(٢) . =

(١) جزء من حديث أخرجه البيهقي في الدلائل [٥٠٤/٢] ، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية [٢٠٠/٣] ، وابن هشام في السيرة النبوية [١١٨/٢] ، وذكره الحافظ ابن حجر في الفتح [٦٥٧/٧] وهو حديث ضعيف .

(٢) عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن النبي ﷺ نزل عليه فنزل النبي ﷺ في السفلى وأبو أيوب في العلو : قال : فانتبه أبو أيوب ليلة فقال : نمشي فوق رأس رسول الله ﷺ فتسحوا ، فباتوا في جانب ، ثم قال النبي ﷺ : « السفلى أرفق » فقال : لا أعلو سقيفة أنت تحتها ، فتحوّل النبي ﷺ في العلو وأبو أيوب في السفلى . جزء من حديث أخرجه مسلم [٣٥٠٢١٧١] .

وعن أبي أيوب قال : لما نزل على رسول الله ﷺ قلت : بأبي أنت وأمي إني أكره أن أكون فوقك وتكون أسفل مني . فقال رسول الله ﷺ : إني أرفق بي أن أكون في السفلى لما يغشانا من الناس . قال : فلقد رأيت جرة لنا انكسرت فأهريق ماؤها فقامت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء ؛ فرقاً أن يصل إلى رسول الله ﷺ شيء يؤذيه أخرجه الحاكم في المستدرک [٤٦١/٣] واللفظ له ، وقال : حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . ووافقه الذهبي وأخرجه الطبراني في الكبير [٣٨٥٥/٤] وذكره ابن هشام في السيرة [١٢٣/٢] ، والبيهقي في الدلائل [٥١٠/٢] .

= وقد أفادت رواية ابن سعد أن مقامه بدار أبي أيوب سبعة (١) أشهر .

وقد اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين (٢) . وآثروهم على أنفسهم ، فنالوا من الثناء العظيم الذى خلد ذكرهم على مر الدهور وتعالى الأجيال ، إذ ذكر الله ماثرتهم فى قرآن يتلوه الناس : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٣) [الحشر : ٩] .
وقد أثنى رسول الله ﷺ على الأنصار ثناء عظيماً فقال : « لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار » (٤) .

وقال أيضاً : « لو سلكت الأنصار وادياً أو شعباً لسلكت وادى الأنصار أو شعبهم » (٥) .

السيرة النبوية الصحيحة : [٢١٨/١-٢٢٠] بتصرف . =

(١) ذكره ابن سعد فى الطبقات الكبرى [٢٣٧/١]

(٢) عن أم العلاء رضى الله عنهما : أن عثمان بن مظعون طار لهم فى السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين . جزء من حديث أخرجه البخارى [٣٩٢٩] .

(٣) عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، أصابنى الجهد فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً ، فقال رسول الله ﷺ : ألا رجل يضيفه الليلة يرحمه الله ؟ فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله ، فذهب إلى أهله فقال لامرأته : ضيف رسول الله ﷺ ، لا تدخرينه شيئاً ، فقالت : والله ما عندى إلا قوت الصبية . قال : فإذا أراد الصبية العشاء فتوميهم ، وتعالى فأطفئ السراج ونطوى بطوننا الليلة . ففعلت . ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال : لقد عجب الله عز وجل - أو ضحك - من فلان وفلانة . فأنزل الله عز وجل ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ . أخرجه البخارى [٤٨٨٩] واللفظ له ، ومسلم [١٧٣/٢٠٥٤]

(٤) جزء من حديث أخرجه البخارى [٣٧٧٩] عن أبي هريرة رضى الله عنه .

(٥) جزء من حديث أخرجه البخارى [٣٧٧٨] عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

= وقال ابن القيم : وبلغ الأنصار مخرج رسول الله ﷺ من مكة ، وقصده المدينة . وكانوا يخرجون كل يوم إلى الحرة ينتظرونه أول النهار ، فإذا اشتد حر الشمس ، رجعوا على عاداتهم إلى منازلهم ، فلما كان يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول على رأس ثلاث عشرة سنة من النبوة ، خرجوا على عاداتهم ، فلما حمى حر الشمس رجعوا ، وصعد رجل من اليهود على أطم من أطام المدينة لبعض شأنه ، فرأى رسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين ، يزول بهم السراب ، فصرخ بأعلى صوته : يا بني قيلة ، هذا صاحبكم قد جاء ، هذا جدكم الذي تنتظرونه ، فبادر الأنصار إلى السلاح ليتلقوا رسول الله ﷺ ، وسمعت الرجة والتكبير في بني عمرو ابن عوف ، وكبر المسلمون فرحاً بقدومه ، وخرجوا للقاءه ، فتلقوه وحيوه بتحية النبوة ، فأحدقوا به مطيفين حوله ، والسكينة تغشاه ، والوحي ينزل عليه : ﴿ إِن تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمُ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحریم : ٤] ، فسار حتى نزل بقاء في بني عمرو ابن عوف ، فنزل على كلثوم الهدم .

وقيل : بل على سعد بن خيثمة ، والأول أثبت ، فأقام في بني عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة وأسس مسجد بقاء ، وهو أول مسجد ، أسس بعد النبوة .

فلما كان يوم الجمعة ركب بأمر الله له ، فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف ، فجمع بهم في المسجد الذي في بطن الوادي .

ثم ركب ، فأخذوا بخطام راحلته ، هلم إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة . فقال : « خلوا سبيلها ، فإنها مأمورة » .

فلم تزل ناقته سائرة به لا تمر بدار من دور الأنصار إلا رغبوا إليه في النزول عليهم ، ويقول : « دعوها فإنها مأمورة » .

فسارت حتى وصلت إلى موضع مسجده اليوم ، وبركت ، ولم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلاً ، ثم التفت ، فرجعت ، فبركت في موضعها الأول ، =

= فنزل عنها ، وذلك في بني النجار أخواله ﷺ^(١) . وكان من توفيق الله لها ، فإنه أحب أن ينزل على أخواله ، يكرمهم بذلك ، فجعل الناس يكلمون رسول الله ﷺ في النزول عليهم ، وبإدراك أبي أيوب الأنصاري إلى رحله ، فأدخله بيته ، فجعل رسول الله ﷺ يقول : « المرء مع رحله » .

وجاء أسعد بن زرارة ، فأخذ بزمام راحلته . وكانت عنده^(٢) وأصبح كما قال أبو قيس صرمة الأنصاري ، كان ابن عباس يختلف إليه يتحفظ منه هذه الآيات :

ثوى في قريش بضع عشرة حجة	يذكر لو يلقى حييّا مواتيا
ويعرض في أهل المواسم نفسه	فلم ير من يؤوى ولم ير داعيا
فلما أتانا واستقرت به النوى	وأصبح مسرورا بطية راضيا
وأصبح لا يخشى ظلامة ظالم	بعيد ولا يخشى من الناس باغيا
بذلنا له الأموال من حل مالنا	وأنفسنا عند الوغى والتأسيا
نعادى الذى عادى من الناس كلهم	جميعا وإن كان الحبيب المصافيا
ونعلم أن الله لا رب غيره	وأن كتاب الله أصبح هاديا

قال ابن عباس : كان رسول الله ﷺ بمكة ، فأمر بالهجرة وأنزل عليه : ﴿ وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِّىْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا ۝ ﴾^(٣) . =

(١) سبق تخريجه .

(٢) ذكره ابن سعد في الطبقات الكبرى [٢٢٣/١] : وجاء أبو أيوب خالد بن زيد بن كليب فحط رحله فأدخله منزله ، فجعل رسول الله ﷺ يقول : « المرء مع رحله » وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام راحلة رسول الله ﷺ فكانت عنده .

(٣) أخرجه الترمذى [٣١٣٩] وقال : حديث حسن صحيح ، وقال الألبانى فى ضعيف الترمذى [٦١١] : ضعيف الإسناد . وأخرجه الحاكم فى المستدرک [٣/٣] وقال : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى .

= قال قتادة : أخرجه الله من مكة إلى المدينة مخرج صدق ونبي الله يعلم أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان ، فسأل الله سلطاناً نصيراً ، وأراه الله عز وجل دار الهجرة ، وهو بمكة فقال : « رأيت دار هجرتكم بسبخة ذات نخل بين لابتين »^(١) . وذكر الحاكم في « مستدركه » عن علي بن أبي طالب أن النبي ﷺ قال لجبريل : « من يهاجر معي ؟ » قال : أبو بكر الصديق^(٢) .

قال البراء : أول من قدم علينا من أصحاب رسول الله ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم ، فجعلوا يقرئان الناس القرآن ، ثم جاء عمار وبلال وسعد ، ثم جاء عمر ابن الخطاب رضي الله تعالى عنه في عشرين راكباً ، ثم جاء رسول الله ﷺ ، فما رأيت الناس فرحوا بشيء كفرحهم به حتى رأيت النساء والصبيان والإماء يقولون : هذا رسول الله قد جاء^(٣) .

وقال أنس : شهدته يوم دخل المدينة فما رأيت يوماً قط ؛ كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل المدينة علينا ، وشهدته يوم مات ، فما رأيت يوماً قط ، كان أقبح ولا أظلم من يوم مات^(٤) .

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري [٢٢٩٧] عن عائشة رضي الله عنها بلفظ : « قد رأيت دار هجرتكم رأيت سبخة ذات نخل بين لابتين ، وهما الحرتان » .
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک [٥/٣] وقال : حديث صحيح الإسناد والمتن ولم يخرجاه ، وقال الذهبي : صحيح غريب .

(٣) أخرجه البخاري [٣٩٢٥] بلفظ : « أول من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم وكانوا يقرئون الناس ، فقدم بلال وسعد وعمار بن ياسر . ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين من أصحاب النبي ﷺ ، ثم قدم النبي ﷺ ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ ، حتى جعل الإماء يقلن : قدم رسول الله ﷺ ، فما قدم حتى قرأت ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ [الأعلى : ١] في سور من المفصل »

(٤) أخرجه أحمد في المسند [٢٤٠/٣] بلفظ : « شهدته عليه الصلاة والسلام يوم دخل علينا المدينة فلم أر يوماً أضوأ منه ، ولا أحسن منه وشهدته يوم مات فلم أر يوماً أقبح منه » . وأخرجه الدارمي في سننه [٨٩] .

.....

= فأقام في منزل أبي أيوب حتى بنى حجره ومسجده ، وبعث رسول الله ﷺ وهو في منزل أبي أيوب زيد بن حارثة وأبا رافع ، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم إلى مكة فقدا عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه ، وسودة بنت زمعة زوجته ، وأسامة ابن زيد ، وأمه أم أيمن ، وأما زينب بنت رسول الله ﷺ فلم يكنها زوجها أبو العاص بن الربيع من الخروج ، وخرج عبد الله بن أبي بكر معهم بعيال أبي بكر ، ومنهم عائشة فنزلوا في بيت حارثة بن النعمان^(١) .

زاد المعاد [٥٨/٣-٦١] .

(١) ذكر ذلك ابن سعد في الطبقات الكبرى [٢٣٧/١، ٢٣٨] .

بناء المسجد النبى الشريف

كان رسول الله ﷺ يصلى حيث أدركته الصلاة ، ثم أمر ببناء المسجد فى أرض كان فيها نخل لغلामين يتيمن من بنى التجار . وقد اشتراها رسول الله ﷺ ، وقام المسلمون بتسويتها وقطع نخيلها وصفقا الحجارة فى قبة المسجد ، وما أعظم سرورهم وهم يعملون فى بناءه ورسول الله ﷺ يعمل معهم وهم يرتجزون :

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة^(١)

وقد بناه أولاً بالجريد ثم بناه باللين بعد الهجرة بأربع سنين .

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نزل فى علو المدينة ، فى حى يقال لهم : بنو عمرو بن عوف ، قال : فأقام فيهم أربع عشرة ليلة ، ثم أرسل إلى ملأ بنى التجار ، قال : فجاءوا متقلدى سيوفهم . قال : وكأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ على راحلته وأبو بكر ردفه وملأ بنى التجار حوله حتى ألقى بفناء أبى أيوب ، قال : فكان يصلى حيث أدركته الصلاة ويصلى فى مرابض الغنم . قال : ثم إنه أمر ببناء المسجد ، فأرسل إلى ملأ بنى التجار ، فجاءوا . فقال : « يا بنى التجار ، ثامنوني حائطكم هذا » ، فقالوا : لا والله ولا نطلب ثمنه إلا إلى الله تعالى .

قال : « فكان فيه ما أقول لكم : كانت فيه قبور المشركين ، وكانت فيه خرب ، وكان فيه نخل . فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت ، وبالخرب فمسويت ، وبالنخل فقطع ، قال : فصفروا النخل قبة المسجد ، قال : وجعلوا عضادتيه حجارة . قال : جعلوا ينقلون ذاك الصخر وهم يرتجزون ورسول الله ﷺ معهم يقولون :

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة

أخرجه البخارى [٣٩٣٢] .

وعن عروة بن الزبير قال : « فلبث رسول الله ﷺ فى بنى عمرو بن عوف بضعة عشرة ليلة ، وأسس المسجد الذى أسس على التقوى ، وصلى فيه رسول الله ﷺ . ثم ركب =

= راحلته ، فسار يمشى معه الناس ، حتى بركت عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة ، وهو يصلى فيه يومئذ رجال من المسلمين ، وكان مريداً للتمر لسهيل وسهل : غلامين يتيمين فى حجر سعد بن زرارة ، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته : « هذا إن شاء الله المنزل » . ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذنه مسجداً ، فقالا : لا بل نهيه لك يا رسول الله ، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ، ثم بناه مسجداً ، وطلق رسول الله ﷺ يتقل معهم اللين فى بنيانه ويقول :

هذا الجمال لا جمال خبير هذا أبر ربنا وأطهر

ويقول :

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة

فتمثل بشعر رجل من المسلمين لم يسم لى . أخرجه البخارى [٣٩٠٦] .

وقال الحافظ : قوله : « وأسس المسجد الذى أسس على التقوى » أى مسجد قباء ، وفى رواية عبد الرزاق عن مغير عن ابن شهاب عن عروة قال : الذين بنى فيهم المسجد الذى أسس على التقوى هم بنو عمرو بن عوف ، وكذا فى حديث ابن عباس عند ابن عائد ولفظه : « ومكث فى بنى عمرو بن عوف ثلاث ليال واتخذ مكانه مسجداً فكان يصلى فيه ، ثم بناه بنو عمرو بن عوف فهو الذى أسس على التقوى » وروى يونس بن بكير فى « زيادات المغازى » عن السعوى عن الحكم بن عتيبة قال : « لما قدم النبي ﷺ فترل بقباء قال عمار بن ياسر : ما لرسول الله ﷺ بد من أن يجعل له مكاناً يستظل به إذا استيقظ ويصلى فيه ، فجمع حجارة فبنى مسجد قباء ، فهو أول مسجد بنى » يعنى بالمدينة ، وهو فى التحقيق أول مسجد صلى النبي ﷺ فيه بأصحابه جماعة ظاهراً ، وأول مسجد بنى لجماعة المسلمين عامة ، وإن كان قد تقدم بناء غيره من المساجد لكن لخصوص الذى بناها كما تقدم فى حديث عائشة فى بناء أبى بكر مسجده .

وروى ابن أبى شيبه عن جابر قال : « لقد لبثنا بالمدينة قبل أن يقدم علينا رسول الله ﷺ بسنين نعلم المساجد ونقيم الصلاة » وقد اختلف فى المراد بقوله تعالى : ﴿ أَسَّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ [التوبة : ١٠٨] فالجمهور على أن المراد به مسجد قباء هذا وهو ظاهر الآية ، وروى مسلم من طريق عبد الرحمن بن أبى سعيد عن أبيه : =

= « سألت رسول الله ﷺ عن المسجد الذي أسس على التقوى فقال : هو مسجدكم هذا »^(١)
ولأحمد والترمذى من وجه آخر عن أبى سعيد «اختلف رجلان فى المسجد الذى أسس
على التقوى فقال أحدهما : هو مسجد النبى ﷺ ، وقال الآخر : هو مسجد قباء ، فأتيا
رسول الله ﷺ فسألاه عن ذلك فقال : هو هذا ، وفى ذلك - يعنى مسجد قباء - خير
كثير»^(٢) ، ولأحمد عن سهل بن سعد نحوه ، وأخرجه من وجه آخر عن سهل بن سعد
عن أبى بن كعب مرفوعاً ، قال القرطبى : هذا السؤال صدر ممن ظهرت له المساواة بين
المسجدين فى اشتراكهما فى أن كلا منهما بناه النبى ﷺ ، فلذلك سئل النبى ﷺ عنه
فأجاب بأن المراد مسجده ، وكأن المزية التى اقتضت تعيينه دون مسجد قباء لكون
مسجد قباء لم يكن بناؤه بأمر جزم من الله لنبىه ، أو كان رأياً رآه بخلاف مسجده ، أو
كان حصل له أو لأصحابه فيه من الأحوال القلبية ما لم يحصل لغيره ، انتهى .

ويحتمل أن تكون المزية لما اتفق من طول إقامته ﷺ بمسجد المدينة ، بخلاف مسجد قباء
فما أقام به إلا أياماً قلائل ، وكفى بهذا مزية من غير حاجة إلى ما تكلفه القرطبى ، والحق
أن كلا منهما أسس على التقوى ، وقوله تعالى فى بقية الآية : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ
يَتَطَهَّرُوا ﴾ [التوبة : ١٠٨] يؤيد كون المراد مسجد قباء .

وعند أبى داود بإسناد صحيح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « نزلت ﴿ فِيهِ رِجَالٌ
يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ﴾ فى أهل قباء »^(٣) وعلى هذا فالسر فى جوابه ﷺ بأن المسجد
الذى أسس على التقوى مسجده رفع توهم أن ذلك خاص بمسجد قباء ، والله أعلم .
قال الداودى وغيره : ليس هذا اختلافاً ؛ لأن كلا منهما أسس على التقوى وكذا قال
السهيلى وزاد غيره أن قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ يقتضى أنه مسجد قباء ؛ لأن
تأسيسه كان فى أول يوم حل النبى ﷺ بدار الهجرة ، والله أعلم .

فتح البارى [٦٥٦، ٦٥٧/٧] .

(١) أخرجه مسلم [١٣٩٨/٥١٤] .

(٢) رواه أحمد فى المسند [٨/٣] ، والترمذى [٣٢٣] وصححه ، واللفظ له . وصححه
الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٦٦] .

(٣) رواه أبو داود [٤٤] ، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٣٤] .

.....
= كانت الهجرة قاسية الوقع على المهاجرين . وقف رسول الله ﷺ بالحزورة في سوق مكة فقال : « واللّٰه إنك لخير أرض اللّٰه وأحب أرض اللّٰه إلّٰى ، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت » (١) .

لقد واجه المهاجرون من مكة صعوبة اختلاف المناخ ، فالمدينة بلدة زراعية ، تغطى أراضيها بساتين النخيل ، ونسبة الرطوبة في نجوها أعلى من مكة ، وقد أصيب العديد من المهاجرين بالحمى منهم أبو بكر وبلال . فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شرك نعله .

وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى يرفع عقيرته يقول :

ألا ليت شعري هل أبيت ليلة بواد وحولى إذخر وجليل

وهل أردن يوماً مياه مجنة وهل يبدون لى شامة وطفيل

فأخبرت عائشة رضی اللّٰه عنها رسول الله ﷺ فقال : « اللهم حبّب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، وصححها ، وبارك لنا في صاعها ومدّها ، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة » (٢) .
السيرة النبوية الصحيحة [٢٢٢، ٢٢٣] .

(١) أخرجه الترمذى [٣٩٢٥] وقال : حديث حسن غريب صحيح ، وابن ماجه [٣١٠٨] واللفظ له ، عن عبد الله بن عدى بن الحمراء . وصححه الألبانى في صحيح ابن ماجه [٢٥٢٣] .

(٢) عن عائشة رضی اللّٰه عنها قالت : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال . قالت : فدخلت عليهما ، فقلت : يا أبت كيف تجدك ؟ ويا بلال كيف تجدك ؟ قالت : فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شرك نعله

وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول :

ألا ليت شعري هل أبيت ليلة بواد وحولى إذخر وجليل

= وهل أردن يوماً مياه مجنة وهل يبدون لى شامة وطفيل

= وقال ابن القيم فى بناء المساجد :

قال الزهرى : بركت ناقة النبی ﷺ موضع مسجده وهو يومئذ يصلى فيه رجال من المسلمين ، وكان مربداً لسهل وسهيل غلامين يتيمن من الأنصار ، كانا فى حجر أسعد ابن زرارة ، فسام رسول الله ﷺ الغلامين بالمربد ، ليتخذ مسجداً ، فقالا : بل نهيه لك يا رسول الله ، فأبى رسول الله ﷺ ، فابتاعه منهما بعشرة دنانير ، وكان جداراً ليس له سقف ، وقبلته إلى بيت المقدس ، وكان يصلى فيه ويجمع أسعد بن زرارة قبل مقدم رسول الله ﷺ ، وكان فيه شجرة غرقد ونخرب ونخل وقبور للمشركين ، فأمر رسول الله ﷺ بالقبور فنبشت ، وبالنخرب فسويت وبالنخل والشجر ققطعت وصفت فى قبة المسجد ، وجعل طوله مما يلى القبلة إلى مؤخره مائة ذراع ، والجانبين مثل ذلك أو دونه ، وجعل أساسه قريباً من ثلاثة أذرع ، ثم بنوه باللبن ، وجعل رسول الله ﷺ يبنى معهم ، وينقل اللبن والحجارة بنفسه ويقول :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

وكان يقول :

هذا الجمال لا جمال خبير هذا أير ربنا وأطهر^(١)

وجعلوا يرتجزون ، وهم ينقلون اللبن ، ويقول بعضهم فى رجزه :

لكن قعدنا والرسول يعمل لئلك منا العمل المصلل

وجعل قبلته إلى بيت المقدس ، وجعل له ثلاثة أبواب : باباً فى مؤخره ، وباباً يقال له : باب الرحمة ، والباب الذى يدخل منه رسول الله ﷺ ، وجعل عمده الجذوع ، =

= قالت عائشة : فبشت رسول الله ﷺ فأخبرته ، فقال : « اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا

مكة أو أشد ، وصححها ، وبارك لنا فى صاعها وملعها ، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة » .

أخرجه البخارى [٣٩٢٦] .

(١) أخرجه ابن سعد فى الطبقات الكبرى [٢٣٩/١] .

.....
= وسقفه بالجريد ، وقيل له : ألا تسقفه ، فقال : « لا عريش كعريش موسى » وبني
إلى جنبه بيوت أزواجه باللبن ، وسقفها بالجريد والجذوع ، فلما فرغ من البناء بني
بعائشة في البيت الذي بناه لها شرقي المسجد قبله ، وهو مكان حجرته اليوم ،
وجعل لسودة بنت زمعة بيتاً آخر^(١).

زاد المعاد [٦٣، ٦٢/٣] .

(١) ذكره ابن سعد في الطبقات الكبرى [٢٤٠/١] .

معاهدة الرسول ﷺ مع اليهود في المدينة

قال الشيخ في قصيدة موكب النور:

فاقض فيما لنا بما أنت قاض ذاك حق الأنصار في كل دار
جلجل الحق قوة وحجاً واضحاً نهجاً وضوح النهار
فدّها الشرك ما دهاء وخرّت جبهة الغي في سحيق القرار

لقد نظم النبي ﷺ العلاقات بين سكان المدينة ، وكتب في ذلك كتاباً أوردته المصادر التاريخية ، واستهدف هذا الكتاب أو الصحيفة توضيح التزامات جميع الأطراف داخل المدينة ، وتحديد الحقوق والواجبات ، وقد سُميت في المصادر القديمة بالكتاب والصحيفة ، وأطلقت الأبحاث الحديثة عليها لفظة الدستور والوثيقة .

طرق ورود الوثيقة « الصحيفة » :

وقد اعتمد الباحثون المعاصرون على الوثيقة في دراسة تنظيمات الرسول ﷺ في المدينة المنورة ولكن من الضروري جداً التأكد أولاً من مدى صحة الوثيقة قبل أن تبنى عليها الدراسات ، خاصة أن أحد الباحثين يرى أن الوثيقة موضوعة . ونظراً لأهمية الوثيقة التشريعية إلى جانب أهميتها التاريخية ، فلا بد من تحكيم مقاييس أهل الحديث فيها لبيان درجة قوتها أو ضعفها ، وما ينبغي أن يتساهل فيها كما يفعل مع الروايات والأخبار التاريخية الأخرى . إن أقدم من أورد نص الوثيقة كاملاً هو محمد بن إسحاق « ت ١٥١ هـ » لكنه أوردتها دون إسناد ^(١) . وقد صرح بنقلها عنه كل من ابن سيد الناس ^(٢) وابن كثير ^(٣) فوردت عندهما دون إسناد أيضاً ، وقد ذكر البيهقي إسناد ابن إسحاق للوثيقة التي تحدد العلاقات بين =

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام [١٢٦/٢-١٢٩] .

(٢) انظر : عيون الأثر [١٩٧/١-١٩٨] .

(٣) انظر : البداية والنهاية [٢٢٤/٣-٢٢٦] .

.....
= المهاجرين والأنصار دون البنود التي تتعلق باليهود؛ لذلك لا يمكن الجزم بأنه أخذها من نفس هذه الطريق أيضاً . وقد ذكر ابن سيد الناس أن ابن أبي خيثمة ^(١) أورد الكتاب « الوثيقة » فأسنده بهذا الإسناد : « حدثنا أحمد بن خباب أبو الوليد حدثنا عيسى بن يوسف حدثنا كثير ابن عبد الله بن عمرو المزني عن أبيه عن جده . أن رسول الله ﷺ كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار فذكر بنحوه - أي بنحو - الكتاب الذي أورده ابن إسحاق ^(٢) ، ولكن يبدو أن الوثيقة وردت في القسم المفقود من تاريخ ابن أبي خيثمة إذ لا وجود لها فيما وصل إلينا منه . كذلك وردت الوثيقة في كتاب الأموال لأبي عبيد القاسم ابن سلام بإسناد آخر هو : « حدثني يحيى بن عبد الله بن بكير وعبد الله بن صالح قالوا : حدثنا الليث بن سعد قال : حدثني عقيل بن خالد عن ابن شهاب أنه قال : بلغني أن رسول الله ﷺ كتب بهذا الكتاب .. » ^(٣) وسرده .

كما وردت الوثيقة في كتاب الأموال لابن زنجويه من طريق الزهري أيضاً . هذه هي الطرق التي وردت منها الوثيقة بنصها الكامل ، والتطابق كبير بين سائر الروايات سوى بعض التقديم والتأخير في العبارات أو اختلاف بعض المفردات أو زيادة بنود قليلة ، ولا يؤثر هذا الاختلاف على مضمونها العام .
مدى صحة الوثيقة :

اعتمد عدد من الباحثين المعاصرين على الوثيقة فبنوا عليها دراساتهم ، في حين ذهب الأستاذ يوسف العش إلى أن الوثيقة موضوعة فهو يقول : « إنها لم ترد في كتب الفقه والحديث الصحيح رغم أهميتها التشريعية ، بل رواها ابن إسحاق بدون إسناد ، ونقلها عنه ابن سيد الناس ، وأضاف أن كثير بن عبد الله بن عمرو =

(١) هو الحافظ الحجة الإمام أحمد بن أبي خيثمة زهير بن حرب النسائي المتوفى سنة ٢٧٩ هـ .

(٢) انظر : عيون الأثر [١٩٨/١] .

(٣) انظر : الأموال [٥١٧] .

.....
= المزني روى هذا الكتاب عن أبيه عن جده . وقد ذكر ابن حبان البستي : أن كثير المزني روى عن أبيه عن جده نسخة موضوعة لا يحل ذكرها في الكتب ولا الرواية عنها إلا على جهة التعجب . ويرى العش أن ابن إسحاق اعتمد على رواية كثير لكنه تعمد حذف الإسناد .

لقد ذهب الأستاذ العش إلى ذلك؛ لأنه تصور أن الوثيقة لم يروها غير ابن إسحاق ولم يعثر على إسناد لها سوى ما ذكره ابن سيد الناس من رواية ابن أبي خيثمة لها من طريق كثير المزني . لكن أبا عبيد القاسم بن سلام أورد الوثيقة من طريق الزهري وهي طريق مستقلة لا صلة لها بكثير المزني . ونظراً لكون ابن إسحاق من أبرز تلاميذ الزهري ، فإن ثمة احتمالاً لأن يكون قد أورد الوثيقة من طريقه ، لولا أن البيهقي ذكر إسناد ابن إسحاق للوثيقة التي تحدد العلاقات بين المهاجرين والأنصار دون أن تتناول البنود المتعلقة بيهود ، ولا يمكن الجزم بأن ابن إسحاق أخذ البنود المتعلقة بيهود من هذه الطرق أم من طريق أخرى . فقال البيهقي : « أخبرني أبو عبد الله الحافظ ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ثنا أحمد بن عبد الجبار ثنا يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال حدثني عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأحنس بن شريق قال : أخذت من آل عمر ابن الخطاب هذا الكتاب كان مقروناً بكتابه الصدقة » والحديث بهذا الإسناد ضعيف؛ لأن عثمان تحملها وجادة وفي الإسناد رجال فيهم ضعف مثل عثمان فهو صدوق له أوهام ويونس بن بكير يخطئ . والعتار ضعيف وتحمله للسيرة صحيح . فالرواية على ضعفها صالحة للاعتبار وقد توبعت ، وإن هذا النص يهدم الأساس الذي بنى عليه الأستاذ العش رأيه . كما أنه لا يمكن الحكم على الوثيقة بأنها موضوعة ؛ لأن كتب الحديث لم ترو نصها كاملاً! فقد أوردت كتب الحديث مقتطفات كثيرة منها تغطي عدداً كبيراً من بنودها كما سيرد خلال البحث . وبذلك يتبين أن الحكم بوضع الوثيقة مجازفة ، ولكن الوثيقة لا ترقى بمجموعها إلى مرتبة الأحاديث الصحيحة ، فابن إسحاق في سيرته رواها دون إسناد مما يجعل =

= روايته ضعيفة وأوردها البيهقي من طريق آخر تصلح أساساً للدراسة التاريخية التي لا تتطلب درجة الصحة التي تقتضيها الأحكام الشرعية ، خاصة أن الوثيقة وردت من طرق عديدة تتضافر في إكسابها القوة ، كما أن الزهري علم كبير من الرواد الأوائل في كتابة السيرة النبوية . ثم إن أهم كتب السيرة ومصادر التاريخ ذكرت موادعة النبي ﷺ لليهود وكتابه بينه وبينهم كتاباً^(١) . كما ذكرت كتابته المهاجرين والأنصار أيضاً .

كذلك فإن أسلوب الوثيقة ينم عن أصالتها « فنصوصها مكونة من كلمات وتعابير كانت مألوفة في عصر الرسول ﷺ ثم قل استعمالها فيما بعد حتى أصبحت مغلقة على غير المتعمقين في دراسة تلك الفترة . وليس في هذه الوثيقة نصوص تمدح أو تقدح فرداً أو جماعة ، أو تخص أحداً بالإطراء أو الذم؛ لذلك يمكن القول بأنها وثيقة أصلية وغير مزورة » . ثم إن التشابه الكبير بين أسلوب الوثيقة وأساليب كتب النبي ﷺ الأخرى يعطيها توثيقاً آخر .

السيرة النبوية الصحيحة : [٢٧٢/١-٢٧٥] .

(١) يراجع للمقارنة كتاب « مجموعة الوثائق السياسية » .

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٣] .
ألف الله بين قلوب المسلمين ، فأصبح الإسلام أقوى رابطة تربط بينهم .
فأصبحت أخوة الدين أقوى من أخوة النسب . وحين تتآلف القلوب ؛ فهذا أقوى رباط ؛ لأن كل عمل يقوم به الإنسان إنما ينشأ عن عقيدة في القلب .
إن القلب هو مصدر النية التي يتبعها السلوك ، فالذي يثير إنساناً ضدك إنما هو القلب ، فإن وجدت إنساناً يعبس في وجهك ، فافهم أن في قلبه شيئاً من ناحيتك .

فالقلب هو ينبوع لكل المشاعر ، ولذلك نرى الإنسان يُضْحِي بكل شيء في سبيل ما آمن به واعتقده . والتأليف بين القلوب هو جماع التواد والمساندة ، والرسول ﷺ يقول في الحديث الذي يرويه عنه النعمان بن بشير رضي الله عنهما : « ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » (١) .

ولم تكن المسألة في تأليف القلوب مسألة احتياج إلى مال ؛ لأن المال لا يمكن أن يعطى الحب الحقيقي ، ولذلك فهناك بين الناس ارتباط مصالح ، وارتباط عقيدة مستقرة في القلوب ، وارتباط المصالح ينتهي بمجرد أن تهتز أو تنتهي هذه المصالح ، لكن ارتباط العقيدة تزيد الأزمات قوة وصلابة ، وأنت لا تستطيع أن تجعل إنساناً يحبك مهما أعطيته من مال ؛ لأن الحب

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري [٥٢] واللفظ له ، ومسلم [١٠٧/١٥٩٩] .

الحقيقى لا يشتري ولا يباع ، إنما يشتري النفاق والتظاهر ، والمؤمنون الذين ألف الله بين قلوبهم لم يكن يهمهم المال بقدر ما يهمهم نصرة دين الله الذى آمنوا به ، ونصرة رسول الله ﷺ الذى صدقوه .

والرسول ﷺ يعلم أن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كما شاء^(١) ؛ لذا كان أكثر دعائه ﷺ : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك »^(٢) فكان صلوات الله وسلامه عليه من أول الأعمال التى قام بها بعد استقراره بالمدينة المنورة أن آخى بين المهاجرين والأنصار حتى أن المهاجر كان يرث الأنصارى بالأخوة التى آخى رسول الله ﷺ بينهم إلى أن نزلت آية المواريث ، فأبطلت ذلك وكان من الفوائد العظيمة لهذه الأخوة الإيمانية إزالة الوحشة والغربة عن المهاجرين نتيجة مفارقتهم الأهل والعشيرة^(٣) .

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن قلوب بنى آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد ، يصرفه حيث يشاء » .

(٢) جزء من حديث أخرجه الترمذى [٣٥٢٢] عن أم سلمة رضى الله تعالى عنها ، وقال : حديث حسن . وقال الألبان فى صحيح الترمذى [٢٨٢١] : حسن صحيح .

(٣) جاء فى صحيح البخارى : باب « كيف آخى النبى ﷺ بين أصحابه » ؟ وقال عبد الرحمن بن عوف : « آخى النبى ﷺ بينى وبين سعد بن الربيع لما قدمنا المدينة » .

وقال أبو جحيفة : « آخى النبى ﷺ بين سلمان وأبى الدرداء » .
وعن أنس رضى الله تعالى عنه قال : « قدم عب الرحمن بن عوف فأخى النبى ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصارى ؛ فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله ، فقال عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، دلنى على السوق . فربح شيئاً من أقط وسمن ، فرآه النبى ﷺ بعد أيام وعليه وضر من صفرة . =

= فقال النبي ﷺ : « مهيم يا عبد الرحمن ؟ » .

قال : يا رسول الله ، تزوجت امرأة من الأنصار .

قال : « فما سقت فيها ؟ »

فقال : وزن نواة من ذهب .

فقال النبي ﷺ : « أولم ولو بشاة » (١) .

وقال الحافظ فى الفتح : قال ابن عبد البر : كانت المؤاخاة مرتين : مرة بين

المهاجرين خاصة وذلك بمكة ، ومرة بين المهاجرين والأنصار فهى المقصودة هنا .

وذكر ابن سعد بأسانيد الواقدي إلى جماعة من التابعين قالوا : لما قدم النبي ﷺ

المدينة آخى بين المهاجرين ، وآخى بين المهاجرين والأنصار على المواساة ، وكانوا

يتوارثون ، وكانوا تسعين نفساً بعضهم من المهاجرين وبعضهم من الأنصار .

وقيل : كانوا مائة ، فلما نزل : ﴿ وَأَوْلُوا الْأَرْحَامَ ﴾ [الأنفال : ٧٥] بطلت

الموارث بينهم بتلك المؤاخاة .

قلت : وسيأتى فى الفرائض من حديث ابن عباس « لما قدموا المدينة كان يرث

المهاجرى الأنصارى دون ذوى رحمه بالأخوة التى آخى رسول الله ﷺ بينهم ،

فنزلت » (٢) .

قال السهيلي : آخى بين أصحابه ليذهب عنهم وحشة الغربة ، ويتأنسوا من

مفارقة الأهل والعشيرة ، ويشد بعضهم أزر بعض ، فلما عز الإسلام واجتمع

الشمل وذهبت الوحشة أبطل الموارث ، وجعل المؤمنين كلهم إخوة وأنزل : =

(١) أخرجه البخارى [٣٩٣٧] .

(٢) أخرجه البخارى [٦٧٤٧] عن ابن عباس : ﴿ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ

وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ ﴾ [النساء : ٣٣] قال : كان المهاجرون حين

قدموا المدينة يرث الأنصارى المهاجرى دون ذوى رحمه للأخوة التى آخى النبي ﷺ

بينهم ، فلما نزلت : ﴿ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ ﴾ قال : نسختها : ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ

أَيْمَنُكُمْ ﴾ .

.....
= ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] يعنى فى التوادد وشمول الدعوة ،
واختلفوا فى ابتدائها :

ف قيل : بعد الهجرة بخمسة أشهر . وقيل : بتسعة ، وقيل : وهو بينى المسجد ،
وقيل : قبل بنائه ، وقيل : بسنة وثلاثة أشهر قبل بدر .

وعند أبي سعيد فى « شرف المصطفى » كان الإخاء بينهم فى المسجد ، وذكر
محمد بن إسحاق المؤاخاة فقال : « قال رسول الله ﷺ لأصحابه بعد أن هاجر :
تأخوا أخوين ، فكان هو وعلى أخوين ، وحمزة وزيد بن حارثة أخوين ، وجعفر بن
أبى طالب ومعاذ بن جبل أخوين » وتعقبه ابن هشام بأن جعفرأ كان يومئذ بالحبيشة ،
وفى هذا نظر ووجهها العماد ابن كثير بأنه أرصده لأخوته حتى يقدم ، وفى تفسير
سنيد : أخى بين معاذ وابن مسعود ، وأبو بكر وخارجة بن زيد أخوين ، وعمر
وعتب بن مالك أخوين ، وقد تقدم فى أوائل الصلاة قول عمر : « كان لى أخ من
الأنصار » وفسر بعتب . ان ، ويمكن أن يكون أخوته له تراخ .ت كما فى أبى الدرداء
وسلمان . ومصعب ابن عمير وأبو أيوب أخوين ، وأبو حذيفة بن عتبة وعباد بن بشر
أخوين ، ويقال : بل عمار وثابت بن قيس لأن حذيفة إنما أسلم زمان أحد ،
وأبو ذر والمنذر بن عمرو أخوين ، وتعقب بأن أبا ذر تأخرت هجرته ، والجواب
كما فى جعفر ، وحاطب بن أبى بلتعة وعويم بن ساعدة أخوين وسلمان
وأبو الدرداء أخوين ، وتعقب بأن سلمان تأخر إسلامه وكذا أبو الدرداء ، والجواب
ما تقدم فى جعفر .

وكان ابتداء المؤاخاة أوائل قدومه المدينة ، واستمر يجردها بحسب من يدخل فى
الإسلام أو يحضر إلى المدينة ، والإخاء بين سلمان وأبى الدرداء صحيح كما فى
الباب وعند ابن سعد : وأخى بين أبى الدرداء ، وعوف بن مالك وسنده ضعيف ،
والمعتمد ما فى الصحيح ، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع مذكور فى هذا
الباب ، وسمى ابن عبد البر جماعة آخرين .
=

= وأنكر ابن تيمية في كتاب الرد على ابن المطهر الرافضي المؤاخاة بين المهاجرين وخصوصاً مؤاخاة النبي ﷺ لعلّى قال : لأن المؤاخاة شرعت لإرفاق بعضهم ولتأليف قلوب بعضهم ، فلا معنى لمؤاخاة النبي لأحد منهم ولا لمؤاخاة مهاجري لمهاجري ، وهذا رد للنص بالقياس وإغفال عن حكمة المؤاخاة؛ لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة والقوى فأخى بين الأعلى والأدنى ليرتفق الأدنى بالأعلى ويستعين الأعلى بالأدنى وبهذا تظهر مؤاخاته ﷺ لعلّى لأنه هو الذى كان يقوم به من عهد الصبا من قبل البعثة واستمر ، وكذا مؤاخاة حمزة وزيد بن حارثة لأن زيدا مولاهم فقد ثبت أخوتهما وهما من المهاجرين ، وسيأتى فى عمرة القضاء قول زيد ابن حارثة : إن بنت حمزة بنت أخى ، وأخرج الحاكم وابن عبد البر بسند حسن عن أبي الشعثاء عن ابن عباس « أخى النبي ﷺ بين الزبير وابن مسعود »^(١) وهما من المهاجرين . قلت : وأخرجه الضياء فى المختارة من المعجم الكبير للطبرانى ؛ وابن تيمية يصرح بأن أحاديث المختارة أصح وأقوى من أحاديث المستدرک ، وقصة المؤاخاة الأولى أخرجها الحاكم من طريق جميع بن عمير عن ابن عمر « أخى رسول الله ﷺ بين أبى بكر وعمر ، وبين طلحة والزبير ، وبين عبد الرحمن ابن عوف وعثمان وذكر جماعة قال : فقال على : يا رسول الله إنك أخيت بين أصحابك فمن أخى؟ قال : « أنا أخوك » وإذا انضم هذا إلى ما تقدم تقوى به . قوله : « وقال عبد الرحمن بن عوف : أخى النبي ﷺ بينى وبين سعد بن الربيع . هو طرف من حديث تقدم موصولاً فى أوائل البيوع من طريق إبراهيم بن سعد عن أبيه وهو سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن جده قال : « قال عبد الرحمن ابن عوف لما قدمنا المدينة أخى النبي ﷺ بينى وبين سعد بن الربيع ، فقال سعد : إني أكثر الأنصار مالاً فأقاسمك مالى » الحديث^(٢) ، وظن الشيخ عماد =

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرک [٣/٣١٤] وصححه ، ووافقه الذهبى .

(٢) أخرجه البخارى [٢٠٤٨] .

= الدين ابن كثير أن البخارى أشار بهذا التعليق إلى حديث أنس فقال : قصة عبد الرحمن لا تعرف مسندة عنه ، وإنما أسندها البخارى وغيره عن أنس ، قال : فلعل البخارى أراد أن أنساً حملها عن عبد الرحمن بن عوف . انتهى . والذي ادعاه مردود لثبوته فى الصحيح .

قوله : « وقال أبو جحيفة أخى النبى ﷺ بين سلمان وأبى الدرداء » هو طرف من حديث وصله بتمامه فى كتاب الصيام ، والغرض منه التنبيه على تسمية من وقع الإخاء بينهم من المهاجرين والأنصار ، فذكر هذا الذى بعده من إخاء سعد بن الربيع وعبد الرحمن ابن عوف ، ولمسلم من طريق ثابت عن أنس « أخى النبى ﷺ بين أبى طلحة وأبى عبيدة »^(١) وتقدم فى الإيمان حديث عمر « كان لى أخ من الأنصار وكنا تتناوب النزول » وذكر ابن إسحاق أنه عتبان بن مالك ، وكان أبو بكر الصديق وحارثة بن زيد أخوين فيما ذكره ابن إسحاق أيضاً .

فتح البارى [٦٨٩-٦٩١] بتصرف .

وقال ابن القيم : ثم أخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار فى دار أنس ابن مالك ، وكانوا تسعين رجلاً ، نصفهم من المهاجرين ، ونصفهم من الأنصار ، أخى بينهم على المواساة ، يتوارثون بعد الموت دون ذوى الأرحام إلى حين وقعة بدر ، فلما أنزل الله عز وجل : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ [الأحزاب : ٦] رد التوارث إلى الرحم دون عقد الأخوة . وقد قيل : إنه أخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض مؤاخاة ثانية ، واتخذ فيها علياً أخاً لنفسه^(٢) والثبت الأول ، والمهاجرون كانوا مستغنين بأخوة الإسلام ، وأخوة =

(١) أخرجه مسلم [٢٥٢٨] .

(٢) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : أخى رسول الله ﷺ بين أصحابه فجاء على تدمع عيناه ، فقال : يا رسول الله أخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بينى وبين أحد فقال له رسول الله ﷺ : « أنت أخى فى الدنيا والآخرة » . أخرجه الترمذى [٣٧٢٠] وقال : حديث حسن غريب . وضعفه الألبانى فى ضعيف الترمذى [٧٧٢] .

= الدار ، وقرابة النسب عن عقد مؤاخاة بخلاف المهاجرين مع الأنصار ، ولو آخى بين المهاجرين ، كان أحق الناس بأخوته أحب الخلق إليه ورفيقه في الهجرة ، وأنيسه في الغار ، وأفضل الصحابة وأكرمهم عليه أبو بكر الصديق ، وقد قال : « لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن أخوة الإسلام أفضل » وفي لفظ « ولكن أخى وصاحبي » ^(١) وهذه الأخوة في الإسلام وإن كانت عامة ، كما قال : « وددت أن قد رأينا إخواننا قالوا : ألسنا إخوانك؟ قال : أنتم أصحابي ، وإخواني قوم يأتون من بعدى يؤمنون بي ولم يروني » ^(٢) فللصديق من هذه الأخوة أعلى مراتبها ، كما له من الصحبة أعلى مراتبها ، فالصحابة لهم الأخوة ، ومزية الصحبة ، ولأتباعه بعدهم الأخوة دون الصحبة .

زاد المعاد : [٦٣/٣-٦٥] .

(١) أخرجه البخارى [٣٦٥٧] بلفظ : « لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذته خليلاً ولكن أخوة الإسلام أفضل » .

وأخرج أيضاً [٣٦٥٦] عن ابن عباس رضى الله عنهما : « لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخى وصاحبي » .

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم [٣٩/٢٤٩] عن أبي هريرة رضى الله عنه بلفظ : أتى رسول الله ﷺ المقبرة فقال : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون . وددت أنا قد رأينا إخواننا » . قالوا : أولسنا إخوانك يا رسول الله ؟ قال : « أنتم أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعد ... » .

تغيير القبلة

قال تعالى : ﴿ قَدْ زَرَى ثَقَلَبُ وَجْهَكَ فِي السَّمَا۟ءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ١٤٤] .

من المعلوم أن ﴿ قَدْ ﴾ حرف تحقيق ، و ﴿ زَرَى ﴾ : فعل مضارع ، مما يدل على أن الحدث في زمن التكلم ، الحق سبحانه وتعالى يعطينا صورة لرسول الله ﷺ أنه يحب ويشتاق أن يتجه إلى الكعبة بدلاً من بيت المقدس ، وكان عليه الصلاة والسلام قد اعتاد أن يأتيه الوحي من السماء ، فكأنه ﷺ كان يتجه ببصره إلى السماء مكان نزول الوحي ، ولا يتأتى ذلك إلا إذا كان قلبه متعلقاً بأن يأتيه الوحي بتغيير القبلة ، فكأن هذا أمر قد شغله (١) .

(١) قال ابن القيم : كان النبي ﷺ يصلى إلى قبله بيت المقدس ، ويحب أن يُصرف إلى الكعبة ، وقال لجبريل : « وددت أن يصرف الله وجهي عن قبله اليهود » فقال : إنما أنا عبد فادع ربك ، واسأله . فجعل يقلب وجهه في السماء يرجو ذلك حتى أنزل الله عليه : ﴿ قَدْ زَرَى ثَقَلَبُ وَجْهَكَ فِي السَّمَا۟ءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ ، وذلك بعد ستة عشر شهراً من مقدمه المدينة قبل وقعة بدر بشهرين (١) .

قال محمد بن سعد : أخبرنا هاشم بن القاسم ، قال : أنبأنا أبو معشر عن محمد ابن كعب القرظي قال : ما خالف نبي نبياً قط في قبلة ، ولا في سنة إلا أن =

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى [٢٤١/١] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

.....
= رسول الله ﷺ استقبل بيت المقدس حين قدم المدينة ستة عشر شهراً ، ثم قرأ : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ ^(١) [الشورى : ٣١] .
وكان لله في جعل القبلة إلى بيت المقدس ، ثم تحويلها إلى الكعبة حكم عظيمة ،
ومحنة للمسلمين والمشركين واليهود والمنافقين .

فأما المسلمون ، فقالوا : سمعنا وأطعنا وقالوا : ﴿ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ وهم
الذين هدى الله ، ولم تكن كبيرة عليهم .
وأما المشركون ، فقالوا : كما رجع إلى قبلتنا يوشك أن يرجع إلى ديننا ، وما رجع
إليها إلا أنه الحق .

وأما اليهود ، فقالوا : خالف قبلة الأنبياء قبله ، ولو كان نبياً ، لكان يصلى إلى قبلة
الأنبياء .

وأما المنافقون ، فقالوا : ما يدري محمد أين يتوجه إن كانت الأولى حقاً ، فقد
تركها ، وإن كانت الثانية هي الحق ، فقد كان على باطل ، وكثرت أقاويل
السفهاء من الناس ، وكانت كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى
الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ [البقرة : ١٤٣] وكانت محنة من الله امتحن بها عباده؛ ليرى
من يتبع الرسول منهم ممن ينقلب على عقبيه . .

ولما كان أمر القبلة وشأنها عظيماً ، وطأ سبحانه قبلها أمر النسخ وقدرته عليه ، وأنه
يأتى بخير من المنسوخ أو مثله ، ثم عقب ذلك بالتوبيخ لمن تعنت رسول الله ﷺ ،
ولم ينقل له ، ثم ذكر بعده اختلاف اليهود والنصارى ، وشهادة بعضهم على بعض
بأنهم ليسوا على شيء ، وحذر عباده المؤمنين من موافقتهم ، واتباع أهوائهم ، ثم
ذكر كفرهم وشركهم به .

وقولهم : إن له ولداً ، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً ، ثم أخبر أن له المشرق
والمغرب ، وأينما يولى عباده وجوههم ، فثم وجهه ، وهو الواسع العليم ، فلعظمته
وسعته وإحاطته أينما يوجه العبد ، فثم وجه الله .
=

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى [٢٤٣/١] .

= ثم أخبر أنه لا يسأل رسوله عن أصحاب الجحيم الذين لا يتابعونه ولا يصدقونه ، ثم أعلمه أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم ، وأنه إن فعل - وقد أعاده الله من ذلك - فما له من الله من ولى ولا نصير .

ثم ذكر أهل الكتاب بنعمته عليهم ، وخوفهم من بأسه يوم القيامة ، ثم ذكر خليله باني بيته الحرام ، وأثنى عليه ومدحه وأخبر أنه جعله إماماً للناس ، يأتم به أهل الأرض ، ثم ذكر بيته الحرام ، وبناء خليله له ، وفي ضمن هذا أن باني البيت كما هو إمام للناس ، فكذلك البيت الذي بناه إمام لهم ، ثم أخبر أنه لا يرغب عن ملة هذا الإمام إلا أسفه الناس ، ثم أمر عباده أن يأتموا برسوله الخاتم ، ويؤمنوا بما أنزل إليه وإلى إبراهيم ، وإلى سائر النبيين ، ثم رد على من قال : إن إبراهيم وأهل بيته كانوا هوداً أو نصارى ، وجعل هذا كله توطئة ومقدمة بين يدي تحويل القبلة ، ومع هذا كله ، فقد كبر ذلك على الناس إلا من هدى الله منهم ، وأكد سبحانه هذا الأمر مرة بعد مرة ، بعد ثلاثة ، وأمر به رسوله حيثما كان ، ومن حيث خرج ، وأخبر أن الذي يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم هو الذي هداهم إلى هذه القبلة ، وأنها هي القبلة التي تليق بهم ، وهم أهلها ؛ لأنها أوسط القبل وأفضلها ، وهم أوسط الأمم وخيارهم ، فاختر أفضل القبل لأفضل الأمم ، كما اختار لهم أفضل الرسل ، وأفضل الكتب ، وأخرجهم في خير القرون ، وخصهم بأفضل الشرائع ، ومنحهم خير الأخلاق ، وأسكنهم خير الأرض ، وجعل منازلهم في الجنة خير المنازل ، وموقفهم في القيامة خير المواقف ، فهم على تل عالٍ ، والناس تحتهم ، فسبحان من يختص برحمته من يشاء ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . وأخبر سبحانه أنه فعل ذلك ؛ لئلا يكون للناس عليهم حجة ، ولكن الظالمون الباغون يحتجون عليهم بتلك الحجج التي ذكرت ، ولا يعارض الملحدون الرسل إلا بها وبأمثالها من الحجج الداحضة ، وكل من قلّم على أقوال الرسول سواها ، فحجته من جنس حجج هؤلاء .

=

إن الله سبحانه يخبر رسوله ﷺ بأنه قد رأى تقلب وجهه في السماء ، وأجابه ليتجه إلى القبلة التي يرضاها ، فهل معنى ذلك أن القبلة التي كان عليها الرسول ﷺ وهي بيت المقدس لم يكن راضياً عنها ؟ نقول لا . . وإنما الرضا دائماً يتعلق بالعاطفة ، وهناك فرق بين حب العاطفة وحب العقل ؛

= وأخبر سبحانه أنه فعل ذلك ليتم نعمته عليهم ، وليهديهم ، ثم ذكرهم نعمه عليهم بإرسال رسوله إليهم ، وإنزال كتابه عليهم ، ليزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ، ثم أمرهم بذكره وبشكره ، إذ بهذين الأمرين يستوجبون إتمام نعمه ، والمزيد من كرامته ، ويستجلبون ذكره لهم ، ومحبتهم له ، ثم أمرهم بما لا يتم لهم ذلك إلا بالاستعانة به ، وهو الصبر والصلاة ، وأخبرهم أنه مع الصابرين .

وَأتم نعمته عليهم مع القبلة بأن شرع لهم الأذان في اليوم واللييلة خمس مرات ، وزادهم في الظهر والعصر والعشاء ركعتين أخريين بعد أن كانت ثنائية ^(١) ، فكل هذا كان بعد مقدمه المدينة .

زاد المعاد [٦٦/٣-٦٩] بتصرف .

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت : « فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين في الحضر والسفر ، فأُقرت صلاة السفر ، وزيد في صلاة الحضر » . أخرجه البخاري [١٠٩٠] ، ومسلم [١/٥٨٦]

وعنها رضي الله عنها قالت : « فرضت الصلاة ركعتين ثم هاجر النبي ﷺ ففُرضت أربعاً وثُركت صلاة السفر على الأولى » .

أخرجه البخاري [٣٩٣٥] .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : « فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعاً ، وفي السفر ركعتين ، وفي الخوف ركعة » .

أخرجه مسلم [٥/٧٨٦] ، وأبو داود [١٢٤٧] ، والنسائي في المجتبى [٣/١٦٩] ، وابن ماجه [١٠٦٨] .

ولذلك لا يقول أحد : إن رسول الله ﷺ لم يكن راضياً عن قبلة بيت المقدس ، وإنما يتجه إلى بيت المقدس ، وفي قلبه رغبة ليتجه إلى الكعبة ، هذا يدل على الطاعة والالتزام .

الله تعالى يقول لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿ فَلَنُؤَيِّنَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ أى : تحبها بعاطفتك ، ورسول الله ﷺ كان يتطلع إلى هذا التغير ، فكأن عواطفه ﷺ اتجهت لتضع مقدمات التحويل .

وقوله تعالى : ﴿ قَوْلٍ وَجْهَكَ مَشَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ المراد بالوجه : هو الذات كلها . وكلمة: ﴿ مَشَرَ ﴾ معناها الجهة ، والشرط معناه النصف ، وكلا المعنيين صحيح .

إذن .. الذى يقول الشرط هو النصف صحيح ، والذى يقول إن الشرط هو الجهة صحيح .

إذن .. قوله تعالى : ﴿ قَوْلٍ وَجْهَكَ ﴾ أى اتجه جهة المسجد . وفى الزمن الماضى كانت العبادات تتم فى أماكن خاصة ، إلى أن جاء رسول الله ﷺ فجعل الله تعالى له الأرض كلها مسجداً وطهوراً (١) .

(١) عن جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ قال : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يعث إلى قومه خاصة وبعث إلى الناس عامة » .

أخرجه البخارى [٣٣٥] واللفظ له ، ومسلم [٣/١٥٢] .

وعن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : « فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً ، وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء » .

أخرجه مسلم [٤/٥٢١] . =

إن المسجد هو مكان السجود ؛ ونظراً لأن السجود هو منتهى الخضوع لله تعالى ؛ فُسمى المكان الذى نصلى فيه مسجداً ، ولكن هناك فرق بين مكان تسجد فيه ومكان تجعله مقصوراً على الصلاة لله تعالى ، ولا تزاول فيه شيئاً آخر . المسجد مخصص للصلاة والعبادة ، أما المكان الذى تسجد فيه وتزاول حركة حياتك فلا يسمى مسجداً إلا ساعة تسجد فيه ، والكعبة بيت الله سبحانه باختيار الله^(١) ، وجميع مساجد الأرض بيوت الله باختيار خلق الله تعالى ؛ ولذلك كان بيت الله تعالى باختيار الله قبله لبيوت الله باختيار خلق الله .

= وقال الإمام النووى : وقوله ﷺ : « مسجداً » معناه : أن من كان قبلنا إنما أبيع لهم الصلوات فى مواضع مخصوصة كالبيع والكنائس . قال القاضى رحمه الله تعالى : وقيل : إن من كان قبلنا كانوا لا يصلون إلا فيما تيقنوا طهارته من الأرض ، وخصصنا نحن بجواز الصلاة فى جميع الأرض إلا ما تيقنا نجاسته .

شرح النووى على مسلم [٩/٣] .

(١) عن أبى ذر رضى الله تعالى عنه قال : قلت : يا رسول الله أى مسجد وضع فى الأرض أول؟ قال : « المسجد الحرام » . قال : قلت : ثم أى؟ قال : « المسجد الأقصى » . قلت : كم كان بينهما؟ قال : « أربعون سنة ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصله فإن الفضل فيه » .

أخرجه البخارى [٣٣٦٦] واللفظ له ، ومسلم [٥٢٠] .

وروى البيهقى فى الدلائل عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « بعث الله تعالى جبريل إلى آدم وحواء فقال لهما : ابنيا لى بيتاً . فخط لهما جبريل ، فجعل آدم يحفر وحواء تنقل حتى أجابه الماء ونودى من تحته : حسبك يا آدم . فلما بناه أوحى الله تعالى إليه أن يطوف به ، وقيل له : أنت أول الناس ، وهذا أول بيت وضع ، ثم تناسخت القرون حتى حجه نوح ، ثم تناسخت القرون ، حتى رفع إبراهيم القواعد من البيت .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ ﴾ يعنى أينما كنتم ﴿ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ ؛ لأن الآية نزلت وهم فى مسجد بنى سلمة بالمدينة ، فتحول المسلمون إلى المسجد الحرام ، وحتى لا يعتقد أحد أن التحويل فى هذا المسجد فقط وفى الوقت الذى نزلت فيه الآية فقط ، قال الله تعالى : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَفْعَلُونَ ﴾ أى إن الذين أوتوا الكتاب يحاولون التشكيك فى اتباع رسول الله ﷺ ؛ إنهم يعلمون أن رسول الله هو الرسول الخاتم ويعرفون أوصافه التى ذكرت فى التوراة والإنجيل ، ويعلمون أن صاحب القبلتين . ولو لم يتجه الرسول ﷺ من بيت المقدس إلى الكعبة ، لقالوا : إن التوراة والإنجيل يقولان : إن الرسول الخاتم يصلى إلى قبلتين فلماذا لم تتحقق؟ ولكن هذا أدعى إلى التشكيك .
وقوله تعالى : ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَفْعَلُونَ ﴾ يخبر الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ أن تشكيكهم لا يقدم ولا يؤخر ، فموقفهم ليس لصلب الحجة ، ولكن للمكابرة ؛ فهم لا يريدون حجة ولا دليلاً إيمانياً ، ولكنهم يريدون المكابرة (١) .

ورواه ابن أبى حاتم وابن جرير والطبرانى موقوفاً . وزادوا : زعم الناس أن آدم بناه من خمسة أجبل : من حراء ولبنان وطور زيتا وطور سيناء والجودى .
وذكر الحديث المتقى الهندى فى كنز العمال برقم [٣٤٧١٨] ، وعزاه للبيهقى وابن عساكر . قال : وقال البيهقى : تفرد به ابن لهيعة هكذا مرفوعاً .

وانظر سبل الهدى والرشاد [١٧١/١] .

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿ قَدْ زَرَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُؤَلِّسَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَفْعَلُونَ ﴾ .

= قال العلماء : هذه الآية مقدمة فى النزول على قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ﴾ [البقرة : ١٤٢] ومعنى : ﴿ تَقَلُّبُ وَجْهِكَ ﴾ : تحول وجهك إلى السماء ؛ قاله الطبرى . الزجاج : قلب عينيك فى النظر إلى السماء ؛ والمعنى متقارب . وخص السماء بالذكر ؛ إذ هى مختصة بتعظيم ما أضيف إليها ويعود منها ، كالمنطق والرحمة والوحى . ومعنى : ﴿ تَرْضَاهَا ﴾ تحبها . قال السدى : كان إذا صلى نحو بيت المقدس رفع رأسه إلى السماء ينظر ما يؤمر به ، وكان يحب أن يصلى إلى قبل الكعبة فأنزل الله تعالى : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ . وروى أبو إسحاق عن البراء قال : كان رسول الله ﷺ صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ، وقد كان رسول الله ﷺ يحب أن يوجه نحو الكعبة ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ (١) . قوله تعالى : ﴿ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ فيه خمس مسائل : الأولى : قوله تعالى ﴿ قَوْلٍ ﴾ أمر ﴿ وَجْهَكَ شَطْرَ ﴾ أى ناحية ﴿ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ يعنى الكعبة ، ولا خلاف فى هذا .

قيل : حياى البيت كله ؛ عن ابن عباس .

(١) أخرجه البخارى [٤٠ ، ٤٤٨٦] عن البراء : أن النبى ﷺ كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده - أو قال أخواله - من الأنصار ، وأنه صلى قبل بيت المقدس ستة عشر شهراً ، أو سبعة عشر شهراً ، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت ، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر ، وصلى معه قوم ، فخرج رجل ممن صلى معه فمر على أهل مسجد وهم راكعون فقال : أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قبل مكة ، فداروا - كما هم - قبل البيت . وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلى قبل بيت المقدس ، وأهل الكتاب ، فلما ولى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك .

قال زهير : حدثنا أبو إسحاق عن البراء فى حديثه هذا أنه مات على القبلة قبل أن تحول رجال وقتلوا ، فلم ندر ما نقول فيهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ أَيْمَنَتَكُمْ ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

.....
= وقال ابن عمر : حيال الميزاب من الكعبة ؛ قاله ابن عطية .

والميزاب : هو قبلة المدينة وأهل الشام ، وهناك قبلة أهل الأندلس .
قلت : قد روى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما رسول الله ﷺ قال : « البيت قبلة لأهل المسجد والمسجد قبلة لأهل الحرم والحرم قبلة لأهل الأرض فى مشارقها ومغاربها من أمتى » (١) .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ شَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ الشطر له محامل : يكون الناحية والجهة ، كما فى هذه الآية ، وهو ظرف مكان ؛ كما تقول : تلقاء وجهته . وانتصب الظرف ؛ لأنه فضلة بمنزلة المفعول به ، وأيضاً فإن الفعل واقع فيه . وقال داود بن أبى هند : إن فى حرف ابن مسعود « فول وجهك تلقاء المسجد الحرام » .

وشطر الشيء : نصفه ؛ ومنه الحديث : « الطهور شطر الإيمان » (٢) . ويكون من الأضداد ، يقال : شطر إلى كذا إذا قبل نحوه ، وشطر عن كذا إذا أبعد منه وأعرض عنه . فأما الشاطر من الرجال فلأنه قد أخذ فى نحو غير الاستواء ، وهو الذى أعيا أهله خبثاً ؛ وقد شطر وشطر - بالضم - شطارة فيهما . وسئل بعضهم عن الشاطر فقال : هو من أخذ فى البعد عما نهى الله تعالى عنه .
الثالثة : لا خلاف بين العلماء أن الكعبة قبلة فى كل أفق ، وأجمعوا على أن من شاهدها وعابنها فرض عليه استقبالها ، وأنه إن ترك استقبالها وهو معاين لها وعالم بجهتها فلا صلاة له ، وعليه إعادة كل ما صلى ؛ ذكره أبو عمر . =

(١) رواه البيهقى فى السنن الكبرى [٢٢٣٤] وقال : تفرد به عمر بن حفص المكي وهو ضعيف لا يحتج به . وروى بإسناد آخر ضعيف عن عبد الله بن حبشى كذلك مرفوعاً ، ولا يحتج بمثله . والله أعلم .

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم [٢٢٣] ، والترمذى [٣٥١٧] عن أبى مالك الأشعرى . رضى الله تعالى عنه .

.....
= وأجمعوا على أن كل من غاب عنها أن يستقبل ناحيتها وشطرها وتلقاها؛ فإن خفيت عليه فعليه أن يستدل على ذلك بكل ما يمكنه من النجوم والرياح والجبال وغير ذلك مما يمكن أن يستدل به على ناحيتها . ومن جلس في المسجد الحرام فليكن وجهه إلى الكعبة وينظر إليها إيماناً واحتساباً ، فإنه يُروى أن النظر إلى الكعبة عبادة ؛ قاله عطاء ومجاهد .

الرابعة : واختلفوا هل فرض الغائب استقبال العين أو الجهة ؛ فمنهم من قال بالأول . قال ابن العربي : وهو ضعيف ؛ لأنه تكليف لما لا يصل إليه . ومنهم من قال بالجهة ؛ وهو الصحيح لثلاثة أوجه :

الأول : أنه الممكن الذي يرتبط به التكليف .

والثاني : أنه المأمور به في القرآن ؛ لقوله تعالى : ﴿ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ يعني من الأرض من شرق أو غرب ﴿ قَوْلُوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ .

الثالث : أن العلماء احتجوا بالصف الطويل الذي يعلم قطعاً أنه أضعاف عرض البيت . الخامسة : في هذه الآية حجة واضحة لما ذهب إليه مالك ومن وافقه في أن المصلي حكمه أن ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده . وقال الثوري وأبو حنيفة والشافعي والحسن ابن حي : يستحب أن يكون نظره إلى موضع سجوده . وقال شريك القاضي : ينظر في القيام إلى موضع السجود ، وفي الركوع إلى موضع قدميه ، وفي السجود إلى موضع أنفه ، وفي القعود إلى حجره .

قال ابن العربي : إنما ينظر أمامه ؛ فإنه إن حنى رأسه ذهب بعض القيام المفترض عليه في الرأس وهو أشرف الأعضاء ، وإن أقام رأسه وتكلف النظر ببصره إلى الأرض . فتلك مشقة عظيمة وخرج ، وما جعل عينا في الدين من حرج ؛ أما إن ذلك أفضل لمن قدر عليه .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة] .

ساعة تسمع : ﴿ وَلَئِنْ ﴾ واو ولام وإن ، هذا قسم ، فكأن الحق تبارك وتعالى أقسم أنه لو أتى رسول الله ﷺ أهل الكتاب بكل آية ما آمنوا بدينه ، ولا اتبعوا قبلته .. لماذا ؟ لأنهم لا يبحثون عن دليل ولا يريدون الاقتناع بصحة الدين الجديد ، ولو كانوا يريدون دليلاً أو اقتناعاً لوجدوه في كتبهم التي أنبأتهم عن رسول الله ﷺ ، وأنه النبي الخاتم وأعطتهم أوصافه ، فالدليل عندهم ولكنهم يأخذون الأمر سفهاً وعناداً ومكابرة وحسداً .

= قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ يريد اليهود والنصارى ﴿ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ يعنى تحويل القبلة من بيت المقدس . فإن قيل : كيف يعلمون ذلك وليس من دينهم ولا فى كتابهم ؟ قيل عنه جوابان :

أحدهما : أنهم لما علموا من كتابهم أن محمداً ﷺ نبي ، علموا أنه لايقول إلا الحق ولا يأمر إلا به .

الثانى : أنهم علموا من دينهم جواز النسخ وإن جحد به بعضهم؛ فصاروا عالمين بجواز القبلة .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَفْعَلُونَ ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة الكسائى « تعلمون » بالتاء على مخاطبة أهل الكتاب أو أمة محمد ﷺ . وعلى الوجهين فهو إعلام بأن الله تعالى لا يهمل أعمال العباد ولا يغفل عنها ، وضمنه الوعيد .
وقرأ الباقون بالياء من تحت .

تفسير القرطبي [١٥٨/٢-١٦١] بتصرف .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قَبْلَهُمْ ﴾ ، فكأنه حين جاءت الآية بتغيير القبلة أعلمنا الله أن المسلمين لن يعودوا مرة أخرى إلى الاتجاه نحو بيت المقدس ، ولن يحولهم الله إلى جهة ثالثة ، ولكي يعلمنا الله سبحانه وتعالى أن اليهود والنصارى سيكونون في جانب ، والمسلمون في جانب آخر ، وأنه ليس هناك التقاء بيننا وبينهم قال سبحانه : ﴿ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ ، فالخلاف في القبلة مستمر إلى يوم القيامة .

وقول الحق : ﴿ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ، حين يخاطب الله سبحانه رسوله وحبيبه محمداً ﷺ بهذه الآية ، وهو يعلم أن محمداً الرسول المعصوم لا يمكن أن يتبع أهواءهم . نقول: إن المقصود بهذه الآية هي أمة محمد ﷺ .

إن الله يخاطب أمته في شخصه ﷺ قائلاً : ﴿ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ولكن ماهي أهواء أهل الكتاب؟ هي أن يهادنهم رسول الله ﷺ ، أو يقول: إن ما حرفوه في كتبهم أنزله الله ، وكذا يجعل هوى نفوسهم أمراً متبعاً ، فكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفت أمة محمد ﷺ إلى أن كل من يتبع أهواء أهل الكتاب ، وما حرفوه سيكون من الظالمين ، وإذا كان الله تبارك وتعالى لن يقبل هذا من رسوله وحبيبه ، فكيف يقبله من أى فرد من أمة محمد ﷺ؟ إن الخطاب هنا يمس قمة من قمم الإيمان التي تفسد العقيدة كلها ، والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف أنه لا يتسامح فيها ولا يقبلها ، حتى لو حدثت من رسوله ﷺ ولو أنها لن تحدث ، ولكن لنعرف أنها مرفوضة تماماً من الله على أى مستوى من مستويات الإيمان ، حتى فى مستوى القمة؛ فلتبتعد الأمة المسلمة عن مثل هذا الفعل تماماً .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

والله تبارك وتعالى يقول إن الذين جاءهم الكتاب قبل رسول الله ﷺ يعرفونه ، ما الذى يعرفونه هل يعرفون أمر تحويل القبلة؟ أم يعرفون أمر رسول الله ﷺ وبعثه ورسالته التى يحاولون أن يشككوا فيها؟ الله سبحانه وتعالى يبين لنا ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٨٩] .

فكان اليهود والنصارى يعرفون رسالة محمد ﷺ ، ومكتوب فى التوراة والإنجيل أنه الحق ومطلوب منهم أن يؤمنوا به . إن عبد الله بن سلام كان جالساً وعمر بن الخطاب رضى الله عنه كان موجوداً ، فسأله عمر: أكنتم تعرفونه يا ابن سلام ؟ - أى : أكنتم تعرفون محمداً ﷺ وأوصافه ؟ - فقال ابن سلام - وكان من أحبار اليهود- أعرفه كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لمحمد أشد . فلما سألوه : لماذا ؟ قال : لأن ابنى أخاف أن تكون امرأتى خائنتى فيه ، أما محمد ﷺ فأوصافه مذكورة بالدقة فى التوراة بحيث لا نخطئه^(١) .

(١) عن ابن عباس قال : « لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قال عمر بن الخطاب لعبد الله ابن سلام : قد أنزل الله على نبيه : ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ فكيف يا عبد الله هذه المعرفة ؟ فقال عبد الله بن سلام : يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابنى إذا رأيته مع الصبيان ، وأنا أشد معرفة بمحمد منى بابنى . فقال عمر : كيف ذلك ؟ قال : إنه رسول الله حق من الله ، وقد نعتة الله فى كتابنا ولا أدرى ما تصنع النساء . فقال له عمر : وفقك الله يا ابن سلام » .

الدر المنثور [٣٥٧/١] . =

إذن .. فأهل الكتاب يعرفون رسول الله ﷺ ويعرفون زمن مبعثه ورسالته .. والذين أسلموا منهم وآمنوا فعلوا ذلك عن اقتناع ، أما الذين لم يؤمنوا ، وكفروا بما جاء به رسول الله ﷺ عرفوا ، ولكنهم كتموا ما يعرفونه ، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى عنهم : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ وساعة تقول : كتم الشيء فكأن الشيء بطبيعته كان يجب أن يبرز وينتشر . والحق بطبيعته لابد أن يبرز وينتشر ، ولكن إنكار الحق وكتمه يحتاج إلى مجهود .

إن الذين يحققون في القضايا الدقيقة يحاولون أن يمنعوا القوة أن تكتم الحق . فيجعلون من يحققون معه لا ينام حتى تنهار قواه فينطق بالحقيقة ؛ لأن النطق

= وأخرج البخارى [٣٩١١] فى حديث الهجرة الطويل عن أنس بن مالك : فلما جاء نبي الله ﷺ ، جاء عبد الله بن سلام فقال : أشهد أنك رسول الله ، وأنتك جئت بحق ، وقد علمت يهود أنى سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم ، فادعهم فاسألهم عنى قبل أن يعلموا أنى قد أسلمت ، فإنهم إن يعلموا أنى قد أسلمت قالوا فى ما ليس فى . فأرسل نبي الله ﷺ فأقبلوا فدخلوا عليه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « يا معشر اليهود ، ويلكم اتقوا الله ، فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقاً ، وأنى جئتكم بحق ، فأسلموا » . قالوا : ما نعلمه - قالوا للنبي ﷺ قالها ثلاث مرار - قال : « فأى رجل فيكم عبد الله ابن سلام ؟ » قالوا : ذاك سيدنا ، وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا . قال : « أفرايتم إن أعلم ؟ » قالوا : حاشا لله ما كان ليسلم . قال : « أفرايتم إن أسلم ؟ » قالوا حاشا لله ما كان ليسلم . قال : « أفرايتم إن أسلم ؟ » قالوا حاشا لله ما كان ليسلم . قال : « يا ابن سلام اخرج عليهم » . فخرج ، فقال : يا معشر اليهود ، اتقوا الله ، فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، وأنه جاء بحق . فقالوا : كذبت ، فأخرجهم رسول الله ﷺ .

بالحق لا يحتاج إلى مجهود ، أما كتم الحق فهو الذى يحتاج إلى مجهود وقوة ، وعدم النطق بالحق عملية شاقة ، ولكن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿لَيَكْفُرَنَّ الْحَقُّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ، أى أنهم ليسوا جاهلين ولكنهم على علم بالحقيقة ، والحق من الله فهل يستطيع هؤلاء كتمانهم ؟ بالطبع لا ، لابد أن يظهر . فإذا انتشر الكذب والباطل فهو كالألم الذى يحدث فى الجسد . الناس تكره الألم ولكن الألم من جنود الشفاء؛ لأنه يجعلك تحس أن هناك شيئاً أصابه مرض؛ فتتجه إليه بأسباب الشفاء .

أن أخطر الأمراض هى التى لا يصاحبها ألم ولا تحس بها إلا بعد أن يكون قد مضى وقت العلاج . . والحق دائماً غالب على أمره؛ ولذلك لا توجد معركة بين حقين . أما على الناحية الأخرى فتوجد معركة بين باطل وباطل ، وبين حق وباطل ؛ لأنه لا يوجد إلا حق واحد أما الباطل فكثير .

والمعارك بين الحق والباطل تنتهى بهزيمة الباطل بسرعة ، ولكن الذى يطول هو معركة بين باطلين .

وقوله تعالى : ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ، الحق من الله سبحانه وتعالى ، ومادام من الله فلا تكونن من الذين يشكون أن الحق سينتصر ، ولكن الحق لا بد له من قوة تحميه . وكما يقول الشاعر :

السيف إن يزهى بجوهره وليس يعمل إلا فى يدي بطل

فما فائدة أن يكون معك سيف بتر ، دون أن توجد اليد القوية التى ستضرب به ؟ ونحن غالباً نكون مضيعين للحق؛ لأننا لا نوفر له القوة التى ينتصر بها .

وقوله تعالى : ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ .. الممتري هو الذى يشك فى حدوث الشيء . الشك معناه أنه ليست هناك نسبة تتغلب عليه أى أن

الاحتمالين متساويان ، ولكن الحق من الله ولا توجد نسبة تقابله؛ ولذلك لا يجب أن نشك ولا ندخل فى جدل عقيم حول انتصار الحق .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلَىٰ ۖ فَاَتَّبِعُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِنَّمَا تَكُونُوا يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٥٨ ۝١٥٩ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝١٦٠ ۝١٦١ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۚ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ۚ وَلَئِتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٦٢ ﴾ [البقرة]

شاء الله سبحانه أن يجعل الإنسان مختاراً ، ومن هنا فإن له الاختيار فى أن يؤمن أو لا يؤمن ، أن ينصر الحق أو ينصر الباطل ، أن يفعل الخير أو يفعل الشر . كل هذه اختيارات شاء الله أن يعطيها للإنسان فى الدنيا ؛ بحيث يستطيع أن يفعل أو لا يفعل ، وهذا الاختيار موجود فى الحياة الدنيا فقط .

أما ساعة الاحتضار يصبح الإنسان مقهوراً وليس مختاراً؛ فهو لا يملك شيئاً لنفسه ولا يستطيع أن يقول : لن أموت الآن .

ففى الحياة الدنيا كل واحد يختار الوجهة التى يتجه إليها ، هذا يختار الكفر ، وهذا يختار الإيمان ، هذا يختار الطاعة وهذا يختار المعصية ، فما دام للإنسان اختيار فكل واحد له وجهة مختلفة عن الآخر والذى يهديه الله يتجه إلى فعل الخيرات وكأنه يتسابق إليها .. لماذا ؟ لأنه لا يعرف متى يموت ؛ ولذلك كلما تسابق إلى خير ، كان ذلك حسنة أضافها لرصيده .

إن المطلوب من المؤمنين فى الحياة الدنيا أن يتسابقوا إلى فعل الخيرات قبل أن يأتيهم الأجل ، ولا يحسب واحد منهم أنه سيفلت من الله؛ لأنه كما يقول عز وجل : ﴿ إِنَّمَا مَا تَكُونُوا يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ ﴾ أى: أنه ليس

هناك مكان تستطيعون أن تختفوا فيه عن علم الله تبارك وتعالى ؛ بل هو يعرف أماكنكم جميعاً واحداً واحداً وسيأتى بكم جميعاً ؛ مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾ [الكهف : ٤٧] .

وقوله سبحانه : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ [الذاريات : ٥٠] أى أنه الحق جل جلاله يريدنا أن نعرف يقيناً أننا لانستطيع أن نفر من علمه . ولا من قدره ولا من عذابه ، وأن الطريق الوحيد المفتوح أمامنا هو أن نفر إلى الله ، وأنه لا منجاة من الله لا إليه ؛ ولذلك لا يظن كافر أو عاصٍ أنه سيفلت من الله ، ولا يظن أنه لن يكون موجوداً يوم القيامة ، أو أنه لن يحاسب ، أو أنه يستطيع أن يختفى .

إن غرور الدنيا قد يصيب بعض الناس فيظنون أنهم فى منعة من الله ، وأنهم لن يلاقوه . نقول لهم: إنكم ستفاجئون فى الآخرة حين تعرفون أن الحساب حق واللجنة حق والنار حق ، ستفاجئون بما سيحدث لكم ، ومن لم يؤمن ، ولم يسارع إلى الخير سيلقى الخزي والعذاب الأليم . إن الله ينصحننا أن نؤمن وأن نسارع فى الخيرات لننجو من عذابه ، ويقول لنا : لن يفلت واحد منكم - ولا ذرة من ذرات جسده - من الوقوف بين يدي الله سبحانه وتعالى للحساب ؛ ولذلك ختم الله عز وجل هذه الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، أى : أن الله سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء ، ولا يخرج عن طاعته شيء ، إنه سبحانه على كل شيء قدير .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ١٤٩] .

لا بد أن نتأمل كم مرة أكد القرآن الكريم قضية تحويل القبلة ؟ أكدها ثلاث مرات متقاربة ؛ لأن تحويل القبلة أحدث هزة عنيفة في نفوس المؤمنين ، والحق سبحانه وتعالى يريد أن يذهب هذا الأثر ويؤكد تحويل القبلة تأكيداً إيمانياً . لقد جاء بثلاث آيات التي هي أقل الجمع . واحدة للمتجه إلى الكعبة وهو داخل المسجد . والثانية للمتجه وهو خارج المسجد . والثالثة للمتجه من الجهات جميعاً .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ . هو رد على المنافقين واليهود والنصارى الذين حاولوا التشكيك في الإسلام ، بأن واجهوا المسلمين بقضية تغيير القبلة ، على أساس أنها قضية ما كان يجب أن تتم ؛ لأنه ليس فيها زيادة في التكليف ، ولا مشقة زائدة تزيد ثواب المؤمن ، فالجهد الذى يبذله المؤمن فى الاتجاه إلى المسجد الأقصى هو نفس الجهد الذى يبذله فى الاتجاه إلى البيت الحرام ، فأنت إذا اتجهت فى صلاتك يمينا أو شمالاً أو شرقاً أو غرباً ، فإن ذلك لا يضيف إليك مشقة ؛ فما هو سبب التغيير ؟

نقول لهم : إن هذه ليس حجة للتشكيك فى تحويل القبلة ؛ لأن الاتجاه إلى المسجد الحرام هو طاعة لأمر الله ، ومادام الله سبحانه وتعالى قد قال فعلينا أن نطيع طاعة إيمانية ، يقول المولى جل جلاله : ﴿ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ، أى : أن ما فعلتموه من تحويل القبلة هو حق جاءكم من الله تبارك وتعالى ؛ والله عز وجل ليس غافلاً عن عملكم ، بحيث تكونون قد اتجهتم إلى البيت الحرام ؛ بل إن الله يعلم ما تبدون وما تكتمون فاطمئنوا أنكم على الحق وولوا وجوهكم تجاه المسجد الحرام ، واعلموا أن الله سبحانه محيط بكم فى كل ما تعملون .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِيْتَمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٠] .
الحق تبارك وتعالى يؤكد لرسوله ﷺ أن يتوجه هو والمسلمون إلى المسجد الحرام ، سواء كانوا في المدينة أو في خارج المدينة ، أو في أى مكان على الأرض ، وتلك قبلتهم في كل صلاة بصرف النظر عن المكان الذى يصلون فيه (١) .

(١) قال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيًا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .
قال العوفى عن ابن عباس : ﴿ وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيًا ﴾ يعنى بذلك أهل الأديان ، يقول : لكل قبيلة قبله يرضونها ، ووجهة الله حيث توجه المؤمنون . وقال أبو العالية : لليهودى وجهة هو مولياها ، وللنصرانى وجهة هو مولياها ، وهذاكم أنتم أيتها الأمة إلى القبلة التى هى القبلة . وقال مجاهد فى الرواية الأخرى والحسن : لكن أمر كل قوم أن يصلوا إلى الكعبة ، وقرأ ابن عباس وأبو جعفر الباقر وابن عامر « ولكل وجهة هو مولاها » وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٤٨] ، وقال ههنا : ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ١٤٨] أى هو قادر على جمعكم من الأرض وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم .

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِيْتَمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٠] .

= هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض . وقد اختلفوا في حكمة هذا التكرار ثلاث مرات . فقيل : تأكيد لأنه أول ناسخ وقع في الإسلام على مانص عليه ابن عباس وغيره . وقيل : بل هو منزل على أحوال . الأمر الأول : لمن هو مشاهد الكعبة .

والثاني : لمن هو في مكة غائبا عنها .

والثالث : لمن هو في بقية البلدان . هكذا وجهه فخر الدين الرازي .

وقال القرطبي : الأول : لمن هو بمكة ، والثاني : هو في بقية الأمصار ، والثالث : لمن خرج في الأسفار . ورجح هذا الجواب القرطبي ، وقيل : إنما ذكر ذلك لتعلقه بما قبله أو بعده من السياق : فقال أولاً : ﴿ قَدْ زَرَى تَقَلَّبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُؤَيِّنَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ [البقرة : ١٤٤] إلى قوله : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة : ١٤٤] فذكر في هذا المقام إجابته إلى طلبته ، وأمره بالقبلة التي كان يود التوجه إليها ويرضاها . وقال في الأمر الثاني : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَفْعَلُونَ ﴾ فذكر أنه الحق من الله وارتقاءه المقام الأول حيث كان موافقاً لرضا الرسول ﷺ ، فبين أنه الحق أيضاً من الله يحبه ويرتضيه ، وذكر في الأمر الثالث حكمة قطع حجة المخالف من اليهود الذين كانوا يتحججون باستقبال الرسول إلى قبلتهم ، وقد كانوا يعلمون بما في كتبهم أنه سيصرف إلى قبلة إبراهيم عليه السلام إلى الكعبة ، وكذلك مشركو العرب انقطعت حجتهم لما صرف الرسول ﷺ عن قبلة اليهود إلى قبلة إبراهيم التي هي أشرف ، وقد كانوا يعظمون الكعبة وأعجبهم استقبال الرسول إليها ، وقيل : غير ذلك من الأجوبة عن حكمة التكرار . وقد بسطها الرازي وغيره والله أعلم . وقوله : ﴿ لَيْتَ لَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ أي أهل الكتاب ؛ فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة ، فإذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها =

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ . الناس هنا المقصود بهم المنافقون واليهود والنصارى .. حجة فى ماذا ؟ لأن المسلمين كانوا يتجهون إلى بيت المقدس ، فاتجهوا إلى المسجد الحرام ، وليس لبيت المقدس قدسية فى ذاته ، ولا للمسجد الحرام قدسية فى ذاته ، ولكن نحن نطيع الأمر من الأمر الأعلى وهو الله عز وجل .

إن الله تبارك وتعالى أطلق على المنافقين واليهود والنصارى كلمة : ﴿ ظَلَمُوا ﴾ ووصفهم بأنهم ﴿ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ ، فمن الظالم ؟ الظالم هو : من ينكر الحق أو يغير وجهته ، أو ينقل الحق إلى الباطل والباطل إلى الحق . والظلم هو تجاوز الحق ، وكأنه سبحانه وصفهم بأنهم قد تجاوزوا الحق وأنكروه ؛ يقول سبحانه : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ ﴾ أى : لا تخشوا الذين ظلموا : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْنِي وَلَا تَمْنَعُوا نِعْمِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ، أى : أن الخشية لله وحده ، والمؤمن لا يخشى بشراً ؛ لأنه يعلم أن القوة لله جميعاً ؛ ولذلك فإنه يقدم على كل عمل بقلب لا يهاب أحداً إلا الحق سبحانه وتعالى .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَمْنَعُوا نِعْمِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ الإيمان وتمام النعمة هو تنفيذ مطلوبات الإيمان . فإذا هدانا الله للإيمان ، فهذا من تمام نعمته

= على المسلمين ، ولئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم فى التوجه إلى بيت المقدس ، وهذا أظهر ؛ قال أبو العالية : ﴿ إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ يعنى به أهل الكتاب حين قالوا : صرف محمد إلى الكعبة .

وقالوا : اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودين قومه ، وكان حجتهم على النبي ﷺ انصرافه إلى البيت الحرام أن قالوا سيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا .

تفسير ابن كثير : [١٨٥/١] بتصرف .

علينا ، ولكي يكون الإيمان صحيحاً ومقبولاً ، فلا بد أن أؤدي مطالبه ،
والمداومة على تنفيذ تكليفات الله لنا ، فلا نجعل التكليف ينقطع ؛ لأن
التكليف نعمة بغيرها لا تصلح حياتنا ، ولا تتوالى نعم التكليف من الله
سبحانه وتعالى إلا إذا أقبلنا على منهج الله بقوة وحب ، وأنت حينما تأتي إلى
المنهج قد يكون شاقاً ، ولكن إذا تذكرت ثواب كل طاعة ، فإنك ستخشع
وتعشق التكليف ؛ لأنك تعرف العمل الصالح بثوابه والعمل الطالح بعقابه ؛
ولذلك قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى
الْخَاشِعِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٣] الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿١٥٤﴾ [البقرة : ١٥٤] .
إذن .. الخاشعون هم الذين يقرنون الطاعة بالشواب ، والمعصية بالعقاب
والعذاب ؛ لأن الذي ينصرف عن الطاعة لمشتقتها عزل الطاعة عن الشواب ،
فأصبحت ثقيلة ، والذي يذهب إلى المعصية عزل المعصية عن العقاب ،
فأصبحت سهلة . فمن تمام النعمة أن يديم الله علينا فعل مطلوبات الإيمان ؛
ولذلك في حجة الوداع نزلت على رسول الله ﷺ الآية الكريمة : ﴿ الْيَوْمَ
أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ
أَضْطَرَّ فِي مَخَبَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣] .
وكان ذلك إخباراً بتمام رسالة رسول الله ﷺ بأن الأحكام التكليفية قد
انتهت ، ولكن الذين يستثقلون التكليف تجدهم يقولون لك : لقد عم الفساد
والله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، كأنه يحكم بأن هذا في وسعه ، وهذا ليس
في وسعه وعلى ضوئه يأخذ التكليف . نقول له : أكلف الله أو لم يكلف ؟
إن كان قد كلف فيكون التكليف في وسعك ؛ لأنه سبحانه حين يجد مشقة

يأمر بالتخفيف ، مثل إباحة : قصر الصلاة للمسافر وإباحة الإفطار في رمضان للمريض والمسافر ، فهو سبحانه قد حدد ما في وسعك^(١) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .. الهداية هي الطريق المستقيم الموصل إلى الغاية وهو أقصر الطرق ، وغاية هذه الحياة هي أن تصل إلى نعيم الآخرة . إن الله أعطاك في الدنيا الأسباب؛ لتحكم حركة حياتك ، ولكن هذه ليست غاية الحياة؛ بل الغاية أن نذهب إلى حياة بلا أسباب .

إذن .. قوله تعالى : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ، أى : لعلكم تتبهيون وتعرفون الغاية المطلوبة منكم ، ولا يظن أحدكم أن الحياة الدنيا هي الغاية ، أو هي النهاية أو هي الهدف ؛ فيعمل من أجل الدنيا فيأخذ منها ما يستطيع حلالاً أو حراماً باعتبارها المتعة الوحيدة المخلوقة له . نقول : لا ؛ إنه في هذه الحالة يكون قد ضل ولم يهتد؛ لأنه لو اهتدى لعرف أن الحياة الحقيقية للإنسان هي في الآخرة ، ولعرف أن نعيم الآخرة الذي لا يفوته ولا يفوتك ، يجب أن يكون هدفاً في الحياة الدنيا ، فنعمل ما نستطيع لنصل إلى النعيم بلا أسباب في الجنة .

(١) إشارة إلى قول الله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

لا هجرة بعد الفتح

علينا أن نعرف نحن الذين نعيش في هذا الزمان أنه لا هجرة بعد الفتح^(١) ، إلا إن كانت هجرة يقصد بها صاحبها المعونة على طاعة الله . وهو ما يوضحه

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي ﷺ قال يوم الفتح : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا » .

خرجه البخارى [٢٧٨٣، ٢٨٢٥] ، ومسلم [١٨٦٤] عن عائشة رضى الله تعالى عنها .

قال الحافظ فى الفتح : قوله : « لا هجرة بعد الفتح » أى فتح مكة . قال الخطابى وغيره : كانت الهجرة فرضاً فى أول الإسلام على من أسلم ؛ لقلة المسلمين بالمدينة وحاجتهم إلى الاجتماع ، فلما فتح الله مكة دخل الناس فى دين الله أفواجا فسقط فرض الهجرة إلى المدينة ، وبقي فرض الجهاد والنية على من قام به أو نزل به عدو . انتهى .

وكانت الحكمة أيضاً فى وجوب الهجرة على من أسلم ليسلم من أذى ذويه من الكفار فإنهم كانوا يعذبون من أسلم منهم إلى أن يرجع عن دينه ، وفيهم نزلت : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ [النساء : ٧٩] الآية ، وهذه الهجرة باقية الحكم فى حق من أسلم فى دار الكفر وقدر على الخروج منها . وقد روى النسائى من طريق بهز ابن حكيم بن معاوية عن أبيه عن جده مرفوعاً : « لا يقبل الله من مشرك عملاً بعد ما أسلم أو يفارق المشركين »^(١) . =

(١) جزء من حديث رواه النسائى فى الكبرى [٢٣٤٩] واللفظ له ، وابن ماجه [٢٥٣٦] ، وحسنه الألبانى فى صحيح ابن ماجه [٢٠٥٥] ، وانظر الصحيحة [٣٦٩] .

= ولأبي داود من حديث سمرة مرفوعاً : « أنا برئ من كل مسلم يقيم بين أظهر
المشركين » (١) . وهذا محمول على من لم يأمن على دينه .

قوله : « ولكن جهاد ونية » قال الطيبي وغيره : هذا الاستدراك يقتضى مخالفة
حكم ما بعده لما قبله ، والمعنى : أن الهجرة التى هى مفارقة الوطن التى كانت
مطلوبة على الأعيان إلى المدينة انقطعت ، إلا أن المفارقة بسبب الجهاد باقية ،
وكذلك المفارقة بسبب نية الصالحة كالفرار من دار الكفر ، والخروج فى طلب العلم ،
والفرار بالدين من الفتن والنية فى جميع ذلك .

قوله : « وإذا استنفرتم فانفروا » قال النووي : يريد أن الخير الذى انقطع بانقطاع
الهجرة يمكن تحصيله بالجهاد والنية الصالحة ، وإذا أمركم الإمام بالخروج إلى الجهاد
ونحوه من الأعمال الصالحة فاخرجوا إليه . وقال الطيبي : قوله : « ولكن جهاد »
معطوف على محل مدخول « لاهجرة » أى الهجرة من الوطن إما للفرار من الكفار
أو إلى الجهاد أو إلى غير ذلك كطلب العلم ، فانقطعت الأولى وبقي الأخرى
فاغتتموهما ولا تقاعدوا عنهما ، بل إذا استنفرتم فانفروا .

قلت : وليس الأمر فى انقطاع الهجرة من الفرار من الكفار على ما قال ، وقد تقدم
تحرير ذلك . وقال ابن العربي : الهجرة هى الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام ،
وكانت فرضاً فى عهد النبى ﷺ واستمرت بعده لمن خاف على نفسه ، والتى
انقطعت أصلاً هى القصد إلى النبى ﷺ حيث كان .

وفى الحديث بشارة بأن مكة تبقى دار إسلام أبداً . وفيه وجوب تعيين الخروج فى
الغزو على من عينه الإمام ، وأن الأعمال تعتبر بالنيات .

تكملة : قال ابن أبي جمة ما محصله : إن هذا الحديث يمكن تنزيله على أحوال
السالك لأنه أولاً يؤمر بهجرة مآلوفاته حتى يحصل له الفتح ، فإذا لم يحصل له =

(١) جزم من حديث رواه أبو داود [٢٦٤٥] ، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود

.....
= أمر بالجهاد وهو مجاهدة النفس والشیطان مع النية الصالحة فى ذلك .

فتح الباری [١٢٢/٦، ١٢٣] .

وقال النووى : قوله : « قال رسول الله ﷺ يوم الفتح فتح مكة : لاهجرة ولكن جهاد ونية » ، وفى الرواية الأخرى : « لاهجرة بعد الفتح » . قال أصحابنا وغيرهم من العلماء : الهجرة من دار الحرب إلى دار السلام باقية إلى يوم القيامة ، وتأولوا هذا الحديث تأويلين :

أحدهما : لا هجرة بعد الفتح من مكة ؛ لأنها صارت دار إسلام ، فلا تتصور منها الهجرة .

والثانى : هو الأصح : أن معناه : أن الهجرة الفاضلة المهمة المطلوبة التى يمتاز بها أهلها امتيازاً ظاهراً انقطعت بفتح مكة ، ومضت لأهلها الذين هاجروا قبل فتح مكة ؛ لأن الإسلام قوى وعزٌّ بعد فتح مكة عزّاً ظاهراً بخلاف ما قبله .

قوله ﷺ : « ولكن جهاد ونية » معناه : أن تحصيل الخير بسبب الهجرة قد انقطع بفتح مكة ، ولكن حصلوه بالجهاد والنية الصالحة .

وفى هذا : الحث على نية الخير مطلقاً ، وأنه يثاب على النية .

قوله ﷺ : « وإذا استنفرتهم فأنفروا » معناه : إذا طلبكم الإمام للخروج إلى الجهاد فأخرجوا ، وهذا دليل على أن الجهاد ليس فرض عين ، بل فرض كفاية إذا فعله من تحصل بهم الكفاية سقط الحرج عن الباقين ، وإن تركوه كلهم أثموا كلهم ، قال أصحابنا : الجهاد اليوم فرض كفاية ، إلا أن ينزل الكفار ببلد المسلمين فيتعين عليهم الجهاد ، فإن لم يكن فى أهل ذلك البلد كفاية وجب على من يليهم تميم الكفاية ، وأما فى زمن النبى ﷺ فالأصح عند أصحابنا أنه كان أيضاً فرض كفاية .
والثانى : أنه كان فرض عين ، واحتج القائلون بأنه كان فرض كفاية بأنه كان تغزو السرايا ، وفيها بعضهم دون بعض .

شرح النووى على مسلم [١٣/٧، ١٤] . =

= وفى تفسير الخازن عند قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾
يعنى بالشرك ، وقيل بالمقام فى دار الشرك ، وذلك لأن الله لم يقبل الإسلام من
أحد بعد هجرة النبي ﷺ حتى يهاجر إليه ثم نسخ ذلك بعد فتح مكة ، بقوله ﷺ :
« لا هجرة بعد الفتح » .

وفى تفسير الخازن أيضا فى سورة الأنفال عند قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ
بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ ﴾ [الأنفال : ٧٥] ، اختلفوا فى قوله من بعد ف قيل :
من بعد صلح الحديبية ، وهى الهجرة الثانية . وقيل : من بعد نزول هذه الآية .
وقيل : من بعد غزوة بدر ، ثم قال : والأصح أن المراد به أهل الهجرة الثانية لأنها
بعد الهجرة الأولى ، لأن الهجرة الأولى انقطعت بعد فتح مكة لأنها صارت دار
الإسلام بعد الفتح . ويدل عليه قوله ﷺ : « لا هجرة بعد الفتح » .

وقال الحسن : الهجرة غير منقطعة . ثم قال : ويجاب عن هذا بأن المراد من
الهجرة المخصوصة ، الهجرة من مكة إلى المدينة ، فأما من كان من المؤمنين فى بلد
يخاف على إظهار دينه من الكفار وجب عليه أن يهاجر إلى بلد لا يخاف فيه على
إظهار دينه .

تفسير الخازن [٢-١٩٨] .

وقال القسطلانى : ما دام فى الدنيا دار الكفر فالهجرة منها واجبة ، والحكم يدور
مع علته .

ويدل على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة
ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها » (١) .

فإن قلت : هل يصح إسلام من أسلم فى بلد الكفر ولم يهاجر؟ قلت : جوابه كما
قال النفراوى فى الفواكه الدوانى شرح الرسالة : لم يبين المصنف حكم من أسلم
من الحريين ، هل يجوز لهم البقاء فى دار الحرب أو يهاجرون منها إلى بلاد =

(١) رواه أبو داود [٩٧٤٢] وقال الألبانى فى صحيح أبى داود [٦٦١٢] : صحيح .

قول النبي ﷺ : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » (١) .

= الإسلام ؟ وبينه غيره بقوله : ولو أسلم قوم كفار فإن كانوا حيث تنالهم أحكام الكفار وجب عليهم الارتحال منهم ، فإن لم يرتحلوا يكونوا عاصين لله ورسوله وإسلامهم صحيح .

الفواكه الدواني [٥٦٤/١] .

وكما لا يختلف اثنان أن المقيم ببلد الحرب اختياراً عاص لله ورسوله لا يختلفان أيضاً أن شهادته لا تجوز .

وفى المعيار : لا تجوز شهادة الدجن - وهو من يسكن ديار الكفر دون عذر- وقضاتهم لأنهم رضوا أن يكونوا تحت إiyالة النصارى .

وفيه أيضاً سئل المازرى عن أحكام تأتي من صقلية من عند قاضيها أو شهود عدول هل يقبل ذلك أو لا ؟ . . ولا ندرى إقامتهم هناك تحت أهل الكفر هل هي اضطرار أو اختيار؟ فأجاب :

هذا المقيم ببلد الحرب إن كان اضطراراً فلا شك أنه لا يقدح في عدالته وكذلك إن كان تأويله صحيحاً مثل إقامته ، . . لرجاء هداية أهل الحرب ، وأما لو أقام بحكم الجاهلية والإعراض عن التأويل اختياراً فلا شك أنه يقدح في عدالته ، من ظهرت عدالته وشك في إقامته على أى وجه ، فالأصل عذره ، إلا أن تكون قرائن تشهد على أن إقامته كانت اختياراً ، وتولية الكافر للقاضي باطلة ومع ذلك لا يقدح في تنفيذ أحكامه إذ حجر الناس بعضهم بعضاً واجب .

وقال القسطلانى : قال الماوردى إذا قدر على إظهار الدين في بلد من بلاد الكفر فقد صارت البلد به دار الإسلام فالإقامة فيها أفضل من الرحلة لما يرجى من دخول غيره في الإسلام .

إرشاد السارى [٢١٣/٦] .

(١) أخرجه البخارى [٦٤٨٤] عن عبد الله بن عمرو رضى الله تعالى عنهما .

وهناك هجرة باقية لنا وهى المفارقة لأجل الجهاد فى سبيل الله ، أو الهجرة إلى طلب العلم ، أو الهجرة لأن هناك مجالاً للطاعة أكثر ، فلنفترض أن هناك مكاناً يُضيق فيه على المؤمنين لدرجة أنهم لا يستطيعون فيها أداء ما افترضه الله عليهم من العبادات كصلاة الجمعة والجماعة مثلاً ، فيترك أهل الإيمان هذا المكان فراراً إلى مكان فيه مجال يأخذ فيه المؤمن حرية أداء الفروض الدينية ، وكذلك الفرار بالدين من الفتن كل هذه هجرات إلى الله . والنية فى هذه الهجرات لا يمكن أن تكون محصورة فقط فى طلب سعة العيش . ولذلك لا يصح أن يكون الشغل الشاغل للناس فى هذا الزمان هو سعة العيش بل عليهم أن يبحثوا عن صحة الدين وإقامة شعائره (١) .

(١) قال رسول الله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو إلى امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » .
أخرجه البخارى [١] عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه .

قصيدة موكب النور

نظمها الشيخ الإمام في هجرة الرسول ﷺ

أريحى سماح والإيثـار	لك إرث يا طيبة الأنوار
وجلال الجمال فيك عريق	لا حُرِمنا ما فيه من أسرار
تجتلى عندك البصائر معنى	فوق طروق العيون والأبصار
ومن الحسن ما يضيق به الحسن	.. وعن فاقد الهوى متواری
قد حضنت الهدى حنوناً فألقى	فيك إشعاعه عصا السيار
هتف الحق في سماء الفياق	أحنّ يا ليل في ضميرك ساری
حضنت ركبه العناية فانساب	.. منيع الجنب كالإعصار
والذى حاطه الإله بعين	كان في غنية عن الأستار
قل لطلابہ طلبتم عزيزاً	يتهادى في قبضة الجبار
هل رأيتم فتى الفداء عليّاً	كيف يحتل قبلة الأخطار
ويرى الموت قد أطلّ عليه	كاشر الناب جائع الأظفار
لا يبالى به ويسخر هُزْءاً	من مشيب قبل اسوداد العذار
كيف يرتاع والنبوة غلته	.. حديد المهند البتار
يا وفاء الصديق في رحلة الحق	سلام عليك يا خير جار
كنت درعاً لإقامة ومسيراً	ونصيراً يرجى لدى إعسار

علم الله ما انطويت عليه
وكفاه على الجزاء دليلاً
نعم الغار بالنبي طروباً
نعم الغار مرحباً بالهدى المحض
مرحباً بالحياة أرسلها الله
كم حسدنا حراء حين ترى الروح
فحراء وثور صارا سواء
عبدونا ونحن أعبد لله
تخذوا صمتنا عليهم دليلاً
قد تجئوا جهلاً كما قد تجئوه
أنزلاً منزلاً كـريماً على الله
فعلى مذخلى تقام خيوط
هى أوهى اليوت لكن سققتها
أنا عين وأنتما النور فيها
وسياتى الحمام يفرخ أمناً
لا تراعى أسماء هيا إلينا
واخطرى كاليقين يهزأ بالشك
خاتم الرشـل لا أطيق وداعاً
غير أنى أرى المدينـة ظمأى

فجـزاه إمامة الأبرار
ثانى اثنين إذ هما فى الغار
والصـدى عازف على الأوتار
.. بلحن التكبير والإكـبار
.. لدنيا تورطت فى العثار
.. أميناً يأتيك بالأنوار
بهما أشفع لأمة الأحجار
.. من القائمين بالأسـحار
فغدونا لهم وقود النار
.. على ابن مريم والحوارى
.. منيعاً على أذى الكفار
تحدى عزائم الجرار
عزة الصلب قوة القهار
وهو فيها كالهذب بالأشفار
وسلاماً يكون خير شعار
وأعبنى على سـماحة قارى
حياء من الدجى فى خـيار
وعن المجتلى يعز اضطبارى
فاروها طالعماً يبل لوارى

أنا آثرتها على كفاء
أطرق الغار خاشعاً وسرى الهادى
فمشى الخير حيث يمشى وولئ
وأتى أم معبد فتسامت
ويحها .. ويحها وويح كريم
قدّمت شحاتها بضرع بخيل
وإذا الله كان عـون نبي

وجزاء الإيثار بالإيثار
.. حياة تدبّ بين القفار
كل عـنم وطاح كل افتقار
وهى من فكرة القرى فى دوار
حين تؤذيه صدمة الإعسار
فإذا مشهه قال كالمـدار
فازجر العقل عن حدود اقتدار



حرفت قلبها المدينة شوقاً
أسرعى ناق فوق رحلك نور
رحمة للحبيب يرجو حبيباً
حشدوا حشدهم فلما تجلّى
مرحباً مرحباً بأكرم داع
أنت بشرى عيسى ودعوة إبراهيم
أنت يا غرة الوجود خيـار
فاقض فيما لنا بما أنت قاض
جلجل الحق قوة وحجاجاً
فدّها الشرك ما دهاه وخرت

عقرياً لطلعة المختار
ترتجيه مواكب الأنصار
فيرى الدهر فى أقلّ انتظار
كبر الحشد من جلال الوقار
وعلى الرّحب يا جليل المزار
.. جاءت سـليلة الأطهار
من خيـار مقطّـر من خيـار
ذاك حق الأنصار فى كل دار
واضحاً نهجـه وضـوح النهار
جبهة الغنى فى سحيق القرار



ذُكِّرِينَا يَا هَجْرَةَ الْحَقِّ مَا قَالَ
وَامْلئِي النَّاسَ عَزَّةً وَطُمُوحاً
إِنَّمَا أَنْتَ عَسْـسَبْرَةٌ وَتَأْسُ
أَيْقُظِي الشَّرْقَ مِنْ سَبَاتٍ عَمِيقٍ
فِيهِ مِنْ مُحْكَمِ الْكِتَابِ مَلَاذُ
عُلْمِيهِ الْفَدَاءُ حَزْماً وَعَزْماً
عُلْمِيهِ أَنْ الْحَيَاةَ صِرَاعٌ
عَلَمِيهِ أَنْ الْقُوَى ظُلُومٌ
فَقُوَى عَلَى الضُّلَالِ مَقِيمٌ
أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ فِي أُمَمِ الْأَرْضِ
كَيْفَ بِاللَّهِ تَسْتَقِرُّ نَفُوسٌ
أَنْقُولُ الْإِسْلَامُ ظُلْماً وَجَوْراً
« إِنَّا عَائِدُونَ » تَصْرُخُ فِينَا
دَوْلَةُ الْعِلْمِ وَالسِّيَاسَاتِ وَالْحَرْبِ
كُلُّ دُنْيَا تُبْنَى عَلَى غَيْرِ دِينٍ

وَكَيْفَ اسْتَهْلَ خَطُوهَا السُّفَارُ
وَأَرَيْنَا رَوَائِعَ الْأَثَارِ
صَيَّرُوها ضَرْباً مِنَ الْأَخْبَارِ
وَاحْمِلِيهِ إِلَى مَسْأَرِ السُّدَارِ
فَاقْدَحِي يَا رُؤُوسُ فَالْزَنْدُ وَارِ
فَجْنِي النُّحْلَ مِنْ أَذَى الْمُشْتَارِ
مِنْ سَهْمِهَا فِيهِ ذُلٌّ فِي الْمَضْمَارِ
كَمْ يَهَادِي كِبَارَهُمْ بِالصُّغَارِ
وَقَطِيعٌ مِنَ الضُّعَافِ يَجَارِي
أَيْرُضِي الْإِسْلَامَ مَا هُوَ جَارٍ ؟
وَالْأَشْقَاءُ بَيْنَنَا فِي اشْتِجَارِ
وَفَلَسْطِينَ لَمْ تَعُدْ مِنْ دِيَارِ
صَرْخَةٌ تَسْتَعِيثُ مَعْنَى الشُّعَارِ
.. وَدُنْيَا الْهَوَى وَالْإِسْتِعْمَارِ
فَبِنَاءٍ عَلَى شَفِيرِ هَارٍ (*)

(*) من قصيدة موكب النور للشيخ الإمام .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٧
الهجرة النبوية .. دروس وعبر	١٨
معنى الهجرة	٤١
فضل الهجرة والترغيب فيها	٤٥
فضل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار	٦٠
جزاء السابقين الأولين	٧٣
عرض النبي ﷺ نفسه على القبائل	٧٩
بيعة العقبة الأولى	٨٦
بيعة العقبة الثانية	٨٩
من أسباب الهجرة	٩٣
المؤامرة على رسول الله ﷺ	٩٧
ولا يحق المكر السيء إلا بأهله	١٠٤
أوائل المهاجرين	١١٣
بدء الهجرة النبوية المباركة	١١٩
الرسول ﷺ وصاحبه في غار ثور	١٢٧
اثنان .. الله ثالثهما	١٣٠
دليل النبي ﷺ في الهجرة	١٣٣
سراقة ابن مالك يتبع أثر رسول الله ﷺ	١٣٥
قصة أم معبد	١٣٩
وصول الرسول ﷺ المدينة	١٤٣

الموضوع	الصفحة
بناء المسجد النبوى الشريف	١٥٢
معاهدة الرسول ﷺ مع اليهود فى المدينة	١٥٨
المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار	١٦٢
تغير القبلة	١٦٩
لا هجرة بعد الفتح	١٩٢
قصيدة موكب النور « نظمها الشيخ الإمام فى هجرة الرسول ﷺ »	١٩٨
الفهرس	٢٠٣



أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
ت ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠

صدر حديثاً :

لفضيلة الشيخ الإمام محمد متولى الشعراوى

إنكار الشفاعة

محاولة جديدة للطعن فى السنة والتهجم على العلماء
من موضوعاته :

- كتاب مُنكر الشفاعة .. هل هو عودة لعصر الإلحاد ؟
- شبهات مُنكر الشفاعة والرد عليها .
- إثبات الشفاعة والرد على المعتزلة .
- تفسير آيات الشفاعة .
- وجوب طاعة رسول الله ﷺ واتباع أمره .
- منزلة السنة من القرآن الكريم .
- كتابة الحديث الشريف .. النهى ، والأمر .
- صحائف الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، ما كُتب منها
فى عهد النبى ﷺ وما كُتب بعده .
- بدء تدوين السنة والذين قاموا بهذا العمل الشريف .
- دعاء على أبواب جهنم :
- الجاهلاتيون .. الخوارج .. المعتزلة
- هل يجوز التكفير بالمعصية ؟
- وهل يخلد المسلمون فى النار ؟
- موقف الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً .
- بطلان قول الخوارج والمعتزلة وأذئابهم والرد عليهم .

صدر حديثاً لفضيحة الشيخ الإمام :

الشفاعة .. والمقام المحمود

- الإجماع على أن أمة النبي ﷺ أمة مصطفاة لا يخلد منها أحد في النار ، والأحاديث الدالة على ذلك .
- الشفاعة .. وحسن الظن بالله تعالى .
- الشفاعة .. ومقام الألوهية .
- باب ما يرجى من رحمة الله ومغفرته وعفوه يوم القيامة .
- شفاعة رب العالمين .
- الشفاعة العامة لدينا ﷺ لأهل المحشر جميعاً .
- شفاعة النبي ﷺ لأمته .
- شفاعة أهل الجنة في أهل النار من المؤمنين .
- الشفعاء من هذه الأمة .
- الله تعالى يغفر مادون الشرك .
- أهل الأعراف .. رد على منكري الشفاعة .
- الميزان .. فيه رد على منكري الشفاعة .
- شبهات منكري الشفاعة والرد عليها من القرآن الكريم .

صدر حديثاً لفضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى

أحكام الزواج والطلاق والخلع

من موضوعاته :

الاختيار : الكفاءة الجمال . الزواج من الكتانية .
المحرمات من النساء .

الزواج : الولاية . الإعلان . الخطبة . الصداق .

القوامة . تعدد الزوجات . الزواج العرفى .

زواج المسيار . الزواج السرى . زواج

المتعة . زواج الشغار . زواج المحلل . زواج

المحرم . زواج الزانى والزانية .

الطلاق : طلاق السنة . طلاق البدعة . الطلاق قبل

الدخول . الطلاق الرجعى . عدة المطلقة .

عدة الحامل . عدة المتوفى عنها زوجها .

عدة اليأس .

النشوز : نشوز الزوج . نشوز الزوجة .

الخلع : أحكامه من القرآن والسنة وواقع الصحابة .

الإيلاء . الظهار . اللعان . التفريق للضرر .

زوجة المفقود . زوجة الغائب .

صدر حديثاً :

لفضيلة الشيخ الإمام : محمد متولى الشعراوى

أحكام الصلاة

وَصِفَةُ صَلَاةِ النَّبِيِّ ﷺ كَأَنَّكَ تَرَاهَا

من موضوعاته :

- كيف فُرضت الصلاة ؟
- الصلاة الركن الفارق بين الإسلام والكفر .
- صلاة الخاشعين وصلاة القانتين .
- الصلاة وتكفير الذنوب وتفريج الهموم .
- الصلاة الوسطى ○ صلاة الجمعة ○ صلاة العيد .
- صلاة التطوع ○ صلاة الكسوف
- صلاة الاستسقاء .
- صلاة الجماعة ○ صلاة المسافر والمريض .
- صلاة الحرب والخوف .. وقصر الصلاة .
- الأوقات التى تُهى عن الصلاة فيها .
- فضل الصلاة لوقتها وفضل الصلوات .
- صفة صلاة النبي ﷺ من التكبير حتى التسليم .
- قيام الليل .
- الصلاة أرجى أوقات قبول الدعاء .

منتدى سور الانزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

